

أشواق

تضوع الشوق من رسائل العشق
بين العصب الوامق والإلف الصامق
من خلال رسائل عميد الأندلس المغربي

عباس الجبراري

دراسة للدكتورة بديعة لفضايلى

أشواق

تضوع الشوق من رسائل العشق
بين الحب الوامق والإلف الصالح
من خلال رسائل عميد الأدب المغربي
عباس الجراري

دراسة: الدكتورة بديعة لفضايلى

مراجعة: حميدة الصائغ الجراري

الناشر: منشورات النادي الجباري - 118

الإيداع القانوني: 2024MO5028

ردمك: 1-18-558-9920-978

طبعة: 1446 هـ / 2025 م

الطباعة والإخراج الفني: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط

تخليداً للذكرى الأولى لرحيل عميد الأدب المغربي

أشواق

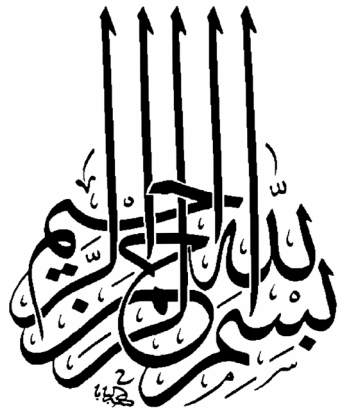
تضوع الشوق من رسائل العشق
بين المصعب الوامق والإلف الصالح
من خلال رسائل عميد الأدب المغربي

عباس الجراري

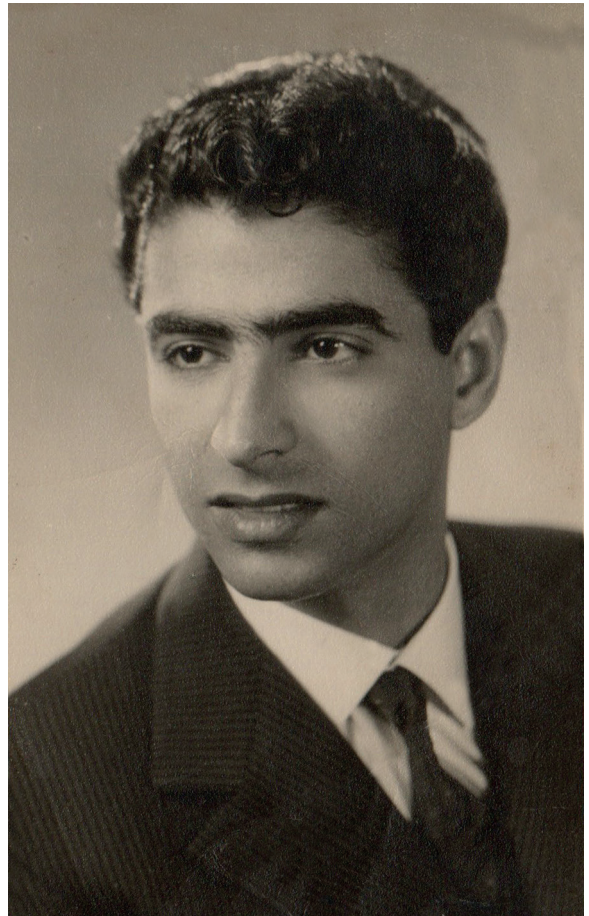
دراسة للدكتورة بديعة لفضايلى

مراجعة : حميدة الصائغ الجراري









في الذكرى - طنا، الحياة وتب
الأعمال
وفي الذكرى - بجر الإحسان بالحب و
العقود
وفي الذكرى - فكل شيء عزيزة وغال
وفي الذكرى - فديوم ذكر الحاس
وفقه صغرى وجيرة عهد كل هذه المعاني الجميلة
الصادقة
فأبلى
GEVAERT
176/15
L 954
سفوديو باز
عادم سنيان اشواق



مقدمة



من رسائل العشاق يعبق الاشتياق، وعلى جمرة البين والفراق تنهمر عبرات
المآقي تلوذ المهج بتمني التلاقي، وتوشك الأحلام أن تدني ما أبعد الشقاق،
فتنسل الحروف لتحريك بتؤدة وشائج الصباية ونغم الوفاق، وتكاد من فرط
توهجها الذي لا يطاق أن ترزي بأكبادهم الحرى وتصليها المشاق، فإذا العبارات
العذبة المساق تطرب ذلك الخفاق.

ما انفكت فلول الحمائم الزاجلة مستترة بهديلهما والغمام أن تمرق مسدلة
ريشها في التمام وعلى سويقاتها الدقيقة حاذت أخبار تقهقر أو انتصار، ونقلت
نبأ دسياسة أو فرار، وربما أعلمت بموعد لقاء أو نفار، مخترقة حجب الحرس
والعسس والأسوار.

في ممالك العشق الندية، تذررت تلك الخطابات بحجب خفية، استعصت
على البدو حين ثوت متوارية، تنمو في خفر وتزهر متدثرة بحجب الإضمار،
حروف ضمختها الصباية وألهب جبينها الوجد وأزرى بها التوله حين ظل وجيبها
أبدا ينشد الوصال بين خافقين.

وبين مرسل ملتاع حذر ومتلق مقيم منتظر انسابت تلك المكاتبات تترى
بين فعلي البعث والتقبل منتحية جادة البوح المستتر لا المعلن، ولاغرو أن هذا
السمت من الترسل يعلو قدره ويؤبه له ويحفل به متى ما ارتبط بشاعر ذي ذبوع
صيت أو مت بصلة لكاتب على قدر من الحصافة أو تعلق بشخصية ذات تألق
فكري جلي أو نفوذ سياسي قوي.

أن نعاين هذه الرسائل التي تتسم بكونها شخصية، معناه أن نقتحم على
المتراسلين كليهما كونهما العاطفي الدافئ الذي شيدها ثنائي الأطراف، أي أن

نتلصص على عوالم أرادها لهما ونهتك ستائر أخبار وأسمار ومشاعر ما كنا لندرکها، أن نفتح هذه المكاتبات معناه أن نكتشف الوجه الآخر لكاتبها حين نستمع إليه في أرق تعبيراته وأشدها غورا مجردا من تنظيراته ورتبه والوقار.

ومن ثم فلاعجب أن تعنى زمرة النقاد والدارسين بهذا السميت من الكتابة التي تدخل ولاريب ضمن غمار الأدب الشخصي ذي المنحى الذاتي والذي يهب القارئ إمكانية الدنو من كاتبها وسبر أغواره كذات منشئة ومرسلة للخطاب وكسارد وبطل للأحداث داخلها مع ارتكاز على ضمير محوري هو الأنا.

ليس من العسير أن نميز داخل رسائل العشاق بين نوعين اثنين من الخطابات على قدر من التباين والتماثل في ذات الآن، أما أولهما فيرتبط برسائل العشق التي تبودلت بين شعراء وكتاب وحييات لم يكتب لهم الاقتران بهن، وأما ثانيهما فهي خطابات العشق التي بعث بها المبدعون مطمئين غير ممارئين إلى زوجاتهم. ولعل هذا الصنف الأخير هو غايتنا والمقصد.

حين زرت عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري رحمة الله عليه في منزله العامر "زهرة الآس" بمدينة الرباط ذلك الصباح وكانت آخر مرة أراه قبل وفاته بقليل لم أكن أدرك أنه سيوثرني مرة أخرى بعطية ندية مثلما فعل حين منحني "مخطوطة نسيم البوسفور" منذ سنوات يسيرة، فبعد أن عدته للاطمئنان على صحته واستقبلني وزوجه الفاضلة الأستاذة حميدة الصائغ الجراري بكل المحبة والود المعهود فيهما، فوجئت، إذ أنني لم أحز فضلا نظير حيازتي يومها لأول نسخة من أضمومة رسائله العاشقة "أشواق" والتي بعثها إلى زوجته الكريمة بين سنتي 1960 و1981 وسلمتها لي بعد أن سهرت على جمعها وإعدادها وكتابة تقديم لها وأشرفت على طبعها.

وأنا أحمل كتاب الرسائل بين راحتي وأراوح النظر إلى الأستاذ طورا وإلى حليلته طورا آخر، أسعدني بريق الحب في مقلهما وكان منشئها يتذكر توجهه وقت الكتابة وكان متقبلتها تستحضر وجيب خفاقها زمن القراءة.

إن السعادة لتغمر مني الفؤاد وإن الحبور ليتملكني وأنا أقدم هذا الكتاب، الذي يعد أول دراسة أنجزت لآخر كتاب نشره عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري قبل أن يغادرنا إلى دار البقاء، وقد وسمته بعنوان ذي دلالة هو: "تضوع الشوق من رسائل العشق بين المحب الوامق والإلف الصادق" من خلال رسائل عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري "أشواق".

وعساني أكون قد وفقت في هذه المهمة التي اجتباني لها حين خصني "بأضمومة أشواق"، حيث تناسب تلك الخطابات البهية الهوينى ولها يسمع هسيس وخرير، تنسرح لتبسط سويداء الفؤاد وتولجنا خلسة إلى الأماكن الأكثر خفرا واستتارا، وبين الترسل والحكاية وبين السرد والغواية نسمع تناجي الأرواح طورا ونحيب الالتئاع أحيانا، قد نلمح لوما أو عتابا أو نصادف جفاء وربما اعتذارا، لكنها تعبق في كل الأوقات بعبير الحنين وعطر الاشتياق.



مكمل

1. الرسالة وتعبير الخطابات
2. الزوجة في الألب العربي
3. الزوجة في ألب الرسائل



1. الرسالة وتعبير الغصبات

قبل كتاب سليمان⁽¹⁾ الذي ألقاه الهدهد بين يدي بلقيس طوعا، وقبل صحيفة المتلمس⁽²⁾ التي حملها براحتيه كرها، وحتى صحيفة لقيط بن يعمر⁽³⁾ التي خلدها شعرا، بدت التعابير الإشارية كأولى الرسائل التي بعثت دونما احتياج إلى قرطاس ولا قلم، ولعل الميداني في مجمع الأمثال ما أغفل قط هذا المنحى وهو يورد المثل العربي "أنا النذير العريان"⁽⁴⁾. موما إلى ما كانت العرب قديما تركز إليه من بعث لرسائل تركز على لغة الجسد للإشعار بقدوم العدا والتنبية على هجوم الخصوم، وفي ما تلا ذلك ستشهد الرسائل الاعتماد على المنحى الشعري متساوقة مع السمات الشفوي الذي وسم العصر الجاهلي، حيث نلني حاتما الطائي ينشد :

أَلَا أْبَلِغَا وَهَمَ بَنِ عَمْرٍو رِسَالَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْءُ بِالْخَيْرِ أَجْدَرُ⁽⁵⁾

(1) - "أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ" سورة النمل، الآية: 28، "قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِي أَلْقِي إِلَيَّ كِتَابَ كَرِيمٍ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ"، سور النمل، الآية: 29-31

(2) - صحيفة المتلمس التي قال عنها :

مَنْ مُبْلِغُ الشُّعْرَاءِ عَنِ أَخْوَابِهِمْ خَسِرًا فَتَصَدَّقَهُمْ بِذَلِكَ الْأَنْفُسِ
أَوْدَى السَّذِي عَلَسَقَ الصَّحِيفَةَ مِنْهَا وَنَجَا حِذَازَ حِبَائِسِهِ الْمُتَلَمَّسِ
أَلْقَى صَحِيفَتَهُ وَنَجَّتْ كَوْرَهُ عَنَسُ مُدَاخَلَةِ الْفَقَارَةِ عِرْمَسُ

أنظر ديوان شعر المتلمس الضبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية 1970، ص: 172

(3) - لقيط بن معمر، من إباد، هاجم كسرى قومه وكان لقيط متخلفا عنهم بالحيرة، فكتب إليهم

سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادِ

أنظر "ديوان لقيط بن يعمر، حققه وقدم له الدكتور عبد المعيد خان، دار الأمانة مؤسسة الرسالة، 1981، ص: 35

(4) - : "إنها قالوا "النذير العريان" لأن الرجل إذا رأى الغارة قد فجأهم وأراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار بها ليعلم أنه قد فجأهم أمر، ثم صار مثلاً لكل أمر تخاف مفاجأته، مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري

الميداني، تحقيق: نعيم حسين زررور، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية 2004، ج: 1، ص: 48

(5) - ديوان حاتم عبد الله الطائي وأخباره، تحقيق: الدكتور عادل سليمان جمال، المؤسسة السعودية بمصر، د، ص :

رَأَيْتُكَ أَدْنَى النَّاسِ مِّنَّا قَرَابَةً وَغَيْرَكَ مِنْهُمْ كُنْتُ أَحَبُّ وَأَنْصَرُ

ومثله حكيم الشعراء زهير بن أبي سلمى حين صدح:

أَلَا أَبْلُغُ الْأَخْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلُّ مُقْسَمٍ⁽¹⁾!

وظل السبيل غير المكتوب مهيمنا على جنس الرسائل في ما تلا ذلك من عصور- حتى وإن لم تكن شعرية سيما في أوساط العشاق، فنشط سوق الرسل الذين باتت الرسائل معقودة بأسلة لسانهم، فهذا الوشاء يورد حكاية فيقول: "أخبرني الواضح بن ثابت الكاتب قال: كنت عند بعض الكتاب إذ دخلت عليه وصيفة... فقالت: مولاتي تقرأ عليك السلام، وتقول لك يا أخي جفوتنا من غير استحقاق للجفاء، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء، وإني لم أزل واثقة بإخائك، راجية لحسن وفائك، وتحقيق ظن مؤملك، أولى بك من الوقوف إلى تجنبك. فقال لها: إقرئي عليها السلام، وقولي لها: يا أختي أنا من ودك، على أحسن عهدك، ومن الأمل لك أضعاف ما عندك، ولقد استوحشنا من فقدك، فاجعلي لنا حظا من أنسك"⁽²⁾ ولعل شاعر الملحون كان أقدر على رسم معالم هذا الوسيط الذي يمتلك مهارة إيصال خطاب المدنف حارا دون أن تطفئ جذوته تلافيف الورق، ولا غرو أن الدكتور عباس الجراري الذي اعتنى بالزجل واستبطن دروبه رصد في كتابه "القصيدة" هذا السعي حين قال: "وقد يلجأ المحب إلى إرسال مبعوث يخبر المحبوبة بحاله وقد أطلق الشعراء اسم "المرسول" على القصائد التي تحكي ذلك"⁽³⁾، وممن اشتهر في هذا الدرب الشاعر الغرابلي صاحب قصيدة "المرسول" التي يقول فيها:

(1)- ديوان زهير بن أبي سلمى، حمدون طماس، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثانية 2005، ص: 67

(2)- الموشى أو الظرف والظرفاء، ابن يحيى الوشاء، تحقيق ودراسة د فهمي سعد، عالم الكتب، الطبعة الأولى 1986، ص: 199

(3)- القصيدة، الزجل في المغرب، عباس الجراري، مطبعة الأمانة 1970، ص: 245

أمر سولي في الله صبري هذا اشحال وانا فاني ميسور⁽¹⁾

أمر سولي من يوم فاش صديت وانا نرتجى رجوعك بوصاله

ونونس قلبي بالرضى عسى بهنى في الامان

أمر سولي واين الحبيب واين الباهي واين الذي اشتقت خياله

قال المرسل أعاشق الزين اصبر لا غنى والصاعب يهوان

محبوبك دارت به اليدين لا ريب حرزوه عليك العديان

وهيهات أن نتغاضى عن قصيدة "كنزة أو المرسل" لأدريس بن علي السناني الملقب بـ "الحنش" وفيها يبلغ صبه التحايا وأنات الالتياح ويرقب منها ردا به يشفى ويرتاح، ومنها:

سير أمر سولي سير بالسلامة في حفظ الله قل للعدراوية⁽²⁾

ارحم وجدي واحيي الروح بوصالك يا كنزة

وتسلم مني على الغيدة يوم الوصول وانترجاو عن التمداد

وسالها كيف الحال بعدا مع افراقنا والوحش والبعداد

واشواقك قلها تعدى لكن عاشقك باقي في الميعاد

ولم تلبث الرسالة أن عدت خطابا مكتوبا ونصا مسطورا ينتقل من باث ناء إلى متقبل مترقب ووجل حتى وإن كان الوسيط طير حمام، يقول ابن حزم الأندلسي: "وإني

(1) موسوعة الملحون، ديوان الشيخ أحمد الغرابلي، إشراف وتقديم الأستاذ عباس الجراري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 2012، قصيدة المرسل، ص ص 354-355

(2) موسوعة الملحون، ديوان الشيخ أدريس بن علي السناني المعروف بالحنش، إشراف وتقديم الأستاذ عباس الجراري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 2012، قصيدة كنزة أو المرسل ص: 254-

لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامةً مؤدبة، ويُعقد الكتاب في جناحها. وفي ذلك أقول قطعة منها:

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجاءت نحوه بالبشائر
سأودعها كتبي إليك فما كها رسائل تهدي في قوائم طائر"⁽¹⁾

"لا غرو أن الرسائل كجنس أدبي أثيل استمدت عراقتها من امتدادها التاريخي كتشكيل أدبي من زاوية، ومن امتلاكها لسنن ثابت يرسخ هويتها من زاوية أخرى، فهي تلك الخطابات المكتوبة ذات السمات الثري المخصوص التي يبعثها مرسل ناءٍ شط به النوى إلى متلقٍ مبارح له غير مائل أمام ناظره، لكنه يستحضره وينشأ الخطاب لأجله ويتنظر رده، فنصوصها لا تنتهي بالإرسال ولكنها تتنامى بالإجابة لأنها كتابة موجهة للآخر، ومن ثم تؤسس تواصلاً كتابياً بيننا يتبادل فيه طرفا العملية التراسلية البعث والاستقبال."⁽²⁾

في كتب الأدب العربي الأكثر عراقة ثوت الرسائل كإرث أدبي مسطور شهد على تخاطب بين طرفين لبث حين انتزع من الشفهي الزائل وأضحى محبراً في صحائف مكنونة ضمنت له الخلود، ولعل جمهرة رسائل العرب حوت ذخيرة من المكاتبات التي أصلت لهذا السمات من الكتابة ذات التميز، تمنحنا القواميس اللغوية مقاربة لدلالة الترسل ومعنى الرسالة، فبينما يعرفها التهانوي بأنها "في الأصل الكلام الذي أرسل إلى الغير"⁽³⁾ يستحضر ابن منظور مفهوم التوجيه والبعث الملازمين لها قائلاً: "والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليهم، والاسم الرّسالة والرّسالة والرسول والرسيل"⁽⁴⁾ بينما

(1)- طوق الحمامة في الألفة والالاف علي بن حزم الأندلسي، دراسة وتحقيق عبد الحق التركباني، دار ابن حزم الطبعة الثانية 2013 ص: 221

(2)- نسيم البوسفور، عباس الجراري، إعداد ودراسة: دبدبعة لفضايلى، منشورات النادي الجراري، الطبعة الأولى 2020، ص: 55

(3)- كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي بن علي التهانوي، دار صادر بيروت، د ط، د ت، الجزء الثاني، ص 584

(4)- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ص 283.

يؤكد ابن وهب على خصيصة البعاد والغياب موضحاً أنها "كلام يرأسل به من بعيد." (1) ولعل القلقشندي كان دقيقاً حين أجلى محتواها وطرفي الخطاب فيها مؤكداً "وهي جمع رسالة، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب: من حكاية حال من عدو أو صيد، أو مدح أو تقريظ، أو مفاخرة بين شيئين... وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال" (2).

إن الرسائل التي بدأت بعبد الحميد وانتهت بابن العميد كما قيل قسمت وفق رأي منظرها إلى ديوانية وإخوانية، وإذا كان القلقشندي عرف الديوانية فإن صاحب جواهر الأدب سمى الإخوانية ب"الرسائل الأهلية وتعرف برسائل الأشواق هي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء وأسفرت عن مكنون الوداد وسائر الفؤاد ولا حرج على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على أحواله وأخفى السؤال في أحوال أصحابه، وتتفرد هذه الرسائل بأن يطلق الكاتب فيها العنان للأقلام ويتجافى عن الكلفة ويعدل عن الانقباض." (3)

إن هذه المكاتبات التي توارت عن العلن وحاذت عن الأغراض الرسمية ذات السنن الديوانية وربت بالبعث والاستقبال بين اثنين لم تؤلف بينهما صلوات تكليف ولا تشریف هي قبلتنا والمرمى.

(1)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني بغداد، الطبعة الأولى 1968، ص 152.

(2)- صبح الأعشى للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب السلطانية 1338 هـ 1919 م، د ط، الجزء 14، ص: 138.

(3)- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، السيد احمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر الطبعة 27 سنة 1969، ص: 45.



لكنه الكتاب جميل
وكل من أتى لوقتك ولذاتك
هذه نصيباً زفها والدك إلى صحنه فطبخ
وتوجبهات أذكرها كل مرة بخلاص فقط عشاء
فيعود لصفاته وثقافته
والعلم غير ما أهديك يا صديق العزيزة في مثل هذه
اللزقة الفاضلة والآن نقام على الباب منه أو يروح
فقطيلها من عبايك الذي يتخف لك كل يوم
وتؤنسك، وحسبنا أنه تكلم غير دافع لك على
١١ سندا ٨/٥/١٩٦٠
القاهرة

2. الزوجة في الألب العربي

لم تبرح الرسائل الذاتية مضامير التواصل كإحدى وسائل التبليغ وسبله منذ عهد بعيد ولا غرو أن تحبير هذه الخطابات وترقيش تلك المكاتبات بين خلان يكاشفون بعضهم البعض بما يعترتهم من غم أو انفراج وما يعن لهم من أفكار وخيالات وما إليه يصبون من منى وتطلعات دونما تحرج أو خجل، وبلا سأم ولا ملل، يحادثون بالحرف من هم متوارون عن مدى أبصارهم ويتنظرون الرد من أناس يرقبون صحائفهم هو ما تعنيه الرسائل الإخوانية التي تمردت على قواعد الترسل حين انسقت خلف التعبير عما يجيش في خلد كاتبها ولم تمثل لتقعيدات غير مجدية أحيانا تلزمها الخطابات الرسمية أو الرسائل الفنية وما شاكلها. ولئن كانت هذه الرسائل في المعتاد تنتقل بين الصديق المخلص والقريب النائي والحبيب المدنف، فإننا سننتقي منها أرقها منحى وأشدها صدقا أي تلك التي بعثها الأدباء إلى زوجاتهم اللائي شاركنهم درب الحياة بعد أن بارحنهن لروح من الزمن، فأتت حارة رقصها لهيب الجوى وتلظت في أتونها لواعج الاشتياق على جمر الالتياح وستغدو أضمومة رسائل الدكتور عباس الجراري "أشواق" أجمل نموذج وأكمله لتمثيل تلك الصحائف التي أرسلها الأدباء إلى من إليهن هفوا وبهن هاموا، تحملها حمائم الشوق عبر سطورهم إلى مخادع من عبثن بأفئدتهم وأسرنهم رغم النأي والبين والفراق.

يجمل بنا ولا ريب قبل أن نفاك مغالق الرسائل الجرارية الملتهبة الحنايا، أن نجيل الطرف في ما منحنا الإرث الأدبي العربي من نصوص خص بها المبدعون زوجاتهم وقصروها عليهم.

حين نمطي هودج السؤال ونطاً لجة ممالك الأدب تحدونا رغبة اكتناه واحات القول علنا نظفر ببهي ما نثره أو نظمه الأدياء في حلائهم من رسائل أو أشعار، لا نكاد نعود بزاد وفيه من هذا الاستبطان المضني، اللهم إلا من بداية باكية سنها جرير حين وارى زوجته التراب منشدا على استحياء :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِي إِسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ⁽¹⁾
وَلَقَدْ نَظَرْتُ وَمَا تَمَتُّعُ نَظْرَةَ فِي اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الْمُحْفَارُ

وفي جراءة غير معهودة وتلويح بعادات القبيلة خسف جرير للشعراء عين رثاء الزوجات فاستحلوا بعده هذا الندب الحزين على نساء بارحنهم دون أن يدركن مقدار شغف بعولتهن بهن ولا استعذبن مناقبهن وهي تتلى على مسامعهن وهن بها على الملا متباهيات، قصائد مبلولة بعبرات الفقد والأسية تربعت على طولها ذكرى زوجات تجرعن الردى ولم يبق منهن إلا رسم وشاهد قبر، ومضى الشعراء مكلومين يرددون فجيعة الغياب الأبدى لحليلاتهم مثل الشريف الرضى⁽²⁾ وابن الرومي⁽³⁾ والبارودي⁽⁴⁾ وعبد الرحمن

(1)- ديوان جرير، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة، ج:2، ص:362

(2)- يقول الشريف الرضى في رثاء زوجته :

ذَكَرْتُكَ ذِكْرَةَ لَا ذَاهِلٍ وَلَا نَازِعَ قَلْبُهُ وَالْجَنَانُ
أَعَاوِدُ مِنْكَ عِدَادَ السَّلِيمِ فَيَا دِينَ قَلْبِي مَاذَا يُدَانُ

(3)- قال ابن الرومي في رثاء زوجته:

عَيْنِي شِحَا وَلَا تُسْحَا تَرَكَمَا السِّدَاءَ مَسْتَكْنَا
جَلْ مَصَابِي عَنِ الْبِكَاءِ أَصْدَقَ عَنِ صِحَّةِ الْوَفَا

(4)- قال البارودي في رثاء زوجته -

لَا لَوْعَتِي تَدْعُ الْفُؤَادَ وَلَا يَدِي تَقْوَى عَلَى رَدِّ الْحَبِيبِ الْفَادِي
يَا دَهْرَ فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ كَانَتْ خِلَاصَةَ عَدْتِي وَعِتَادِي

صدقي⁽¹⁾ ومحمد مهدي الجواهري⁽²⁾ ومن هذا حذوهم،، وتبقى قصيدة نزار قباني أشهر وأجمل قصائد في هذا المنحى، حين قال مؤبنا زوجته بلقيس التي قضت نحبها في تفجير السفارة العراقية ببيروت :

شكراً لكم⁽³⁾

فحببتي قتلت.. وصار بوسعكم

أن تشربوا كأساً على قبر الشهيدة

وقصيدتي اغتيلت

وهل من أمةٍ في الأرض

إلا نحن تغتال القصيدة؟

بلقيس

كانت أجمل الملكات في تاريخ بابل

لقد عد الرحالة والشاعر الأندلسي ابن جبير أول من أقدم على نظم ديوان كامل في الرثاء لتأبين زوجته "أم المجد" أسماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح"، ولا غرو أن شعراء العصر الحديث امتلكوا من الجرأة ما حذا بهم للصدع بما كونه لرفيقات دربهم الآفلات حينما خصوهن بدواوين قصروها برمتها على رثائهن مثلما فعل عزيز أباطة في ديوانه "أنات حائرة" وعبدالرحمن صدقي في ديوانه "من وحي

(1)- قال عبد الرحمن صدقي في رثاء زوجته :

أي زهرتي في التراب بين المقابر
حملت إليك الزهر شاهت أزهارى
وتدوبه أنفاسي وحر زوافري
حملت إليك الزهر ترويه أدمعي

(2)- قال محمد مهدي الجواهري في رثاء زوجته :

في ذمّة الله ما ألقى وما أجدُ
أهذه صخرة أم هذه كبدُ
قسد يقتل الحزن من أحبابه بعدوا
عنه فكيف بمن أحبابه فقدوا

(3)- الأعمال الشعرية الكاملة. نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، 1993، ج:7، ص:9

المرأة" ومن لف لفهما. وكأنه ليس من حق الحليمة أن يبوح لها الزوج الشاعر- بحبه إلا في قصائد ناحية ناعقة، يؤبن في أسى ذكراها، فتغدو غزلا في فقيد، وتغن بماض، وشعر لغير سامعه، ونظم في غير قليل من كبرياء، ورفض للبوح في حضرة المحبوب. ومثلما لم تستطع الزوجات أن يسكن مهج الحروف إلا وهن محمولات على النعوش، فإنهن لم يثوين إلا في مهج قصائد هجائية شنيعة جردتهن من كل منقبة، وإذا قال الحطيئة في حليلته ملؤه النفور:

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لكاع⁽¹⁾

فإن شاعر النقائص الفرزدق لم يرفع عن ادعاء إصابة النوار التي احتال حتى تزوجها- بالبرص ورميها بالحمق مصرحا:

فَدُونَكْهَا يَا ابْنَ الزَّبِيرِ، فَإِنَّهَا مَوْلَعَةٌ يُوهِي الْحِجَارَةَ قِيلَهَا⁽²⁾
وَمَا خَاصَمَ الْأَقْوَامَ مِنْ ذِي خُصُومَةٍ كَوَزْهَاءَ، مَشْنُوءٌ إِلَيْهَا حَلِيلٌ

وتزخر كتب الأدب بأشعار غير يسيرة على هذا النسق، يوارى في كثير منها الشاعر اسمه خشية وربما خجلا، ومنها ما نلغه ماثوثا في العقد الفريد، حيث " قال أعرابي في امرأة تزوجها، وقد خطبها شابة طرية ودسوا إليه عجوزا:⁽³⁾

لها جسم برغوث وساقا بعوضة ووجه كوجه القرد بل هو أقبح
وتبرق عيناها إذا ما رأيتها وتعبس في وجه الضجيع وتكلمح
وتفتح- لا كانت- فما لو رأيته توهمته بابا من النار يفتح

(1)- ديوان الحطيئة، دراسة وتبويب: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1993، ص: 128

(2) ديوان الفرزدق، شرحه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1987 ص: 417

(3)- العقد الفريد، ابن عبدربه الأندلسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1404، ج: 4، ص: 46

إذا عاين الشيطان صورة وجهها تعود منها حين يمسي ويصبح

ليس يخفى أن غرض الغزل الذي ظل دافقا حين استوطنت المرأة رحم الأشعار
فما أزهرت ولا أورقت إلا قصائد فيها لواعج وبها صبابة لمعشوقات خلدن من فيهن
نظمن وبهن تغزلن، وإذا كان هذا حال المعشوقات فإن الزوجات ما وجدن لهن موطن
قدم في لجج هذه الأشعار المضطربة إذ ازور الغزلون عن التبتل في محراب حليلاتهم،
وكان شؤبب الهوى يدوي متى ما منها دنوا، وقد نظم بعض الشعراء في زوجاتهم لكن
الامر لم يتجاوز أبياتا معدودات، فهذا زهير بن أبي سلمى لم يخص زوجته بغير بيت
وحيد في مطلع معلقته حين قال :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدهر فالمثلّم⁽¹⁾

وذاك الشاعر المغربي محمد الوديع الأسفي أفضى بصبابة الشوق لزوجته حين
هذه الأسر والبعاد قائلا :

إنني لأهتف بالاسم العزيز إذا غدت في الحنايا النار تلتهم⁽²⁾
فتغدي النار نورا والظلام سنى والحزن بشرابه الأرجاء تبسم

وترسم خطاه الشاعر قدور الورطاسي لما أنشد في زوجته قصيدته "الأطياف
المتراقصة" وصدرها بعبارة "إلى أم البنين" من منفاه قائلا :

فكأنني وقلبها راهبان في خشوع في أقدم الصلوات⁽³⁾
نستبيح الدموع رفقا بدير كاد يهوى بألهب الزفرات

(1)- ديوان زهير بن أبي سلمى، ص : 102 .

(2)- مناديل وقضبان، ثريا السقاط، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى: 1988، ص : 103

(3)- ديوان الحدائق، قدور الورطاسي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1977، ص : 40

أما علال الفاسي فقد حملته الشوق وهو في منفاه "ببرازافيل" على أن يبدي
الجوى لزوجته زهرا في قصائد ملتبهة منها هذين البيتين :

حببتي ليس هذا البعد يفصلنا ولا المنية تنني عنك مولاك⁽¹⁾
أنا بحبك مسرور ومغتبط والحب لا بد يدنيني لملقاك

ولئن غدا النأي ملهبا لهؤلاء فما إن التقوا بزوجاتهم حتى توارت مثل هذه
الأشعار اللاهبة وما قفلوا لنظمها مرة أخرى.

لأريب أن الدكتور عباس الجراري خالف ما كان معهودا حين جاهر بحب
حليلته "حميدة" "في ديوانه، فعلى مدى أربع مائة وثمانين بيتا وإحدى وخمسين نصا
شعريا ما بين نتفة وقطعة وقصيدة، تزيث الألفاظ ببهاء الهوى وعزف الحب على ربابة
التوق، فقد أحكم سلطان الصبابة سطوته عليه فهصره حتى لهج :

إلى من هواها في الفؤاد يجدد ومع السنين أواره يتوقد⁽²⁾
أهدي الأمانى بالأطياب ضمخت والسعد يغمرها وما قد يحمد
لحميدي والقول ليس بمسعفي لكن حالي عن شعوري يشهد

وإذا كان هذا حال الشعر فإن النثر لم يحفظ لنا قديما نصوصا خص بها الأدباء
قريناتهم وإن رصد هؤلاء مراسيل لتبليغ خليلاتهم شوقهم والصبابة

(1)- ديوان علال الفاسي روض الملك إعداد وتحقيق عبد الرحمن بن العربي الحريشي مطبعة الرسالة، القسم الأول من
الجزء الثاني ص: 152

(2) من ديوان الدكتور عباس الجراري، منشورات النادي الجراري، الطبعة الأولى 2017، دار ابي رقرق للطباعة
والنشر. الجزء الأول، ص: 102 عنوان القطعة "إلى من هواها في الفؤاد" مؤرخة ب10 يناير 2008،

3. الزوجة في أدب الرسائل

تذوي الحروف الشجية وهي تعانق مهج العاشقين، تلين أصواتها الجهيرة وهي تنصت في خفر لهمس المولعين، تبرحها ققامتها وتسيدها العنيد، لتغدو نايا لبوح الحنايا.

في خطابات مخضبة بالصباية يرقشها بهاء الشوق، تخضر الرسائل، تجفو البعاد، وتحن صوب لقاء دان حيث تروى المهج فتزهر.

قبل أن نجلي على الملا الرسائل التي خطها الكتاب المحدثون إلى حليلاتهم نالت الخليلات الحظ الأوفر من هذه الخطابات التي ألفت بين قلوب لم تلمها رابطة الزواج بل غشيتها أرومة الهوى.

على نحو مغاير بات سوق الرسائل رائجا لدى الأدباء الغربيين الذين ارتموا بين أحضان عشيقاتهم يبادلنهن المكاتبات في شغف دونما خجل أو وجل، ولعل الغريب حقا أن تجمع تلك الخطابات التي كانت متناثرة وتنتشر بين دفتي كتاب فتلحق الشهرة بالخليلة حين يخلد اسمها، تماما كما حدث حين صدر كتاب "كامو ماريا كزاريس مراسلات 1944 - 1959"⁽¹⁾، كاشفا عن علاقة حب لاهبة بين صاحب رواية "الغريب" الأديب الفرنسي ألبير كامو وممثلة إسبانية، وأجلت الرسائل المنشورة في كتاب "سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر وجهًا لوجه الحياة والحب"⁽²⁾ قصة غرامهما

(1)- رسائل ألبير كامو إلى ماريا كزاريس، ألبير كامو، ترجمة: سهى بخته، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2020

(2)- سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر وجهًا لوجه: الحياة والحب، هازل رولي، ترجمة: محمد حنانا، دار المدى، الطبعة الأولى 2017

المتحرر المشبوبة، وفي كتاب "رسائل الى ميلينا"⁽¹⁾ لصاحب رواية "المسخ او التحول" الكاتب فرانس كافكا نشهد مغامراته الجامحة مع تلك الصحفية التشيكية الشابة.

لكن هل أينعت الرسائل وأزهرت بين اثنين قررا أن يربطها مصري بعضهما برباط الزواج ذي القداسة؟

في كتابه "رسائل الى فيرا"⁽²⁾ منحنا الكاتب الروسي فلاديمير نابوكوف سعادة غامرة حين أذاع على العلن خطابه التي بعثها إلى شريكه حياته أثناء تنقله في عدة دول وعواصم أوروبية، ولاغرو أن رسائل الروائي الروسي فيودور دوستوفسكي إلى زوجته أنا غريغورينا والتي كتبت بين ألمانيا وبيترسبورغ وموسكو خلال أربعة عشر عاما (1866-1880) سمحت لنا أن ننفذ إلى مواطن هذا الكاتب القدير والذي رغم أنه صرح لزوجته "آه يا آنا ما أشد كرهني للرسائل، كنت أبغضها دوما فماذا يمكن أن نكتب فيها من الامور⁽³⁾؟" لم يعتم أن خلف مجلدين ضخمين من الخطابات أحسنا من خلالها بشغفه الكبير بحليلته واستحضاره الدائم لها رغم البعاد، وحرصه الشديد على موافاتها بكل ما يمرق به من أزمات ومصارحته لها بانغماسه في لعبة القمار وغدوه حاوي الوفاض لا عزاء له إلا أن يخبرها، راجيا إياها الصفح قائلا: "لأنه يستحيل أن لا يكون الرجل سعيدا مع مثل هذه الزوجة أحبيني يا آنا وأنا أحبك إلى الأبد"⁽⁴⁾. وقد أغرى هذا السميت من الكتابة أدباء كبار مثل تشيخوف الذي ألف كتاب "رسائل إلى العائلة" أفرد للرسائل التي بعثها لزوجته أولغا مكانا ذا تميز.

(1)- رسائل إلى ميلينا، فرانس كافكا، الأعمال الكاملة، ترجمة:الدسوقي فهمي الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى 1997

(2)- رسائل إلى فيرا، فلاديمير نابوكوف، ترجمة عبد الستار الأسدي، الحمرا بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2018

(3)- الرسائل، فيودور دوستوفسكي، الجزء 2، ترجمة خيري الضامن، دار سوال للنشر لبنان، الطبعة الاولى 2017 ص: 40

(4) نفسه، ص: 42

لم يكن حظ الزوجات في الأدب العربي من النشر بأحسن منه في الشعر، حيث أنف المترسلون من تخصيص قريناتهم بخطابات موحية وتخرجوا من ذلك، فعز هذا اللون من الكتابة وزهد فيه الأدباء، ولعل أدب الاعتقال السياسي كان الأقدر على إذاعة تلك الرسائل التي وجهها المعتقلون لشريكات حياتهم اللواتي تجرعن علقم المر من أجل الحصول على إذن بالزيارة فقط،

ومن ذلك كتاب "مناديل وقضبان"⁽¹⁾ لثريا السقاط والذي ضم بين دفتيه الرسائل التي تبادلتها مع زوجها الشاعر المناضل محمد الوديع الأسفي إبان اعتقاله، كما شمل كل الرسائل التي بعثتها أو توصلت بها أثناء تعرض زوجها أو فلذات أكباده لعنت الاعتقال، وفي خطابات زوجها لها حب كبير واعتراف كثير منه بما تحملته وكابدته في سبيل الإبقاء على متانة حبهما الذي استحال صمودا ولو باعدتهم الزنازن، ولعل نشر الروائي عبد اللطيف اللعبي كتاب "يوميات قلعة المنفى"⁽²⁾ وفيه الرسائل التي تبادلها مع زوجته جوسلين حين زج به في غياهب الإسار سلب الحرية أعزل إلا من كلمات ينفثها لشقيقة روحه عبر مكثوبات بللها الوجد فتواسيه وتكون له نعم الأليف ونعم السند.

بيد أن رسائل الأدباء إلى الزوجات لم تحمل لهن الحبور على الدوام، ففي كتاب "إبراهيم ناجي: زيارة حميمة تأخرت كثيرا" والذي نشرته حفيدته سامية بعد قضائه لنحبه، نباغت بفصل تحت عنوان "هومة وسومة" يحوي 28 رسالة ظلت مجهولة بعثتها رائد الرومانسية والطبيب الشاعر إبراهيم ناجي إلى زوجته بين عامي 1928 و 1929، دبح بعضها بالفرنسية والبعض الآخر بالعربية لكنها لم تظهر إلا بعد 13 عاماً من وفاته. عندما غنت أم كلثوم له قصيدة الأطلال، ومعها قامت فتنة ادعاء نساء كثيرات أنهن ملهوماته وتلك القصيدة إنما كتبت لأجلهن، مما حذا بأسرته مكرهة إلى الرد بنشر مخاطبات ناجي إلى زوجته، تجلي استقامته كزوج ومثالية أصرة الحب التي جمعته

(1) - مناديل وقضبان: رسائل السجن، ثريا السقاط، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى 1988

(2) يوميات قلعة المنفى رسائل السجن، عبد اللطيف اللعبي، ترجمة علي تيزلكاد والمؤلف، ورد للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية 2010

إليها. غير أن بعض تلك الرسائل التي نشرت وشت ببعض معالم الجفاء والسأم التي اعترت علاقة هذا الشاعر الرقيق بقرينته، حيث صرح في إحداها متبرما: "ولكنني يا سومة متضايق وعندي سأم مريع، سأم كم أنك لا تعطيني من نهارك شيئاً من التفكير، وسأم من قلة الشغل وكثرة المصاريف في هذا الوقت الشنيع."⁽¹⁾ وتكاد الرسالة التي خص بها الروائي الكبير ليو تولستوي زوجته صوفيا، حين عزم على هجرها بعد ثمان وأربعين سنة من الزواج أن تغمرها الطرافة حين قال: "إن حياتي بالقرب منك أصبحت بليدة خاملة بحيث بت أخشى منها على شخصيتي، وعلى عملي، وعلى كل ما كنت أحلم به من عظمة ومجد... وهذا الخوف المزدوج هو الذي دفعني إلى الرحيل.. إذ كيف يمكن أن أعيش مع زوجة تأبى إلا أن تمثل طوال حياتها دور العاشقة المفتونة الغيور؟"⁽²⁾، وقد ترك عليها هذا القرار بالغ الأثر

- هي التي نسخت له رواية الحرب والسلام سبع مرات قبل أن تستقيم على صورتها النهائية- لذلك نراها تثبت في مذكراتها بحسرة "غادر... البيت خفية... وكانت ذريعة هروبه أنني قلبت في أوراقه ليلاً... وفي الرسالة الموجهة إلي (إلى العالم بأسره)... عندما علمت من الرسالة بهروبه ألقيت في حالة الجزع بنفسي في البركة."⁽³⁾ وبعد ذلك بقليل قضى تولستوي نحبه دون أن تقدر على لقائه، فخلف ذلك في نفسها وجعا ملازماً.

ولأن الرسائل الشخصية امتلكت خصيصة الإفصاح ورنّت صوب البوح منتحية جادة الكشف، فقد تخرج الكتاب من أن يذيعوا على الملأ ما أسروا به في خطاباتهم، وفي اللحظة التي كان الأدباء العرب يحسون بحرج بالغ لأن يخطوا مكتوباً لعقيلاتهم، أمسى أكثر نوابغهم يزدحمون أمام منزل "مي زيادة" يتنافسون في تحبير الرسائل

(1)- ابراهيم ناجي: زيارة حميمة تأخرت كثيراً، سامية محرز، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 2022، ص: 61
 (2)- رسالة تولستوي إلى زوجته، ترجمة خيرى الضامن، دار سوال للنشر لبنان، الطبعة الأولى 2017
 (3)- يوميات الكونتيسة صوفيا تولستايا زوجة ليو تولستوي، ترجمة عبد الله الحبة، دار المدى، الطبعة الأولى 2018،

المسهبه إليها، بينما هي تناجي من بعيد جبران خليل جبران وتتبادل وإياه الخطابات التي جمعت في كتاب "الشعلة الزرقاء"⁽¹⁾، ومن الغريب أن الكاتب الرافي الذي أضحى متهما بها قرر تدبيح رسالة لها، ولأنه خشي رد فعل زوجته فقد بسط لها الأمر وسعى إلى إقناعها "ثم أذنت له... وكتب الرافي رسالته الأولى إلى صاحبتة التي غلبته على قلبه... وقرأت زوجها الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد.

وجاء جواب صاحبتة فقرأته زوجته كما قرأت رسالته وصار هذا دأبهما من بعد.⁽²⁾

الرسائل في نظر نزار قباني هي "الأرض المثالية التي يركض الكاتب عليها، كطفل حافي القدمين، ويمارس فيها طفولته بكل ما فيها من براءة وحرارة وصدق. إنها اللحظات الصافية التي يشعر فيها الكاتب أنه غير مراقب وغير خاضع للإقامة الجبرية"⁽³⁾. ولعل الأديب المترسل حتى وإن استتر وتوارى عن أعين الرقباء فلا بد ملاق ما لاقاه من وقعوا في شرك الكاتبة اللبنانية غادة السمان، حين تركوا حليلاتهم وأسكنوا ما شدهم إليها مهج رسائل وامقة. وما إن قضوا نحبهم حتى جمعتها ونشرتها في كتابين دونما تردد وهما: "رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان"⁽⁴⁾ و"رسائل إنسي الحاج إلى غادة السمان"،⁽⁵⁾ دون أن تأتي على ذكر خطاباتها.

فعلى نحو بين راح المترسلون من الأدباء يسكنون أشواقهم الحرى حروفهم، ويحيلون التياهم كلمات عذبة لها سحر إيقاع متلقيات هذه المكاتبات في شرك الترقب الدائم لما سيرسله الحبيب المتواري.

(1)- الشعلة الزرقاء رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، تحقيق سلمى الحفار الكزبري والدكتور سهيل بشروني، مؤسسة نوفل بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1984

(2)- حياة الرافي، محمد سعيد العريان، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1955، ص: 63

(3)- رسالة حب"، نزار قباني، منشورات نزار قباني، الطبعة الثانية عشرة، مارس 1982، ص: 1

(4) رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان دار الطليعة للطباعة والنشر: بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2017

(5)- رسائل إنسي الحاج إلى غادة السمان، دار الطليعة للطباعة والنشر: بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1992



الفصل الأول

- 1 عباس الجراري وتعبير الغصبات
- 2 بين يدي أشواق
3. رسائل أشواق وسحر الجرافولوجي



الخطاب رسول محبة وبقاة عصر فواح بجميل المشاعر⁽¹⁾

عباس الجراري

(1) - كليات تقديم، جمع وتقديم: حميدة الصائغ الجراري، منشورات النادي الجراري، ج:، ص: 180



1. عباس الجراري وتعبير الخطاب

في بطون كتبه استوطن شهد المعرفة، ومن تلافيف متونه تضوعت الدلالات، امتطى صهوة الأدب المغربي فبات فارسه ذا الغزوات، بقر بطون الفصيح وأزاح عن العامي طوق الغشاوات، استبطن المثنور فأجلى منه الدرر، واستكنه المنظوم فأبدى ما فيه من غرر، جبر يراعه دافق، متى كتب أبدع وإذا ما انتقد أمتع، للأدب كان دوما خلا وراعيا، وله شيد حصونا وأنشأ نواديا فيها بات الشيخ وغدا العميد.

لا غرو أن عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري الذي عرف مثقفا ذا معرفة موسوعية المدى، لم ينب له قلم منذ صدور أول كتبه "القصيدة" سنة 1968 وإلى أن نشر آخرها وهو "الرسائل" في نونبر من عام 2023، وخلال 55 سنة ما حاد عن مضامير الكتابة ولا نأى عنها. ولعل هذه المدة التي فاقت نصف قرن من الزمن منحتة السبيل لأن يكتب أكثر من 100 متن أدلى فيها بدلائه في حياض المعارف جميعها، فمن الدراسات الأدبية المغربية إلى الأدب العربي والفكر الإسلامي، ماضيا بثبات واستماتة في سبيل تشكيل مشروع المعرفة العلي للنهوض بالأدب المغربي، مرتكزا في كل ذلك على عمق التناول، ورصانة المقاربة وبعد النظر محتكما إلى زاده المعرفي الوفير والذي منح به المكتبة المغربية مصادر جمة عدت ذخائر ذات تميز.

وإذا ما تفحصنا ما خطه كاتبنا من نفائس، لانبث أن نفاجا به وقد مرق صوب منحى ارتضاه، حيث شهدناه وقد استعذب نشر إبداعات له ذات مياسم ذاتية ستساهم ولا ريب في الدنومنه والتعرف عليه عن كذب، وهكذا فبعد أن ألفناه داخل كتبه محللا وناقدا ومنظرا بينه وبين موضوعه فاصل وحياد، إذا بنا نصادفه شاعرا مرهف الأحاسيس يلهب جبين الكلم بما يذكيه من وهج الأبيات في الديوان الذي أصدره سنة 2017،

حين ألفيناه مرهفا ومحبا في قصائده الغزلية وحنونا رؤوما في نصوصه الأبوية وحلو المعشر في مساجلاته الإخوانية ولعل هذا "يسمح بإلقاء الضوء على جانب مغمور، تسعف دراسته في استكمال ملامح الشخصية الأدبية والفكرية لعميد الادب المغربي"،⁽¹⁾ لم يكن الأستاذ الجراري حتما حديث العهد بالنظم فقد قرض الشعر منذ ستينيات القرن الماضي بل ونشره، بيد أنه أحجم عن المضي قدما في هذا السبيل لانشغاله بسبر أغوار الأدب واستبطن قضاياها وإجلاء ظواهره، ويستشف هذا بجلاء من مساجلة له مع الشاعر السلوي المصطفى الشليح :

يأتيني طوعا فلا أعنو له نصبا بالرفق منتظما يسمو بلا فخر⁽²⁾

ولم أكن أبدا بالشعر محتفلا ولا قصدت به لخمـر أو بكر

وحين سأله الأستاذ محمد احميدة معد الديوان عن علة ذلك الزهد في النظم لفترة ليست باليسيرة، أجابه " لقد كان انكبابي على البحث الجامعي وإعدادي لرسالة الماجستير وأطروحة الدكتوراه قد أخذ مني الكثير، وتركز كل اهتمامي على البحث، ومن ثم الانصراف عن الشعر، ثم استمر هذا التوقف حينما أسندت إلى الشاعر مهام سامية تتطلب التفرغ لها بشكل كامل".⁽³⁾ وعلى ذات السمات ظلت نصوصه الرحلية مخطوطة ومتوارية لردح من الزمن، حيث لم يقدم الكاتب على نشر أولى رحلاته التي تعود إلى سنة 1980 إلا سنة 2018 حين اضطلع الدكتور مصطفى الجوهرى بإعدادها وتقديمها تحت عنوان "ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية"، وأوماً في مقدمتها إلى أنها كفيلة بأن تدنينا من ذات كاتبها قائلاً إنها: "ستفتح شهية الإقبال بالإحاطة بتفاصيل الذات ذات الكاتب المسافرة ثقافيا وحضاريا ووجدانيا

(1) - "من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، إعداد وتقديم محمد احميدة، منشورات النادي الجراري رقم 73، الطبعة الأولى 2017، ص: 10

(2) - "من ديوان عباس الجراري، الجزء الثاني، إعداد وتقديم محمد احميدة، منشورات النادي الجراري رقم 73، الطبعة الأولى 2017، ص: 58

(3) من ديوان عباس الجراري، ج: 1، التقديم، ص: 15

داخليا وخارجيا." (1) وما فتئت "رحلة نسيم البوسفور" التي نشرت سنة 2021 بدراسة وتقديم للدكتورة بديعة لفضايلى والتي تصارعت الأجناس الأدبية داخلها بين الرحلة والرسالة والمذكرات أن أجلت لنا ما كابده الدكتور عباس الجراري من عنق في سبيل استكمال إعداد أطروحته في تركيا وما قاساه من بعاد عن زوجه وأبنائه يقول "فكانت هذه الرحلة التي كتبها قبل خمسين عاما، وأنا ما أزال في أول الطريق، والتي جاءت على شكل رسائل كنت أبعثها يومئذ بانتظام إلى زوجتي حميدة، وغيرها إلى بنتي أوف وعلا رحمها الله (ت1993) والتي أتاحت لي الوقوف على بعض ما في تركيا من خزائن المخطوطات، وكذا على ما تزخر به العاصمة إسطنبول من معالم وآثار". (2) لقد أفضى بنا الدنو من تضاعيف هذا المتن إلى تمثل صورة أخرى للعميد الدكتور عباس الجراري، فبعد أن تطابق الرحالة والراوي والمترسل والسارد والمؤلف جميعا انكشفت لنا شخصيات جديدة له، وبعد أن عهدناه رصينا رزينا ذا جلد، ألفيناه الزوج العاشق ذا الصبابة، وعائناه الوالد العطوف ذا الحذب، ومن شأن ذلك أن يدنينا منه إنسانا ما استطاعت كتاباته النقدية ودراساته الموسوعية أن تميظ لنا اللثام عن حسه الإنساني ورهافة مشاعره" (3).

لا غرو أن اليوميات والمذكرات والرحلات (4) وكذا الرسائل عدت من أهم الكتابات التي تقدم لنا يد العون لترسم معالم سيرة ذاتية لأديب ما، كونها كتابات فيها يتطابق منشئ النص مع السارد والشخصية المحورية داخله، وهي تركز إلى السرد المسترسل للوقائع في استحضار تام للزمان والمكان، بينما يتسيدها جميعا ضمير الأنا

(1)- ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، عباس الجراري، إعداد وتقديم مصطفى الجوهري، منشورات النادي الجزائري: 80، الطبعة الأولى 2018، ص: 17

(2)- نسيم البوسفور لإعداد ودراسة الدكتورة بديعة لفضايلى، منشورات النادي الجزائري، الطبعة الأولى 2021، التقديم، ص: ز - ح

(3)- نفسه، الخاتمة، ص: 130

(4)- فضلا عن رحلتي الدكتور عباس الجراري المنشورتين، لديه أربع رحلات مخطوطة هي: "الوفد" وهي رحلة حجية قام بها سنة 1402هـ م 1982- رحلة "قمة الغمة" أمريكا في الذكرى الأولى لأحداث شتنبر 2002. (رحلة ثانية للولايات المتحدة الأمريكية) - لقطات أمريكية غشت شتنبر 2003 (رحلة ثالثة للولايات المتحدة الأمريكية).

الذي يقود النص ويوجهه، فهو المسافر داخل الرحلة والكاتب في الرسالة والمدون في اليوميات، وفضلا عن هذا هو الاسم العلم المتداول ذو الوجود الفعلي والحضور الواقعي، فالأنا "فضلا عما لها من مكانة وقدوة ومعرفة صاحبة امتياز الكتابة".⁽¹⁾ فهذه الأنماط الإبداعية لا تحتاج الى وسيط يتكفل بمهمة تسطير أحداثها ووقائعها وإنما ينجز المهمة الشخص المعني بها والذي تحمل اسمه على الغلاف. ولا جرم أن الدكتور عباس الجراري حين خط سيرته الذاتية "رحيق العمر" كان مدركا تماما " أن التعريف الشخصي أصبح اليوم مطلبا من كل فرد... وذلكم ما جعل بعض الاصدقاء والدارسين... يلحون علي... أن أكتب ترجمة شخصية تكون موسعة بعض الشيء ومستوفية بموضوعية وإنصاف لتلك الفراغات والثغرات".⁽²⁾ ولعل هذه السيرة التي تناثرت لمحات منها في أشعاره ومحكيات أسفاره لن تستقيم كاملة تامة المبنى جلية المعنى حتى نفتض بكاراة أضمومة رسائله "أشواق" ونفك أختام خطابات ظلت معتقة متوارية ثلاثا وستين حولا بالتمام.

لئن كانت "رحلة نسيم البوسفور" قد مثلت أول متن رسالي منشور للدكتور عباس الجراري فإنه في واقع الحال لم يشمل خلا ست رسائل بعث خمسة منها إلى قرينته حميدة من اسطنبول وأرديها بالسادسة حين وصل إلى القاهرة قادما من تركيا عام 1968. وحين نجيل الطرف في كتبه المخطوطة والمعلن عنها في موقعه الإلكتروني، لا نلبث أن نصادف سفرا له لم ينشر بعد وسمه ب "خطاب الفكر والأدب (رسائل متبادلة مع والده رحمه الله طوال سنوات وجوده خارج المغرب)". ولعله حوى تلك المكاتبات التي تبادلها مع والده سنوات مبارحته للمغرب وهي كما يقول : "خمس سنوات في مصر للتعليم امتدت من 56 إلى 61، بعدها سنة دراسية في باريس ثم ثلاثة

(1)- "كتابة الماضي بالمضارع تأملات في السيرة الذاتية"، رشيد بنجدو، مجلة علامات في النقد، الجزء 23، المجلد 6، مارس 2007، ص: 65.

(2)- رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية، ج: 1 النشأة والمشروع، عباس الجراري، منشورات النادي الجراري رقم : 101، الطبعة الأولى 2020، ص 7-8

أعوام كنت فيها موظفا بسفارة المغرب في القاهرة، ولم أرجع منها إلا عام 1965 لألتحق بهيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس. وخلال السنة الدراسية 68-69 عدت إلى مصر لأنجز آخر مرحلة لي في الدكتوراه⁽¹⁾ بيد أن تدبير الخطابات كان زاده والسند في أوقات بات فيها نائيا عن الأهل والخلان والبلد، لذلك يصرح "على أنني طوال هذه السنوات التي قضيتها بالخارج، لم أتوقف عن مراسلته رحمه الله، وقد كانت رسائله لي مليئة بالفوائد العلمية والأدبية والإرشادات التوجيهية، فضلا عما تتضمنه من أخبار وأحداث ذات قيمة وثيقة هامة، فضلا عن قيمتها الأدبية"⁽²⁾، ولم يسئل عن هذا الوالد قط، فقد ورد في رحلته ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية "كتبت بطاقة لحميدة وأخرى للوالد وسمية قذفتها كالعادة في البريد النازل"،⁽³⁾ ويبدو أن تعبيره "كالعادة" ينم عن دأبه على هذا التواصل الكتابي الذي يرأب صدع النوى ويبدد وحشة البعاد حين يللم بين جوانح المظروف أشواقا وأخبارا وتحايا، وذلك ما نلحظه جليا في سعيه لإرسال البطائق والخطابات أثناء سفره - عدا الأهل - إلى الأصدقاء دونما انزعاج، يقول وهو في سان فرانسيسكو "بعد العودة إلى الفندق كتبت بطاقات إلى عبد اللطيف بنعبد السلام وعبد المالك الصائغ وعبد الواحد ومحمد الصائغ"⁽⁴⁾، حيث يغدو الترسل لديه طقسا به يبدد قتامة الوحدة حيث يعلن وهو في مدينة Michigan ولاية في Ann Arbor "كتبت بعض البطاقات لولدي محمد وأختي خديجة والصهر عبد المجيد."⁽⁵⁾ وطالما تباهى بهذا الصنيع قائلا: "وإني - على سبيل المثال - لأعزز شخصياً بالرسائل التي تبادلتها مع والدي رحمة الله عليه، وكذا مع إخوتي طوال السنوات العشر التي استغرقتها مقامي خارج الوطن بين الخمسين

(1)- رحيق العمر، ص: 79

(2)- نفسه، ص: 80

(3) ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، ص 123

(4) ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، ص 165

(5) نفسه، ص 85

والستين، إضافة إلى ما لي من مكاتبات مع زوجتي وأولادي، ومع أعلام من المشرق والمغرب. ولعل الله تعالى أن يوفق لإخراجها - كلها أو بعضها - في وقت قريب." (1)

وإذا كان تحبير الخطابات وتسطير المكاتبات للأهل والخلان والولد انسربت لدى كاتبنا مدثرة بمشاعر شوق لا تنضب فإن تديبجه للمكاتبات إلى حليلته لم يخب قط توهجها بل ظلت جذوتها تلهب فؤاديهما تيما وصبابة وعشقا مثلما انجلى في نسيم البوسفور وكما سيتضوع عطره من رسائل أضمومة "أشواق".

(1) - كليات تقديم، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجزائري، منشورات النادي الجزائري 34، ج:1، ص:179

2. بين يدي أضمومة "أشواق"

ما فتى مشاهير الكتاب ذوو البراعة وأمهر الشعراء الفحول أرباب الشجاعة يزورون عن نشر ما أفصحوا عنه وبه باحوا لجليلاتهم، مذعنين لعرف ارتضوه قد يبيح التقول في الخلية ويحظر ذكر الحلية إلا ما كان من التغني بمناقبها متى أفلت، أو الصدع بمثالبها إذا ما أبت الإذعان. بيد أن الرسائل غدت بالنسبة لمن خبر النأي منهم سبيلا للإفشاء بما ساورهم من حنين غير متحرجين من البوح لمخاطب غير مائل أمام ناظرهم، وإذا عباراتهم التي أحسوها وما نطقوا بها تستحيل همسا يلقوه في روع متلقيات خطاباتهم، يزداد بأس الإفصاح لديهم كونهم ليسوا في مقام المواجهة بل مستترين خلف ستار البعد الذي به قد يتجاوزون وطأة خجلهم أو تعاليهم وترفعهم عن البوح في حضرة قريناتهم، فطه حسين الذي عرف بالصدع بآرائه دونما خشية أو وجل نلفه يصرح لزوجته سوزان في إحدى خطاباته إليها قائلاً: "أنا قليل الإفشاء بمشاعري ولكنني صموت، وإنني على وعي بذلك تماماً، لكن ما أكثر ما حدثتك منذ رحيلك عن أشياء لا تطيقين سماعها، لم أعتقد على الإطلاق بقدرتي على مثل هذا الحب."⁽¹⁾ فلا غرو إذن أن الدكتور عباس الجراري قد امتلك بأس اتخاذ قرار نشر ما تواري عن أعين المتلصصين وما كان قد نفثه خلسة بين حروف دافقة باللهفة مغمورة بالتحنان، ظلت سلوته في نأيه ووجاه في وحدته في أقاصي البلدان.

في خدرها ظلت مكنونة لردح غير يسير، منها يتضوع عطر الصبابة وللود نثار وعبير، لستة عقود ونيف لم يطوها النسيان ولا تناثرت وريقاتها ولا خبت جذوتها قط، فقبيل أفول نجمه بأشهر يسيرة كان الدكتور عباس الجراري يصيخ السمع لصوت

(1) - معك، سوزان طه حسين، ترجمة بدر الدين عرودكي، مؤسسة هنداوي 2015، ص: 64

زوجه الرخيم وهي تتلو عليه في رقة بالغة بعض الخطابات التي وافاها بها من بلدان شط به النوى فيها منذ عام 1960، تقول السيدة حميدة الصائغ الجراري حرم الكاتب: " وقرأت عليه بعضا منها سواء التي بعثها لي من القاهرة أو إسبانيا أو فرنسا أو الخرطوم أو يوغوسلافيا،"⁽¹⁾ ولا أحسبه إلا أنه كان مأخوذاً وهو ينصت لعبارات ناطقة سطرها صامتة إلى حميدته التي بعثت فيها بهجة الحياة وهي تقرأها في حضرة مرسلها بعد أن اطلعت عليها وهو مبارح لها، وشتان بين الشعورين ولا ريب، ولعله من باب التقريظ والإشادة أن ننوه بما اتسمت به قرينة الدكتور الجراري من قدرة على الصون والحفاظ على هذه المكاتبات التي أسهمت ولا ريب في التعرف عليه مترسلا بعد أن عرفناه مفكرا وباحثا ودارسا وأستاذا وشاعرا. ولعلنا لا ننكر ما لها من فضل في ظهور "رحلة نسيم البوسفور" التي ماهي في الأصل إلا الرسائل التي وافاها بها من تركيا صيف 1968.

لا ريب أن الكاتب كان موقنا أن فيفساء صورته الذاتية لن تكتمل إلا باطلاع المتلقي على ما حوته رسائل "أشواق" وذلك كيما تملأ البياضات وتسد الفراغات التي ربما خلفتها كتاباته ذات المنحى الذاتي من سيرة ذاتية ورحلات وأشعار، تقول السيدة حميدة التي اضطلعت بجمع وإعداد وتقديم أضمومة أشواق: "فهو شذرات مهمة من حياته سجلها في حينها ولا يرى مانعا من اطلاع من يود معرفتها ومتابعتها لترتبط جميع حلقات حياته التي كان فيها العذب والحلو مشوبا بالعلم المر،"⁽²⁾ وتضيف "وتضمنت استعراضا لمرحلة من حياته الفكرية والأدبية والاجتماعية."⁽³⁾

لقد باتت أضمومة أشواق آخر ما نشر للدكتور عباس الجراري قبيل رحيله بقليل، إذ لم تثنه الآلام التي سكنته ولا العلة التي أضنت جسده عن السماح للمتلقي بانتهاك ماعد خاصا وذلك لإيمانه بما للنصوص الذاتية من قدرة على إجلاء معالم

(1)- أشواق، ص: 9

(2)- نفسه، صص: 10

(3)- نفسه، ص: 9

الشخصيات وسبر أغوارها، تقول السيدة حميدة : "وفي ظروف صحية صعبة وجدت الدكتور عباس يشير انتباهي وفي إلحاح شديد لإخراج ملف "أشواق" وهو الذي كنت أجمع فيه كل ما خصني به من خطاب نشرا أو شعرا أو بطاقة بريدية،⁽¹⁾ مؤمنة " أن الرسائل مرآة يومية عند عباس تعكس كل ما مر به وما أحسه وما عاناه وما عاشه من وقائع صغيرة أو كبيرة يعرضها بتفصيل قصد إشراك متلقيها في كل دقائقها مما يخفف حدة الإحساس بالغربة والوحدة لكلا الطرفين، ويعمل على إشراكهما واستمداد القوة والعون من بعضهما البعض."⁽²⁾ لعل أهم الكتب التي تضمنت الرسائل إلى الزوجات نشرت بعد أن قضى كتابها نجبهم فأقدم أزواجهم أو أبناءهم على تعريف المتلقين بها، فهذا دوستوفسكي الروائي ذو التميز يزوج زوجته ألا تطلع على رسائله أحدا قائلا: "عديني بأنك لن تعرضي هذه الرسائل على أحد أبدا، لا أريد أن تسري على الألسن حقارة الوضع الذي أنا فيه،"⁽³⁾ لكن هذه الرسائل عينها مالبت أن نشرت في مجلدين ضخمين غب وفاته، ومن ثم فكفى السيدة حميدة فخرا أن الدكتور عباس الجراري ألح على أن يذيعها وهو حي يرزق، لذلك تقول مزهوة: "ولا أخفي أنه أعجبني من زوجي هذا الإصرار على مطلبه ورأيت فيه تأكيدا لطبيعته الجريئة والمتحدية والسامية لكسر القيود والريادة في المجالات التي يتهيها الكثيرون ويحجمون عن خوضها، ذلك أن الآداب العربية شبه خالية من هذا النوع من الإنتاج الأدبي المتمثل في الرسائل، في حين نجده عاديا ومتداوليا في الآداب الغربية دونما خجل أو إحجام."⁽⁴⁾

تنسرح الرسائل داخل كتاب أشواق على مدى مائتين وسبع وخمسين صفحة، فيها تتوي خطابات وبطائق سطر الكاتب أولها بمصر سنة 1960 وخط آخرها من اسبانيا عام 1981 غير مرقونة بل مكتوبة بخط يد صاحبها ذلك "أن إصدارها مصورة

(1)- نفسه، ص: 9

(2)- أشواق، ص: 10

(3)- الرسائل، الرسائل، فيودور دوستوفسكي، الجزء 2:، ترجمة خيرى الضامن، دار سوال للنشر لبنان، الطبعة الاولى، ص: 53

(4)- أشواق، ص: 10

بخط كاتبها يزيدا قيمة،⁽¹⁾ من حيث التأكيد على واقعيته وأصالتها ومطابقتها لما تم الترسل به دون حذف أو إضافة أو تشطيب وكذا التيقن من حقيقة نسبتها إلى كاتبها دون تشكيك أو ارتياب فما أكثر ما تم التصرف في رسائل الأدباء حال الرغبة في نشرها ولعل ما يزيد من وثوقيتها هي صور الأظرف التي فيها بعثت والتي تجلي اسم الباعث ومكان الإرسال من جهة واسم المرسل إليه وعنوانه من جهة ثانية.

فبقلم حبر جاف تتناسل الخطابات داخل هذا المتن بين مضمنة في رسالة وبين مكتوبة على ظهر بطاقة أو صورة، إذ سطر الكاتب 51 رسالة لزوجته وبعث لها ولأبنائه 28 بطاقة على مدى 63 سنة من أصقاع مختلفة إليها سافر لمآرب شتى كانت الدراسة أولها.

جلي أن هذه الرسائل انسحبت على ربح غير يسير من الزمن خلاله كان المرسل شابا يافعا ثم استحال زوجا فأبا، وشرع في تديجها طالبا ثم غدا أستاذا فمستشارا، ومن شأن هذه المراحل الحياتية أن يكون لها وقع على الترسل والمترسل كليهما. ولأجل ذلك فلعلنا في حاجة إلى تقديم تصنيف لهذه الخطابات حتى يتيسر لنا الدنو منها.

1- خطابات ما قبل الزواج :

لعل انتقائي لفعل "الزواج" مؤشرا لتصنيف هذه الخطابات له قطعاً ما يبرره، فمن اليسير أن نميز هذا السمت من الرسائل حتى دون أن نقرأه، بل علينا فقط أن نعاين أظرفته كيما نتبين أن الأمر يتعلق بخطابات بعثها الدكتور عباس الجراري إلى السيدة حميدة قبل أن يعقد قرانه عليها، وينجلي ذلك انطلاقاً من تاريخ بعث الرسائل، والتي تحيل على فترة دراسته وحميدة بجامعة القاهرة كما تدل على هذا:

- رسالتان من القاهرة إحداهما مؤرخة ب 20 فبراير 1960 والأخرى يوم 26 أبريل من نفس السنة.

(1)- نفسه، ص: 11

أو من خلال قراءتنا لاسم المرسل إليها والذي يبدو اسما علما تسبقه دائما صفة تشي بسمة تهم متلقيه الخطابات وأقصد لفظة "آنسة"، حيث دأب في هذه الفترة على الحرص على كتابة تلك الصفة على ظهر خطابه على هذه الشاكلة "الآنسة حميدة الصائغ" ويعقبه بعنوانها. وقد بلغت المكاتبات التي رقيتها هذه العبارة أي "الآنسة حميدة الصائغ":

- رسالتان بعثتهما من مدينة صفرو إلى حميدته بمدينة الدار البيضاء يوم 14 و 17 غشت من صيف عام 1960، ويبدو أن ظرف أحدها كان قد فقد.

وبانتقال الكاتب إلى باريس لاستكمال دراسته سيغدو سيل الرسائل دافقا وسنشهد ظهور ذات العبارة التي رقيتها بعناية وبأحرف فرنسية أنيقة Mlle Essa-egh Hamida على خد مظروفاته حيث بلغ عدد الرسائل التي وجهها إليها من فرنسا خطابا، بعث لها 14 منها إلى المغرب، وأرسل لها تسع مكاتبات حين عادت إلى القاهرة، أتت كالتالي:

أ - الرسائل المبعوثة من باريس إلى المغرب تحمل عبارة "Mlle Essa-egh Hamida":

- 1- يوم 7 نونبر 1961 الى حميدة بالبيضاء
- 2- يوم 26 نونبر 1961 الى حميدة بالبيضاء
- 3- يوم 10 دجنبر 1961 الى حميدة بالبيضاء
- 4- يوم 12 دجنبر 1961 الى حميدة بالبيضاء
- 5- يوم 18 دجنبر 1961 الى حميدة بالبيضاء
- 6- يوم 23 دجنبر 1961 الى حميدة بالبيضاء
- 7- يوم 8 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء
- 8- يوم 12 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء

- 9- يوم 13 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء
- 10- يوم 17 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء
- 11- يوم 19 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء
- 12- يوم 20 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء
- 13- يوم 25 يناير 1962 الى حميدة بالبيضاء
- 14- يوم 18 فبراير 1962 الى حميدة بالبيضاء

ب الرسائل المبعوثة من باريس إلى القاهرة تحمل عبارة :
"Mlle Essa-egh Hamida "

- 1- يوم 19 فبراير 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 2- يوم 1 مارس 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 3- يوم 21 مارس 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 4- يوم 23 مارس 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 5- يوم 27 مارس 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 6- يوم 31 مارس 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 7- يوم 4 أبريل 1962 الى حميدة بالقاهرة (وفي هذا الخطاب كأنه حن إلى عبارة الأنسة حميدة الصائغ فكتب اسمها والعنوان بالعربية 4 شارع هنري نوس الانتكخانة القاهرة، ثم أردفه بالعنوان بحروف فرنسية على هذا السمتم
.Le Caire Egypte Anti Ghana
- 8- يوم 25 أبريل 1962 الى حميدة بالقاهرة
- 9- يوم 22 يونيو 1962 الى حميدة بالقاهرة

تبدو البطائق بحمولتها البصرية وشكلها اللطيف أقدر على اختزال المشاعر والتعبير معا وذلك لاشتمالها على مشاهد تشد انتباه المتلقي وتأسره فضلا عن كونها تتيح للمترسل أن يخط على ظهرها ما يود إبلاغه، ولعل الكاتب كان مدركا لهذا المنحى فما انفك يبعث ببطاقات متباينة تمثل أهم المعالم العمرانية التي اشتهرت بها المدن التي زارها، محاولا إشراك الأنسة حميدة في ما يراه ويعاينه، وقد بلغ عددها : 7 أتت على الشكل التالي :

1- بطاقة لحميدة بتاريخ 29 / 10 / 61 تمثل :

Tours (André et Loire) le pont de pierre et la place Anatole- France⁽¹⁾

2- بطاقة لحميدة بتاريخ 2 / 11 / 61 تمثل :

Avenue des Champs-Élysées et Chevaux de Marly Illuminés⁽²⁾

3- بطاقة لحميدة بتاريخ 7 / 1 / 62

L'opéra Académie de Musique⁽³⁾

4- بطاقة لحميدة بتاريخ 27 / 1 / 62 تمثل :

L' Avenue de Champs-Élysées et L' arc de Triomphe⁽⁴⁾

5- بطاقة لحميدة بتاريخ 28 / 1 / 62 تمثل :

Panorama de L' Eglise Saint-Jacques ⁽⁵⁾

6- بطاقة لحميدة بتاريخ 10 / 6 / 62 تمثل : منظرًا طبيعيًا.⁽⁶⁾

(1)- أشواق، ص: 31

(2)- نفسه، ص: 32

(3)- نفسه، ص: 91

(4)- نفسه، ص: 127

(5)- نفسه، ص: 128

(6)- نفسه، ص: 164

ولم يلبث أن وافاها بأربع بطائق تحمل مشاهد رائعة لبروكسيل و KOIN AM
RHEIN وفرانكفورت حينما زارها عام 1962 وهي :

1- بطاقة لحميدة بتاريخ 62 / 4 / 16 بطاقة تهنئة بعيد ميلاد حميدة من
بروكسيل

2- بطاقة لحميدة بتاريخ 62 / 4 / 17 بطاقة لحميدة تحمل معالم KOIN AM
RHEIN

3 بطاقة لحميدة بتاريخ 62 / 4 / 18 بطاقة لحميدة من مدينة KOIN AM RHEIN
4- بطاقة لحميدة بتاريخ 62 / 4 / 19 بطاقة لحميدة من مدينة فرانكفورت

لا مرأ أن تأجج العواطف ومكابدة النأي واللهفة للاطلاع على حال المحبوب
واستحضاره ومحاورته عبر الخطابات في فترة "ما قبل الزواج"، أفضى بالدكتور عباس
الجراري إلى تحبير ستة وعشرين خطابا وبعث عشر بطاقات بريدية سطر عليها رسائل
مصغرة فاح من حروفها القليلة عقب الصبابة والاشتياق.

2- رسائل ما بعد الزواج :

ونحن نمخر عباب خطابات جديدة لكاتبنا، سننتقل رأسا إلى سنة 1965 بالقاهرة
ومنها ستبدأ الرسائل مرحلة جديدة كان فيها قد بارح العزوية بعد أن عقد قرانه
بتاريخ "13 محرم 1383 هـ الموافق 5 يونيو 1963 م"⁽¹⁾، فقد منحتنا هذه المرحلة ثلاثة
وعشرين خطابا وعشر بطائق بعثها من أماكن ومواضع زارها على عجل أو أقام فيها
لردح من الزمن، مصدرا إياها برمتها ب صفة Mme أي السيدة المتزوجة على هذا النحو
" Mme Essa-egh Hamida " بحروف فرنسية بارزة، حيث توصلت بها متسلسلة على
هذه الشاكلة :

(1)- رحيق العمر، ص: 140

أ- رسائل وبطاق من القاهرة

- 1- يوم 9 يوليو 1965 إلى حميدة بالمغرب.
- 2- يوم 2 يوليو 1967 إلى حميدة بالمغرب.
- 3- يوم 18 يناير 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 4- يوم 7 شتنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 5- يوم 16 شتنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 6- يوم 17 شتنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 7- يوم 30 شتنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 8- يوم 26 أكتوبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 9- يوم 31 أكتوبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 10- يوم 1 نونبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 11- يوم 14 نونبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 12- يوم 4 دجنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 16- يوم 16 دجنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 17- يوم 17 دجنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 18- يوم 19 دجنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 21- يوم 21 دجنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 22- يوم 22 دجنبر 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 23- يوم 6 يناير 1969 إلى حميدة بالمغرب.
- 24- يوم 20 يناير 1968 إلى حميدة بالمغرب.
- 25- يوم 23 مارس 1969 إلى حميدة بالمغرب.
- 26- يوم 12 أبريل 1969 إلى حميدة بالمغرب.
- 27- يوم 22 يونيو 1969 إلى حميدة بالمغرب.

كما بعث بطاقتين بريديتين من القاهرة على الشكل الآتي:

- 1- يوم 20 / 4 / 69 بطاقة عبارة عن باقة ورود بمناسبة عيد ميلاد الزوجة من القاهرة إلى حميدة بالمغرب.
- 2 يوم 29 / 9 / 73 بطاقة تحمل صورة للنيل وفندق هيلتون بالقاهرة إلى حميدة بالمغرب.

ب - رسائل و بطائق من إسبانيا:

- 1-رسالة واحدة يوم 2 يوليوز 1967 من مدينة سانتندر إلى حميدة بالمغرب.
أردها بأربع بطائق تحمل معالم المواضع التي زارها بإسبانيا تشمل :
- 1- يوم 30 / 6 / 1967 بطاقة تمثل بانسيون Visto Mar من مالقة إلى حميدة بالمغرب.
- 2- يوم 6 / 7 / 67 بطاقة تحمل معالم أثرية وعمرانية لمدينة سانتندر إلى حميدة بالمغرب.
- 3- يوم 15 / 7 / 67 بطاقة لمدينة مدريد إلى حميدة بالمغرب
- 4- يوم 19 / 7 / 67 بطاقة تتضمن صورة خزانة الاسكوريال إلى حميدة بالمغرب.

ج - رسائل و بطائق من السودان

بعث من الخرطوم رسالة وحيدة وبطاقة وحيدة أيضا :

- 1- رسالة يوم 1 أكتوبر 1973 إلى حميدة بالمغرب
- 1- بطاقة يوم 2 / 10 / 73 لأحد شوارع الخرطوم إلى حميدة بالمغرب.

د - بطائق من بلغراد

- 1- يوم 17 / 10 / 76 بطاقة تمثل مدينة بلغراد إلى حميدة بالمغرب.

هـ - بطائق من فرنسا:

1- يوم 19/10/81 بطاقة تتضمن صورة لمطار شارل دو كول إلى حميدة بالمغرب.

و - بطائق من الولايات المتحدة الأمريكية:

1- بطاقة واحدة يوم 1/11/81 تحمل صورة لمطار إنديانا بوليس الدولي (بعثها الكاتب وهو عائد من بلو متون إلى أوستن بولاية تكساس) إلى حميدة بالمغرب.

لقد كانت البطائق العشر التي بعثها بين 30 يونيو من عام 1967 و 19 أكتوبر من سنة 1981 كفيلا بأن حملت زوجة الكاتب لأن تتطلع من خلالها إلى مرثياته فيستشعر وجودها المعنوي رغم الفرقة وتحس دنوه رغم البعاد.

من الجلي أن مجموع ما كتب الدكتور عباس الجراري إلى زوجته حسبما ورد في أضمومة أشواق بلغ إحدى وخمسين خطابا، فضلا عن ثمان وعشرين بطاقة بريدية وخمس صور شخصية للكاتب شملت مكاتبات ظلت منسرحة على ظهرها ممهورة باسم مرسلها وعليها عنوان متلقيها.

غير أنه لا يمكننا بحال أن نغض الطرف عن رسائل الكاتب التي خص بها فلذات كبده وبعثها إليهم لم يثنه عن ذلك مهامه الكثيرة، إذ ظل في وصال معهم رغم النأي، وهو وإن لم يفرد لها صحائفا كما فعل مع زوجته حميدة فإنه اكتفى بإرسال بطاقات بريدية تكشف لهم عن معالم البلدان التي زارها وتحمل في طياتها شوقه إليهم والحنين، وقد بلغت ست بطاقات من أكتوبر سنة 1973 إلى أكتوبر 1981 وهي :

- 1 بطاقة لألوف من السودان بتاريخ 1/10/73 تبرز وجوه سودانية متطلعة.
- 2- بطاقة لعلا من السودان بتاريخ 1/10/731/10 لمجموعة من الفيلة.
- 3- بطاقة لألوف من مصر بتاريخ 6/10/1973 عبارة عن صورة لبرج القاهرة.
- 4- بطاقة لعلا من بلغراد بتاريخ 17/10/1976 تتضمن صورة فندق ميتربول.

5- بطاقة لمحمد من بلغراد بتاريخ 17/10/1976 تمثل صورة نصب تذكاري يتوسط ميدان الجمهورية في بلغراد.

6- بطاقة لريم بتاريخ 30/10/81 تمثل مدينة بلومنتون حيث توجد جامعة إينديانا.

لعلنا نعلم الآن تماما أن أضمومة أشواق تشمل إحدى وخمسين خطابا وافى به الدكتور عباس الجراري قرينته، بالإضافة إلى ثمان وعشرين بطاقة بريدية بعث لأبنائه (ألف علا ريم محمد) ستا منها وآثر حليلته بالباقي.

لكن سؤالا يعن لي بالحاح، وهو هل هذه الرسائل هي كل ما خطه وأرسله الكاتب في هذه الفترة التي انسرحت من عام 1960 إلى عام 1981؟ وهل تم نشر كل الخطابات التي سطرها؟

إن المتفحص لسيرة عميد الأدب المغربي التي تنسج خيوطها من كتابه "رحيق العمر" ومن رحلاته وكتاباته ذات المنحى الشخصي، لا يلبث أن يصادف في محكي أسفاره "ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية" تصريحه صباح الاثنين 26 أكتوبر 1981 من مدينة أن أربور بولاية ميشيغن: "ومن نفس المدينة بعثت هذا الصباح بطاقة لابنتي علا"⁽¹⁾ لكننا لم نعثر على هذه البطاقة ضمن ما تم نشره، وبتاريخ لاحق يقول يوم الأربعاء 28 أكتوبر 1981: "كتبت بعض البطاقات لولدي محمد وأختي خديجة والصهر عبد المجيد"⁽²⁾ لكن الذي يهمنا هنا هو تلك البطاقة التي بعثها لنجله محمد والتي نفتقدها أيضا ولا نعثر عليها داخل هذه الأضمومة.

قد يقول قائل إن تلك البطاقات البريدية ربما ضاعت على افتراض أنها أعطيت للأبناء (علا 13 سنة ومحمد 9 سنوات) الذين تعلقوا بها ورغبوا في الإبقاء عليها، كونها تشمل رسالة شوق من والدهم البعيد عن عيونهم، فاحتفظوا بها ومن المحتمل أنها

(1) ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، ص 68

(2) نفسه ص 85

ضاعت منهم في ما تلا ذلك من الأيام. قد يبدو هذا الطرح مستساغاً، لكن الذي قد يثير بعض الارتياح هو ما أفضى به الكاتب ليلة السبت 24 أكتوبر 1981 حين قال: "كُتبت رسالة إلى حميدة هذا المساء وسأبعثها صباح غد إن شاء الله بالبريد من ديترويد."⁽¹⁾ فأين اختفت هذه الرسالة ولماذا لم تنشر؟ هل ضاعت أم يا ترى تم حجبها؟ فلا أظن أن الكاتب نسي أن يبعثها وهو الحريص على الإبقاء على جذوة التواصل متوهجة عبر التراسل، خاصة أنها مثلت أولى الرسائل التي وجهها إلى زوجته بعد وصوله إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أكتوبر من عام 1981. سيما وأن السيدة حميدة كانت خير حافظة لهذه الخطابات، وهي التي قالت عن ملف أشواق: "وهو الذي كنت أجمع فيه كل ما خصني به من خطاب نشر أو شعراً أو بطاقة بريدية"⁽²⁾، خاصة وأن لفظة "كل" تدلّ على الشمول والاستغراق والتّمَام، فالمتلقي لأضمومة أشواق يعثر على مكاتبات أقدم من تلك بكثير لازالت ماثلة بظرفها وختمها البريدي، فما بال هذه الرسالة إذن؟

وقد نفترض أن الكاتب أرسل هذا الخطاب لكنه ضاع فلم تتوصل به قرينته، فكيف أغفل الإشارة إلى هذا الأمر؟ لقد أنبأتنا السيدة حميدة قائلة: "وبحكم مساعدتي له في الطبع والتصحيح، تسنى لي أن أكون في كل الأحيان أول قارئ لما يكتبه، كما كنت في أحيان قليلة أول ناقد."⁽³⁾ وبناء على هذا فإذا كانت تقرأ غالباً ما يسطره من متون في مجالات فكرية وأدبية، أتراها لم تفعل وهي تطلع على رحلة "ثلاثون يوماً في الولايات المتحدة الأمريكية" التي كانت هي وأخبارها جزءاً منها؟ فلو لم تكن قد استلمت ذلك الخطاب لطلبت من الكاتب أن يؤشر على ذلك ولكان فعل بكل يسر.

لقد ألفينا زوجة الكاتب وقد عقدت وإياه العزم على نشر هذه الرسائل تقول:
"وقرأت عليه بعضاً منها سواء التي بعثها لي من القاهرة أو اسبانيا أو فرنسا أو الخرطوم

(1): نفسه، ص: 58

(2): أشواق، ص: 9

(3): كليات تقديم، ج: 1، ص: 10

أو يوغوسلافيا،"⁽¹⁾ لم تومئ إلى خطاب الولايات المتحدة الأمريكية، ولا غرو أن ما حذاها إلى قراءة هذه الرسائل على مسامع العميد كان الدافع إليه هو أن يجيزها من أجل النشر وأن يتيقن من عدم اشتغالها على ما يחדش صورته عند متلقيه، فهل تضمنت هذه المراسلة ما دعا إلى حجبها عن النشر؟

إزاء تعذر الإجابة على هذه الأسئلة، يمنحنا معطى آخر جوابا صريحا وردا مريحا عما نحن حوله حائرون، ذلك هو العنوان الذي يعتبر عتبة نصية تشي بالحمولة الدلالية للنص ورغم إيجازه اللفظي يكتنز المعاني المسهبة التي يشملها المتن الذي يغدو له مؤشرا. فرسائل الدكتور عباس الجراري انتقى لها عنوانا بعينه هو: "أشواق من رسائل عباس الجراري لزوجته وبطاق بريدية لأولاده" ولعل هذا العنوان يحتمل تفسيرين :

1- أولا: إن لفظة أشواق وهي جمع شوق واشتياق والتي تحتل معاني النزوع والرغبة والميل أتت هنا كعنوان للدلالة على الأشواق المنبعثة من رسائل عباس الجراري لزوجته ومن بطايقه لأولاده، أي أن "من" هنا هي كما يقول النحاة تجنيسيه بمعنى أنها أجلت لنا نوع هذه الأشواق فإذا هي تلك المتضوعة من خطابات الكاتب إلى زوجته وبطايقه البريدية إلى أبنائه.

2- ثانيا: وأظنه المنحى المطابق للصواب هو أن لفظة "أشواق" تسمية تنسحب على المجموع الذي يضم هذه الرسائل، بدليل قول زوجة الكاتب في تقديمها: "ملف أشواق وهو الذي كنت أجمع فيه كل ما خصني به من خطاب نثرا أو شعرا أو بطاقة بريدية."⁽²⁾، وهنا تحتمل "من" دلالة التبويض أي أن هذه الرسائل والبطايق التي تشملها أضمومة أشواق المنشورة، هي بعض مما سطره الكاتب في هذا الباب، وعلى هذا النحو نجد ما يسوغ حجب رسالة الولايات المتحدة الأمريكية والبطاقتين إن وجدتا، خاصة وأن الدكتور عباس الجراري سلك نفس الدرب حينما نشر ديوانه الشعري ذا الجزأين

(1)- أشواق، ص: 9

(2)- أشواق، ص: 9

وعنونه ب: "من ديوان عباس الجراري." فلعلنا أن نفاجاً بجزء ثان من خطابات عميد الأدب المغربي في القادم من الأيام.

وأنا أجيل الطرف في الغلاف الذي حوى رسائل "أشواق" وضمها من الشتات وصنع لها إطاراً لملمها هي التي كانت صحائف متناثرة وفدت من مواضع متباينة وبعثت في أزمنة ليست متضارعة، حملت أخبار كرب أو غضب ونقلت أبناء شوق أو حذب، شدني هذا التوهج اللوني الدافق الذي ينبعث من رسم لوحة مشطورة إلى أفق يشهد بزوغ الشمس وقد يؤشر على غروبها متدثراً بتدرج للضياء من الأصفر المشرق إلى البرتقالي الشفقي تخترق سطحا مائياً فتتخذ إلى دواخله، وفوق هذا وذاك تحلق طيور في سرب آخذة سبيلها في عنان السماء، لقد غدا الغلاف كمؤشر بصري حاديننا صوب استكناه الدلالة ومسعفنا لاستجلاء علاقة هذا المعطى المشهدي بالمعنى وتشكلاته في استقراء مضمون هذا المتن الرسالي الذي يسبيجه، ولاعجب أن تؤشر الطيور المحلقة على الرسائل التي ظلت في غدو وإياب تحملها حمائم الرسل بين اثنين شط بهما المزار منذ غضارة شبابهما ويجلي لنا التدرج الضوئي الذي يستحيل من الاشراف إلى الاكتساء بلون رمادي غامق المراحل العمرية التي بعثت خلالها تحمل بين جوانحها أحداثاً وأخباراً ومشاعر غائرة على امتداد ستة عقود ونيف.

فكتاب أشواق طبع في دجنبر من عام 2023 وشكل السفر رقم 116 من منشورات النادي الجراري وآخرها، بلغ عدد صفحاته 272 صفحة انسرحت الرسائل على 259 منها، تصدرته مقدمة ضافية بقلم السيدة حميدة الصائغ الجراري زوجة الدكتور عباس الجراري التي أشرفت على جمعه وإعداده وطبعه ونشره، كيف لا وهي التي من أجلها حبرت الخطابات وأتت إليها منساقة تحمل بهي الأشواق وندي العبارات.



3. رسائل أشواق وسعر الجرافولوجي

ظلت خطابات "أشواق" متدثرة بحنو وحذب، لها في المهجة حنين وفيها الفؤاد
رغب، مسطورة على صحائف لم تبل ولم تبد، غدت آخر ما ذاع وإن كانت أول ما
كتب.

علينا أن ندرك منذ البدء أن دنونا من رسائل الدكتور عباس الجراري يقتضي منا
فض أختامها لأجل النفاذ إلى أغوارها التي ظلت عنا مستترة، ولا غرو أن أول ما يطالعنا
ونحن في سبيلنا هذا هو أن الرسائل نشرت كما دبجها صاحبها مكتوبة بخط يده بقلم
حبر جاف بحروف متوسطة مقروءة وأسطر متتالية تضارع وجيب فؤاده ساعة كتابته لها
وسعيه إلى توثيق كل ما به مر أو نقل ما يساوره من مشاعر، متوسلا أن تتمكن الصحيفة
من احتواء ما يود الإفصاح عنه. وإذا كان "إصدارها بصورة بخط كاتبها يزيدا قيمة"⁽¹⁾
كما تعتقد عقيلته السيدة حميدة فلا أحسب إلا أن هذا الصنيع يمنحنا متعة قراءتها
كما لو أنها بعثت لنا، وبوجه خاص حين نعاين أظرفتها المختومة تصطف إلى جانبها
وعليها طوابعها البريدية التي تباينت كلما اختلفت مواضع البعث وأماكن الإرسال،
فتغمرنا بهجة وكأننا أول قرائها وقد نستحضر ولو من باب التخيل ما به شعرت قريته
لحظة التوصل بها ولحظة قراءتها وربما حتى ما خالجها من وجل أو كرب أو حبور،
لأننا نجوس بأحداقنا نفس ما حدقت فيه بمقلتيها حين كانت أول متلقية لها، على اعتبار
أن الخط مرآة الروح.

(1)- أشواق، ص: 11

تعرف "دراسة الخط أو الجرافولوجي" بأنها "محاولة منظمة لفحص خط اليد وتحليله بغرض الاستدلال من خصائص الخط على شخصية كاتبه إجمالاً، أو على الحالات النفسية التي صاحبت عملية الكتابة، أو بغرض الكشف عن بعض جوانب في أعماق شخصية الكاتب،"⁽¹⁾ أي أنه "علم وفن تحديد شخصية الكاتب ونوعية انفعالاته من طريقته في الكتابة، أي شكل الخط المكتوب على الورق"⁽²⁾، ليس ثمة من سبيل لاستكناه هذه الخطابات عدا قراءتها، ولعل فعل القراءة ذاته يستدعي استئناسنا بخط الكاتب على مدى مائتين وتسع وخمسين صفحة بالتمام، وإذا لم نتمكن من فهم تشكيل حروفه فلن نقدر قطعاً على استيعاب دلالاتها، ولعل رنونا إلى الاستعانة بعلم الخط مرده إلى أن هذا الكم من الكلمات التي شملتها الرسائل كفيلاً بأن تدنينا من شخصية كاتبها ونمط تفكيره خاصة أن كونفوشيوس يقول: "ما تخطه اليد هو بصمة العقل"، فبقلم حبر جاف سطر مترسلنا مكاتباته بحروف بارزة وكلمات ليست كبيرة الحجم لكنها مقروءة مما يؤشر على أنه "هادئ ومنظم ومخلص"، كما أن ضغطه باليراع على الورق كان متوسطاً مما أشر على أنه "شخصية متوازنة منظمة ومرنة" وعن لون خطه أتى غامقاً في كل الأحوال وهو أمر "يجعله يتسم بقوة الشخصية والعزيمة والثقة في النفس والاعتداد بها"، ومن اليسير أن نلاحظ أن حروف كلماته غالباً ما تتسم بالصغر عند بدايتها والانبساط في آخرها ولعل هذا الامتداد يأتي من اتصاف الكاتب بـ"القناعة والصبر وحسن الاستقبال والتقليل من أهمية النفس خاصة فيما ينجز من أعمال"، وإذا ما تمعنا في اتجاه خط الكتابة لديه فلا نلبث أن نخلص إلى أنها مستقيمة غير مائلة وربما أتت على قياس الزاوية القائمة (90) وهو أمر يسم شخصية الكاتب بأنها "متوازنة، موضوعية، مستقلة، ثابتة، لا يظهر عواطفه بسهولة،

(1) علم الجرافولوجيا، سليمة سايحي، مجلة علوم الانسان والمجتمع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، بصرّة الجزائر، يونيو 2012، العدد:2، ص:207

(2)- علم الجرافولوجيا، ص:208

معتدل في تصرفاته، اجتماعي إلى درجة مقبولة، نشيط وحيوي، يتميز بدرجة عالية من المصدقية وسعة الأفق.⁽¹⁾ هذا ويكاد في كل خطابه إلا في ما ندر أن يحرص على توفير مسافات منتظمة بين الكلمات والسطور ووضع علامات التنقيط والنقاط في مكانها الصحيح مما يشي بتميزه ب "الوضوح والتنظيم في تسلسل الأفكار."

عسى هذا التمحيص في خط العميد أن يكون وفي بالعرض، إذ بدا لي أن المواصفات التي أجلاها هذا التحليل الجرافولوجي تتطابق مع ما اتسم به الكاتب من صفات وسمت شخصيته التي بها عرفناه وألفناه.

وهو يكتب خطابه ويدبجها لم يضع الكاتب لنفسه قيودا تعوق استرساله في توضيح ما يصبو إليه، وعلى هذا النحو بدت رسائله تتباين من حيث الطول والقصر، ولئن لم تتجاوز بعضها سبعة أسطر ونصف فقد انسرحت أخرى على مدى ست أو سبع أو عشر أو اثني عشر صفحة وربما بلغت أربع عشرة من الصفحات كاملة، وبشأنها قال "حميدي كتبت لك في كل أسبوع مجموعة رسائل أبعثها في خطاب واحد... وكل رسالة من هذه الرسائل تمثل لقاءات كثيرة معك لو جمعتها لكانت شبيهة بمذكرة اسطنبول."⁽²⁾

(1)- الجرافولوجي تبصرة بخبايا الكاتب، د. ناصر أحمد سنة، المجلة العربية، الأحد 2/10/2016، الموقع الإلكتروني: www.arabicmagazine.net

(2)- أشواق، ص: 226

ولعلني أن أقربكم من هذا التدفق الكتابي أو الإيجاز الاسترسالي من خلال هذا
الجدول :

عدد الرسائل	عدد الصفحات	تاريخ الرسالة
16	صفحة واحدة	20 / 2 / 1960
		12 / 12 / 1961
		23 / 3 / 1962
		25 / 4 / 1962
		22 / 6 / 1962
		26 / 1 / 1968
		17 / 9 / 1968
		19 / 9 / 1968
		26 / 9 / 1968
		21 / 10 / 1968
		31 / 10 / 1968
		14 / 11 / 1968
		12 / 12 / 1968
		20 / 1 / 1969
22 / 6 / 1969		
1 / 10 / 1973		
3	صفحة ونصف	7 / 9 / 1968
		18 / 1 / 1968
		17 / 12 / 1968
5	صفحتان	26 / 4 / 1960
		31 / 3 / 1961
		18 / 12 / 1961
		23 / 2 / 1961
		20 / 9 / 1968
		23 / 2 / 1969

3	صفحتان ونصف	14 / 8 / 1960 1 / 3 / 1962 26 / 10 / 1968
2	ثلاث صفحات	12 / 1 / 1962 4 / 4 / 1962
2	ثلاث صفحات ونصف	25 / 1 / 1962 18 / 2 / 1962
8	أربع صفحات	17 / 8 / 1960 7 / 11 / 1961 8 / 1 / 1962 9 / 7 / 1965 2 / 7 / 1967 22 / 12 / 1968 6 / 1 / 1968 12 / 4 / 1969
2	أربع صفحات ونصف	19 / 1 / 1962 20 / 9 / 1968
3	خمس صفحات	21 / 3 / 1962 1 / 11 / 1968
1	خمس صفحات ونصف	20 / 1 / 1962
1	ست صفحات	19 / 12 / 1968
1	سبع صفحات	4 / 12 / 1968
1	تسع صفحات	26 / 11 / 1961
1	تسع صفحات ونصف	13 / 1 / 1962

1	ثلاث عشرة صفحة	10 /12 /1961
1	أربع عشرة صفحة	23 /12 /1961
51 رسالة		المجموع

لعل تفحصنا للمعطيات التي تم استقاؤها من رسائل أضمومة أشواق بين بجلاء أن ما يسمها هو ارتفاع عدد الخطابات التي لا تتعدى حدود الصفحة الواحدة والتي بلغت 16 مكاتبة كادت الأسطر في بعضها ألا تتجاوز السبعة، بينما تلتها تلك التي امتدت على سعة صفحات أربع وهي في مجموعها ثمانية.

ومن الغريب أن نلاحظ أن الخطابات المغرقة في الطول (9 صفحات 9 صفحات ونصف - 13 صفحة - 14 صفحة) تمت بصلة إلى مرحلة بعينها، وهي تلك التي كان فيها الكاتب يتابع دراساته العليا بباريس (1962) ولأن حب حميدة أينع في قلبه وأورق وأزهر سيما وقد باتا خطيبين منذ سنة 1959، ولأن المزار شط بهما وأحكم البين وطأته والبعاد، فقد انقدحت جذوة مكاتباتهما الحانية وإذا به يوافيها بثلاثة وعشرين خطابا من فرنسا فيها الشوق والشجن، وبها الحنين والهيام إلى الإلف الذي خلفه في الوطن، وبقدر ما ألفتها غدت سبيلا للنفاذ إلى أدق خلجات نفسيهما غورا، فقد تنامت بالسؤال وترقب الإجابة وربت بالجدال والتبرير والمناقشة وانتظار الردود، فباتت الصفحات بامتدادها وسعتها أقدر على استيعاب بوحهما او اعتذارهما والعتب لذلك طالت وكثرت أوراقها وتعددت، ولا غرو أن هذا الدأب والديدن أفضى إلى سمت من الانسجام الروحي والتوهج العاطفي الذي ظل ثاويا إلى أن توضع من حنايا أضمومة أشواق.

لاغرو أن الترسل بات بالنسبة للدكتور عباس الجراري وجاء إزاء إحساسه بالبين ومن ثم فإن يراعه نفث على صحائف طوال أو قصار ما به مر، حسبما أفضت إليه حالته النفسية وانفعالاته إبان الكتابة.

الفصل الثاني

1. الحب بين جنوة العشق وألفة الزواج
2. بين إصار الغربة واثار الحنين
3. بين بشائر الصبح ونذر العتاب
4. بين كرب الواقعي وبهجة المتخيل
5. بين متعة السر ووافق الترسل
6. بين المنفى الخائبي والسمت التوثيقي
7. الرسائل ومعمارية التشكل



ومن عادي الرسائل التي تنوي مكثرة بالأشواق، لأنثت
أن نعاين لآلاتها والمعاني، فمن الجلي أنفا ركت
إلى معمار عليه سارت فبات ميسما لها، إءءأ الكاتب
على الإفصاح عما ينتابه ويضنيه من لواعب الاشتياق
ثم يعرج على السؤال عن حليلته محاولا استجلا، أحوالها
ويمرق بعد هذا إلى سرء يومياته وما أنجزه أو لم يحقده وما
بأله أو هوفي سبيل إتمامه. وعلى هذا النحو تأينا أن
نكنو مما حوته هذه الرسائل المعتقة انصلاقا من الثنائيات
التي ضلت تضررءأ خلفا.



1 لعب بين جنوة العشق وألفة الزواج

لعب كالدين، كلاهما نعمة إلهية

أو منعة سماوية

يرزقها البعض فيسعد وينعم،

وعرمها البعض الآخر فيشقى ويتعذب⁽¹⁾

عباس الجراري

(1) - أشواق، ص: 27



1. الحب بين جنولة العشق وألفة الزواج

إذا كان العارفون بأسرار الهوى والمجيدون لضروب الوجد قد استوثقوا مما خلص إليه ابن حزم الأندلسي حين قال: "الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة"⁽¹⁾، فإننا ما نلبث أن نصادف داخل الرسائل عاشقا أضناه الوجد، فأرداه كلفا هائما لا يقوى على البعد، تزري به ريح الصبابة فينتابه الكمد، فلا نكاد نجيل الطرف في ما سطره الدكتور عباس الجراري ملهوفاً. حتى نلفه ييز صاحب طوق الحمامة ويهب العاشقين تعريفا للحب مستفهما لا يبغي من وراء ذلك إلا التوكيد "وهل الحب إلا ريحانة حياتها في السقي المنتظم والرعاية المستديمة؟ أو هل هو غير طفل صغير يظل ينمو ويترعرع في أحضان من استولى على مشاعرهما؟"⁽²⁾، لقد أورد الكاتب هذه العبارات اللاهبة في رسالته لحميدة وهو طالب في كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة 1960، وماعتم أن وافاها بخطاب آخر بعد أن شط به المزار حين افترقا إبان العطلة الصيفية فقال: "نقي معي أن داء الحب الذي لا تخفف من آلامه غير عيادة الحبيبة التي لا يلبث المريض أن يشبع بصره من محياها ويروي قلبه من حديثها حتى يزول عنه المرض ويروح"⁽³⁾، ولأن اللقاء بات بعيد المنال فإن داء الحب ظل ينكأ فؤاده فيلهج: "لا تسأليني عن الرحلة كيف قطعت مسافاتها حزنا وأسى على زيادتي في البعد عن ديار علق قلبي بها وما حبها قد شغفه ولكن حب ساكنيها."⁽⁴⁾ لا مناص من الإشارة إلى أن هذا الوله الذي

(1)- طوق الحمامة، م.س، ص: 30

(2)- أشواق، ص: 18

(3)- نفسه، ص: 19

(4)- نفسه، ص: 19

شهدناه في مراسلات الكاتب تلك لحبيبته حميدة سنة 1960 والتي لم يكن قد عقد فيها قرانه عليها بعد، له ما يجلي إبهامه، فقد تعرف على هذه الفتاة أواخر سنة 1956، يقول: "وماكدنا نصل إلى القاهرة حتى شرعنا في الاتصال ببعض تلاميذ مدارس محمد الخامس وغيرهم من الذين كانوا يتجهون إلى مكتب لجنة المغرب العربي... للقيام بالإجراءات التي تقتضيها الإقامة في مصر ومتعلقات التسجيل المدرسي ومن أجمل ما صادفت هذا اليوم، وأنا عند مصعد بناية المكتب المذكور لقائي بالآنسة حميدة الصائغ التي هي من خريجي مدارس محمد الخامس وحضرت إلى القاهرة لإتمام دراستها"،⁽¹⁾ إن هذه الغادة تركت في نفسه أثرا كبيرا حين قال: "وإذا كنت اعتبرت هذه المصادفة أجمل ما لقيت، فلأن علاقتي بفتاة المصعد ستتطور على امتداد سنوات الدراسة بمصر."⁽²⁾ وهو ما تحقق سريعا، يضيف "مما جرنا معا إلى الإفصاح عما يخالجننا من مشاعر وأثناء الحديث بدت وكأنها تفتح لي قلبها، وأخذت تتكلم بصفاء روعي كان له أكبر الأثر علي إذ زادني تمسكا بها وتقديرا لها... وبحكم تأثري بصدق حديثها زدت تعلقا بها،"⁽³⁾ وما لبث ذلك أن أفضى إلى الارتباط بها، يقول: "وشيئا فشيئا تمتنت الروابط معها، ومنتزه مناسبة قضاء عطلة صيف 1959 بالمغرب لزيارتها في بيت والديها... وذلك رفقة والدي وبعض الأهل والأحباب لخطبتها."⁽⁴⁾ لعل الغرض من إيراد هذه الأخبار التي ضمنها عميد الأدب المغربي سيرته رحيق العمر، إنما هو التأشير على ما يتصف به الكاتب من نبيل الأخلاق وساميتها، فرغم أنه تعرف على حميدة التي كانت طالبة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة سنة 1956، ورغم أنهما كانا يعيشان كلاهما مغتربين عن أهلهم بمصر، ورغم انجذابه إليها وتعلقه بها، فإنه ما أقدم على مكاتبها إلا بعد أن قام بخطبتها رسميا وشعر أنها غدت بذلك ملكا لفؤاده.

(1)- رحيق العمر، ص: 97

(2)- نفسه، ص: 138

(3)- نفسه، ص: 139

(4)- نفسه، ص: 139

لقد أثمرت فترة الخطوبة تلك ستة وعشرين رسالة بات التوهج العشقي ميسمها، ولا عجب أن نلفي الكاتب يضمنه البين في مدينة صفرو، فيلهج "هذه أول مرة أصلى ناره فقد كنت قريبا منك أزورك تارة وتزوريني أخرى، وأكلمك كل يوم مرة أو تزيد، فأصبحت وقد زاد البعد بيني وبينك، وتعذرت الزيارة وزالت أسبابها... وحاولت أن أكلمك عن غير الهاتف العام فلم أفلح وعبثا حاولت، وبكيت في نفسي حسرة على ما فاتني، وقصدت إلى جذع تينة أتقصي حالات المحبين وما قاسوه من آلام الفراق، وما كانت تزيدهم مرائره من قوة في العزيمة وثبات على المبدأ ووفاء بالعهد، وما كانوا يضطرون إليه من إعمال الحيلة والدهاء بغية الوصول إلى قرب أنيسة القلب ورفيقة الحياة،" ⁽¹⁾ إنها رقة تذكرنا بوله الشعراء العذريين ولاريب، فما أشد ما قاساه هذا المضمنى وهو يفصح: "تذكرت جميلا حين سافرت بشينة عنه فلحق بها متنكرا في ثوب سائل حتى لا يفطن أحد لأمره، وكان عندها ضيوف فأجلسته بعيدا وحده بعد أن عرفت أنه مسكين يطلب الصدقة والعطاء، ثم قعدت مع جاريتها بعد أن عشته ونام القوم، فقال:

هل البائس المقرور دان فمصطل من النار أو معطى لحافا فلابس

فقالت بشينة لصاحبته: "إنه صوت جميل والله فذهبت الجارية لتتأكد من السائل وعادت إليها لتخبرها بواقع الأمر، فما كان من بشينة إلا أن شهقت شهقة عالية فزع لها أهلها واقبلوا مسرعين، وفكرت في حيلة للخلاص فألقت بردائها على النار حتى لا يفطن أهلها ويرجعون، ثم أرسلت جاريتها تطلبه وكان اللقاء. وكان يكتفي في كثير من الأحيان بالجلوس على تل قريب من حيفا يستنشق من ريح نسيمات حبيته، وهذا ما أحاول في هذه اللحظات ولكن عبثا أحاول فالديار جد نائية والجو ساكن حار، ومن يدري فقد يحمل لي ريح الليل نسيمات البيضاء العطرة." ⁽²⁾

لكن هل يا ترى خبت جذوة الهوى حين تزوج من هذه الحبيبة؟

(1)- أشواق، ص: 19- 20

(2)- نفسه، ص: 20

في رسائله الوفيرة إلى السيدة حميدة لم تخب قط جذوة الحب ولا فترت ولأجل هذا أقحمت هذه الخطابات ضمن رسائل العشاق، فبعد عودة الكاتب من فرنسا إلى مصر- وكانت حميدة هناك تتابع دراستها والخطبة ما تزال قائمة بينهما تم تعيينه بالسلك الدبلوماسي بالقاهرة، لكن المرض سيتدخل لتحقيق مأرب عزيز على نفسه وأثير لديه، يقول: "وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان فقد تعرضت مع بداية مهتمتي الدبلوماسية لأزمة حادة بسبب قرحة المعدة التي كنت أعالجها في باريز، والتي فرضت علي إجراء عملية جراحية بمصحة هيليوبوليس... ما جعل هذه الأزمة تبدأ في فبراير 1963 وتستمر نحو أربعة أشهر قضيتها في عطة مرضية بالبيت. وهي فترة أليمة كانت حميدة خلالها إلى جانبي تتطوع لتمريري ومباشرة سائر شؤوني بصبر وصدق ومحبة."⁽¹⁾ بيد أن هذا الاعتلال كان من شأنه أن قرب بين الحبيين وعجل بعقد قرانهما، يقول: "كانت حميدة تنهض بكل متعلقات بيتي الذي ستشاركني السكنى فيه بحي جديد يومئذ، هو حي المهندسين، وذلك بعد أن فرضت علينا طبيعة هذه الظروف أن نعقد قراننا فيه ولو بعيدا عن الأسرتين."⁽²⁾ لكننا سنشهد تدفق سيل من الخطابات بعد هذا التاريخ مضمخة جميعها بعطر الشغف الندي، فقد بعث لها خطابا من القاهرة يوم الخميس 9 يوليو 1965 جاء فيه: "إنني اليوم في حاجة أكثر إلى حبك وحنانك وعطفك وعنايتك، بل لن أكتفك أنني أحس نفسي كالطفل الذي فقد مرضعه فهو عليها في بكاء دائم، أقول هذا على الرغم من الكبرياء الذي ينبض به قلبي بل أقوله تعبيرا صادقا من الأعماق طاغيا علي بما لا سبيل إلى إنكاره أو تكتمه،"⁽³⁾ فأني صباة بعد هذا وأي عشق بعد ذاك؟ وفي رسالة بعثها لها من القاهرة بعد أن قفل إليها راجعا من تركيا لاستكمال إجراءات إتمام ومناقشة أطروحته التي تمحورت حول "القصيدة" يبعث لها رسالة رقيقة موحية فيها يقول: "حميدتي الحبيبة، عشر سنوات مرت من عمر

(1)- رحيق العمر، ص: 140

(2)- نفسه، ص: 140

(3)- أشواق، ص: 170

حينما كان في كل يوم بل في كل لحظة منها يزيد قوة وقداسة.⁽¹⁾ وقبل ذلك بيومين وافاها ببطاقة تهنئة هي عبارة عن باقة ورد يانعة خط على ظهرها: "زوجتي الحبيبة، مع نسيمات صباح هذا اليوم، يوم ذكرى ميلادك، أبعث إليك من أعماقي أصدق التهنئة وأخلص التمني بدوام الصحة واطراد النجاح، وأجدد العهد مع نفسي أن أبذل لتحقيق سعادتك وهنائك كل شيء، إكبارا لشخصك وتقديسا لحبك،"⁽²⁾ ولعل آخر ما أثبت في أضمومة أشواق، كان بطاقة من مطار إنديانابوليس بالولايات المتحدة الأمريكية بعث بها إليها هذا الزوج المقيم سنة 1981 وفيها قال: "...تحياتي وأشواقي متلهفا إلى لقياك بعد أسبوع في نيويورك، فلعل هذه البطاقة أن تصل قبل سفرك، قبلاتي لك وللأولاد،"⁽³⁾ ووافته هذه الحليلة الشغوفة، وعن هذه الزيارة قال في متن رحلته مفتتنا بها في عشق ما فتر قط: "فكانت وقد طال اشتياقي لها، حلوة جميلة مبتسمة، ماكدت أراها حتى انشرح نفسي وتفتح ذهني وأحسست بقشعريرة سعادة... أو بتيار كهربائي يسري في نفسي."⁽⁴⁾

لطالما حلاله أن يحبر اسمها بدلالات باذخة داخل رسائله فهي: حميدتي⁽⁵⁾ وحميدتي العزيزة⁽⁶⁾ وأنيسة القلب ورفيقة الحياة⁽⁷⁾ وخليلة العمر وشريكة الحياة⁽⁸⁾، وزهرة الروح وأمل المستقبل،⁽⁹⁾ وصديقة العمر⁽¹⁰⁾ ورفيقة الكفاح وشريكة العمر،

(1)- نفسه، ص: 245

(2)- نفسه، ص: 243

(3)- نفسه، ص: 261

(4)- ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، م. س، ص: 184

(5)- أشواق، ص: 65

(6)- نفسه، ص: 211

(7)- نفسه، ص: 20

(8)- نفسه، ص: 62

(9)- نفسه، ص: 44

(10) نفسه، ص: 242

(1) وزوجي العزيزة وزوجتي الحبيبة، (2) و"عزيزتي حميدة" (3) و"حبيبة القلب" (4) و"عزيزتي". (5)

الحب في هذه الخطابات الجراحية جذوة من الأحاسيس الملتهبة التي يذكيها الزواج ولا يطمسها، يقول في رسالته بتاريخ 17 غشت 1960: "وفي رأيي أن الحب لا يكون نبيلًا بغير زواج، وفي رأيي كذلك أن الزواج إنما هو استمرار له وتقوية لأوصاله وتعزيز لنفوذه، وأن الحب الصادق لا تختم صفحاته إلا إذا اختتمت أنفاس أصحابه، وقد تستمر حياته بعد آية ذلك ما تطالعنا به كتب السير من أن أفذاذا في التاريخ أوصوا بدفن رفاتهم إلى جنب أزواجهن، أو بوضع رماد اجسامهم بعد إحراقها في نفس الزجاجة مع رمادهن، تخليدا للرباط المقدس بينهما، بل وليسكن كل إلى صاحبه في الفناء كما سكن إليها في الحياة، وكأني في هذا بقوله تعالى "الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا". (6) تالله إنه لتمثل للعشق في أبهى دلالاته.

عشق يتألق بالاقتران بالحبيب، لأن الكاتب موقن كما يصرح أن "طريق الحب كالصراط المستقيم أرق من الشعرة وأحد من السيف لا يسلكه غير الطاهرين صافي القلوب". (7)

(1) نفسه، ص: 242

(2) - نفسه، ص: 242

(3) - نفسه، ص: 242

(4) - نفسه، ص: 43

(5) - نفسه، ص: 171

(6) - نفسه، ص: 26 - 27

(7) - نفسه، ص: 26 - 27

2 بين إسهار الغربة واثار الكنين

”بعيدا عنا ما أحسست للبحر جمالا ولا للسفر لذة،
وبكوننا ما اجتذبتني وسائل المتعة وأسباب الترفيه،
وحيدا هكذا لم يستوقفني غير الأفق البعيد
أهليل النضر إليه فيزيكني إحساسا ببعده الفراق واهوله⁽¹⁾

عباس الجراري

(1)- أشواق، ص: 31



2- بين إيسار الغربية ولأثار العنين

تكاد رسائل أشواق أن تمنحنا سيرة لحياة الكاتب، حينما توثق لمراحل حياها كان السفر باعثه خلالها على الكتابة بما فرضه من مبارحة للأهل والخلان والبلد، ولطالما خبر الدكتور عباس الجراري عنت النأي عن الونيس والوليف والحبيب أثناء رحلاته من أجل الدراسة أو العمل، فلم يكد الكاتب يستعذب رحيق الهوى مع قلبه إليها هفا حتى يقرر السفر من القاهرة بعد أن حصل على الإجازة إلى باريس كي يتابع دراساته العليا بجامعة السوربون سنة 1961 وأنداك غمره إحساس أوجعه، فكتب إلى حميدته على ظهر بطاقة وهو في سبيله إلى باريس: "بعيدا عنك ما أحسست للبحر جمالا ولا للسفر لذة، وبدونك ما اجتذبتني وسائل المتعة وأسباب الترفيه، وحيدا هكذا لم يستوقفني غير الأفق البعيد أطيل النظر إليه فيزيدني إحساسا ببعيد الفراق وطوله"⁽¹⁾، وهناك داهمه غم وكرب لم يفارقه، فكتب مشتكيا "حميدتي إنني أتحمل في كثير من الصبر والثبات عناء الأيام، رازحا تحت هم كابوس العزلة والوحدة والفراغ الذي يجثم على صدري، أتوق إليك في تلهف وشوق فتفيض نفسي بسيل من العواطف المتأججة، لا يلبث يضطرم فيها حتى يرتد إلى أعماقها ليخنقني ويلقي بي منهزما في أحضان الألم والبكاء."⁽²⁾ وسرعان ما غشيه ندم بالغ على قرار المجيء إلى باريس وما نتج عنه من تشطي لمشاعره وتأرجحه بين الغربية المقيمة والشوق الملازم، فسطر " فأنا أعتبر مجيئي إلى باريز أشبه بهزة أولى تعلمت إثرها أن في الحياة أشياء أخرى لا تقل أهمية عن السعي وراء لقب أو شهادة، وأن من الأنانية أن يتجاهلها الإنسان خاصة من ربط

(1) - أشواق، ص: 31

(2) - نفسه، ص: 169

حياته بغيره"،⁽¹⁾ وحين اشتد به الحنين إلى إلفه جزم أنه " لا يستطيع الحياة في باريز إلا من كان متزوجاً أو شبيهاً بالمتزوج وكان ذا مال، وما دمت أفقد هذين الخاصيتين فحياتي أشبه بجحيم لا أدري كيف أتخلص منه،⁽²⁾ ولعل حميدة قررت أن تزوره عسى حذبها أن يبعثه على استعادة رباطة جأشه، وقد ذكر الكاتب هذه الزيارة في كتابه رحيق العمر حين قال: " وكم كانت سعادتني كبيرة بالزيارة التي قامت بها حميدة إلى باريز والتي دامت أسبوعاً، وهي في طريقها من الدار البيضاء إلى القاهرة حيث كانت ما تزال تتابع دراستها بكلية الحقوق."⁽³⁾ ويبدو أن لقاءه بتوأم روحه وهبه إشراقة وإقبالاً على الحياة لولا أن حادثاً طرأ حين مغادرتها باريس صوب القاهرة، حيث ضاعت منها حقيبتها لذلك فقد كتب إليها ليعلمها بعد مدة أنه تم العثور عليها "وبعد ظهر اليوم اتصل بي مكتب المخازن بأورلي ليخبرني أن السيدة التي أخذت غلطا حقيبتك قد كلمته بالتيلفون وأنها ستحضر ومعها الحقيبة على الساعة السابعة من مساء اليوم."⁽⁴⁾ ثم مالبت رسائله أن غمرها طيف الكمد من جديد فسطر لحميدته "وثقي أنني ما أحسست مرارة الغربة والحاجة إلى الكفاح كما أحسستها هذه الأيام،"⁽⁵⁾ وكيما يبعث نفسه على الجلد استحضر الحب وعدد مصاعبه لكنه ألقى أن أعسرهما هو الفراق، وبعث لها رسالة كتب فيها: "في الحب محن وآلام وقيود وأهوال ومصاعب وخطوات وخطوب وغصص تتجرع مريرة أشهى منها كأس الموت. فيه قساوة أهل لا زالوا في حيرة وقلق غير مرتاحين ولا مطمئنين، وفيه تقول عواذل من أقرباء وغيرهم خابت آمالهم وفشلت خططهم فلجأوا إلى لسانهم سلطوه شواظاً، وفيه الفراق وما أشد آلامه وتعذيبه."⁽⁶⁾ و في بعض لحظات اليأس التي انتابته أقر قانطاً "لم أعد أجد أي نشاط سواء للقراءة

(1)- نفسه، ص: 36

(2)- نفسه، ص: 36

(3)- رحيق العمر، ص: 8

(4)- أشواق، ص: 133

(5)- نفسه، ص: 36

(6)- نفسه، ص: 19

أو الكتابة بما فيها كتابة الرسائل التي كنت أتسلى بها من عناء الدرس،⁽¹⁾ "عزيزتي حميدة لا أخفي عليك ما أحس به من قلق وضيق وفراغ وإرهاق وشوق، ولكن هذا لا يؤرقني كما يؤرقني شعور يطغى علي بأنك لم تعودتي تطيقين الوحدة وتحمل جميع الأعباء بمفردك."⁽²⁾

شكل الاشتياق إلى الأبناء منحى آخر أجلى الجانب العطوف للدكتور عباس الجراري الوالد بعد أن عرفناه حبيبا وزوجا، فلم يسئل قط عن نأيه عن فلذات أكباده، فمن بطاقة لابنته ريم بعثها إليها من "بلومنتون" من الولايات المتحدة الأمريكية يوم 30 أكتوبر 1981 كتب "أبعث لك هذا التذكار مع أشواقي لزياراتك الصباحية المبكرة الحلوة. قبلاتي لك ولإخوتك وسلامي لجميع أفراد العائلة ولماما"⁽³⁾ ومهرها بـ "أبوك"، ولابنته ألوف سطر في بطاقة وجهها إليها من "بلغراد" تنم عن هذا الاشتياق الدافق "أبعث لك بعناقي وقبلاتي، راجيا أن تكوني منتظمة في دروسك وملتزمة بواجباتك ومطبعة لماما ومتلطفة مع إخوتك،"⁽⁴⁾ وكان من نصيب نجله محمد بطاقة تحمل صورة نصب تذكاري لبطل يمتطي جواده يتوسط ميدان الجمهورية ببلغراد وكتب عليها "فلتقبله من أبيك مشفوعا لك بالدعاء لك بالصحة والمستقبل الزاهر. مع قبلاتي لك ولماما ولجميع إخوتك"⁽⁵⁾، ولم ينس علا وهو في قلب "السودان" حين وافاها بصورة لمجموعة من الأفيال وبعث معها التحايا قائلا: "مع قبلاتي لك ولألوف ومحمد وماما وجميع الأحباب راجيا أن تكونوا بخير،"⁽⁶⁾ ووقع عليها بكلمة بابا وكأنه يستحضر ويستعذب هذه الكلمة التي حرم منها جراء نأيه والبعاد.

(1) - نفسه، ص: 148

(2) - نفسه، ص: 242

(3) - نفسه، ص: 260

(4) - أشواق، ص: 256

(5) - نفسه، ص: 257

(6) - نفسه، ص: 252

ولشدهما كان بالغ الوثوق بالآتي من الأيام لذلك خط إلى زوجته : "المستقبل أمامنا مشرق جميل ، تزيده إشراقا وجمالا فلذات الكبد علا وألوف ، فلننظر إليه بمنظار الزوجية الوالدية، وثقوا أن السعادة ستغمرنا ويرزقنا الله من حيث لا ندري أو نحتسب".⁽¹⁾

أجلت لنا الرسائل ما كابده الكاتب من افتقاد للونيس وما عاناه في حينه إلى الوليف هو المحب الشغوف، بيد أنه استعذب ما حاق به في سبيل أن يبلغ المسعى الذي رنا إليه، وفي إحدى رسائله إلى التي يفضي إليها بسريره قال: "ألي في الفراق بلاء أي بلاء، إذن ما أعذبه وأحلاه، فيه امتحان المحب لقلبه وعقله وضميره وكثير من الصفات المتعلقة بها أهمها الوفاء، ويظهر حين تعترض طريقه الفاتنات الحسان يرسلن له نظرات إغراء باسمه، فلا يلفته جمالهن أو تحركه إشارتهن ويضطر حين تعرض له مجالس المتعة والسرور فلا يطرب ولا يلهو، وإنما يسبح في ذكرياته بخيال ينقله من مجلس اللهو إلى مجالس قد لا تكون مهياً فيها دواعي البهجة والسرور، ولكنه يطرب لمجرد تذكرها لأن فيها طيف حبيبته وخيال "حميدته".⁽²⁾

(1)- نفسه، ص: 228

(2)- نفسه، ص: 20

3. بين بشائر الصبح ونذر العتاب

وهل لعب إلا ربحانة

حياتها في السقي المنتظم والرعاية المستديمة ؟

أو هل هو غير لفعل صغير

يضل ينمو ويترععرع في أحضان من استولى على

مشاعرهما؟⁽¹⁾

عباس الجبراري

(1) - أشواق، ص: 18



3. بين بشائر الصفع ونذار العتاب

يكاد العذل والعتاب أن يكونا ديدن العاشقين، فبه يعيدون إذكاء أو اصرهم حين يتجادلون ملقين اللوم على بعضهم، يسعون في كل ذلك إلى التأثير على الحبيب وأسر خلجاته كيما يرتد عما قد به يجرح المحبوب. ولعله من الغريب أن نطالع داخل "رسائل أشواق" شخصية الدكتور عباس الجراري الذي ألفناه هادئاً رصينا ذا رزانة يكتب يتملكه الانفعال في رسالة وجهها إلى خطيبته حميدة محذراً "ليست هذه رسالة غرام وإن عبرت عن حب صادق وليست رسالة زجر بالرغم من رائحته التي تشم بين السطور وإذن فليست هذه رسالة حب أو عتاب وإنما هي مجرد استخلاص لخواطر دارت اليوم في نفسي وتدور في كل مرة نسيء فهم ظاهرة أو نخطئ النظر لبعضنا في تسرع ومن غير تريث وأناة"،⁽¹⁾ ويستمر "فقد تمر علينا فترات تتبادل فيها العتاب قد يكون عفيفاً لا يلبث لأن يهدئ ما توتر ويطفئ ما اضطرم وقد يكون عنيفاً يصل إلى أقصى حدود الشدة ولكنه سرعان ما يجد صدراً مفتوحاً يتقبل في رضى وهدوء،⁽²⁾ ولعل ما يدفعه لأن يحتد كما يسطر "وهنا بيت القصيد فما من مرة أتوتر وأغضب إلا وأخرج عن طوري وأتصرف على غير طبيعتي مجرداً من كل عاطفة لا يحدوني غير العقل وقد لا يحدوني غير اللاشعور،"⁽³⁾ ويضيف مغضباً "لا يكون بد من أن أثور وأثور في شدة وعنف، وما أظنك تعجبين لقولي "لا يكون بد" لأنك تعرفين حدة أعصابي وسرعة غضبي،"⁽⁴⁾ فقد حدث موقف منها أزعجه وأثار أعصابه وأحاله حانقاً ينبغي لو استطاع انتقاماً،

(1)- أشواق، ص: 17

(2)- نفسه، ص: 17

(3)- نفسه، ص: 17

(4)- نفسه، ص: 17

ولعل ذلك أمر مستأنس بين زمرة العشاق، بيد أنه رغم هذا الانزعاج نراه لا يصمد وسرعان ما يقر: "والغريب أنه في كل مرة تغلطين لا تلبث أن تقلب الكفة ويغير مجرى الأحداث فأصبح ظالما بعد أن كنت مظلوما ومخطئا في حقدك وقد كنت المخطئة في حقي"⁽¹⁾، ومن اللافت للنظر أن نميط اللثام على هذه الشخصية المستترة لعميد الأدب العربي والذي ظل مجللا بالهدوء باعثا على السكينة والدعة، لكنه في العشق لا يطيق صبرا، فقد كتب إلى من أثارت حفيظته مؤكدا "وكم مرة رجوتك ألا تقابلي الغضب بالغضب والثورة بالثورة حتى لا يضيع حب لا شك في أنه أكثر صمودا منا لما يواجه من مشاكل وخطوب"⁽²⁾. وقد كثر هذا المنحى في الخطابات التي بعثها من باريس خاصة حينما كانت تلقي عليه حبيته باللائمة فيهب للدفاع "كيف يسمح لك قلبك فتقولي إنك لا تهمينني في شيء؟ وأني لا أوفي بالوعد؟ وكيف يترك الشك يتسرب إلى نفسك في صدق ما أقول، بل كيف يفسح المجال لقلبك فيكتب هذه العبارة "وحميدة هل تذكرتها أم تراك شغلت عنها؟".⁽³⁾ وفي رسالة غريبة كتبها كيما يبرء نفسه من التهم التي رمته بها حميدة حينما شعرت أنه انشغل عنها وزهد في هواها :

"سلام عليك ممن تتهمينه بأنه اضطرر إلى سلوك طريق اللوم والعتاب في كل ما تكتبينه له

سلام عليك ممن عدت إلى اتهامه بعدم التفكير فيك

سلام عليك ممن لا تصدقين تكذبه لمثل وضع رأيه فيك

سلام عليك ممن جرؤ قلبك على اتهامه بأنه يستخسر فيك ثمن الطوابع ويبخل عليك بالوقت ويضن بالتفكير

سلام عليك ممن تضايقت وضايقت من في البيت من السؤال عليه

سلام عليك ممن تكفيك منه كلمتان أو ثلاث لكي تنكمشي على نفسك وتكفي عن التطلع إليه

(1) أشواق، ص: 17

(2) نفسه، ص: 17

(3) نفسه، ص: 44

نعم، سلام عليك من ظالم خائن داس العهود على سلم الباخرة في أول خطواته بعيدا عنك

هذا هو رأيك الصريح ولكنك لجأت إلى عبارات ملتوية للإفصاح عنه"⁽¹⁾

ولأنه أحس أن نار الغيرة تدب في أحشائها هي المتميمة به، كتب لها مطمئنا "وثقي حميدتي أني ما احسست زهدا في متع الحياة ولذاتها كما أحسست في باريز... وتأكدي أن المرأة هنا لم تعد في عيني غير رجل في ثوب آخر."⁽²⁾

يفاجئنا الكاتب وقد توصل بخطاب من حبيبته وهو مبعده عنها في باريس أسماه "كتاب القذائف المحرقة والصواريخ الموجهة"،⁽³⁾ فحين قرأه غشته رجة مما ألفاه عليه مشتملا، فكتب "وجدت مسطورا منك فتحتة بلهفة لأجد في كل سطر بل في كل كلمة منه ما يصدم الفؤاد ويدمي القلب،"⁽⁴⁾ ولأنه لا يرتضي الاستسلام فإنه فصل الرد في ست نقاط انسرحت على مدى اثني عشر صفحة، وحين أتم الجواب كتب لها: "لا شك اني أظلت عليك وأنه آن الأوان لأتركك إلى نفسك تحاسبينها على ضوء هذا العرض راجيا منك أن تسامحيني إفراطي في التأنيب،"⁽⁵⁾ وفي هذه الرسالة الطويلة سطر شروطا للتعامل بينهما فاحتدت نبرته وهو يقيدها ويلزمها بالقواعد الواجب اتباعها مستقبلا، مطالبا إياها "بمراسلة مستمرة ومنظمة لا أعني فقط أن تبعثي لي كل أسبوع برسالة أو مجموعة رسائل ولكنني أعني كذلك أن تحوي كتابتك إلى جانب اللوم والعتاب... ردا على ما تضمنه مسطوري من أسئلة وتعليقا على ما جاء فيه من أفكار وصداه في نفسك عامة بالإضافة الى أخبارك وما يدخل في دائرتها"،⁽⁶⁾ ولعل ما أفاض الكأس هو ادعاء حميدة أن خطيبها عباس عهدها "مسامحة خاضعة" لذلك يجيئها مجليا لها ما

(1)- أشواق، ص: 53

(2)- نفسه، ص: 45

(3)- نفسه، ص: 55

(4)- نفسه، ص: 53

(5)- نفسه، ص: 65

(6)- نفسه، ص: 57

عنها خفي " على أنك تعرفين أكثر من غيرك أنني لا أستطيع الحياة مع آلة صماء ليس لها من وظيفة إلا إرجاع الصدى ولا شيء سواه، وتذكرين لا شك أنني كنت أريد منك دائما مناقشة ما أقول حتى في أبسط المسائل كاقترح للذهاب إلى فسحة أو إلى سينما، وكنت تلاحظين توتري كل مرة تبدين فيها استسلاما لما اقترحت. وواضح أنني حين أقول مناقشة لا أقصد مجرد المعارضة، فهذا ضرب من الفوضى لا جدوى منه، وإنما أعني تعليل الرأي قبولا كان أو رفضا،"⁽¹⁾ وهنا تماما نزيح الستار عن شخصية الكاتب المجادلة التي تأبى انصياع الآخر وتميل صوب الإقناع والمناقشة وتبادل الرأي، وتبدو حميدة بسعة صدرها وتحملها لهذا الأخذ والرد أقدر على احتواء من يهواها، لذلك نراه يعترف بين يديها ويسطر اعترافه إقرارا "والحقيقة ولا أريد إخفاءها أنه لولا هذه الشيمة النبيلة التي طبع الله نفسك عليها لما استطعنا أن نقطع بالشعلة كل هذه المرحلة التي هي في رأيي أخطر ما يجتازه المحبون،"⁽²⁾ دون أن ينسى تذكيرها أن الغفران لا يعني الخنوع البتة "وإذا كنت عهدتك هكذا تغفرين الزلات وتصفحين عن الهفوات فإنني لم أعهدك ولا أريد أن أعهدك خاضعة...وما أحسبني أرضى لصديقة العمر أن تكون كذلك."⁽³⁾

في إحدى خطاباته القلقة يكتب إليها: "أضع سؤالاً وأرجو في إلحاح أن تردني عليه وبكامل الدقة والتفصيل، هذا السؤال هو : ما مصدر حبك لي؟ ولعلي بعد إجابة صريحة منك أستطيع أن أطرد الشك الذي يخامرني،"⁽⁴⁾ وبعد أن أجابته لم يهدأ له بال هو المضطرم الحشاييا بل ناقشها وساءلها ثم خط "أما بعد هذه المناقشة التي أخشى أن تكون ضايقتك، أطلعك على بعض أخباري التي لا جديد في مجموعها،"⁽⁵⁾ ويظل متأرجحا بين العتب والصفح، فهذا هو ذا يجعلها محتارة وقد انقطع عن إجابتها مؤكدا

(1)- أشواق، ص: 46

(2)- نفسه، ص: 46

(3)- نفسه، ص: 46

(4)- نفسه، ص: 121

(5)- نفسه، ص: 121

"ولعلك تتساءلين عن تأخري في الرد على ما سبق أن بعثت، أو إن لم يكن هناك تأخر فعن عدم الإسراع"⁽¹⁾. ويعدد الأسباب ولعل أهمها "أما الأول فانتظاري لردك على الخواطر الحائرة التي ضمنتها قطعتي إليك."⁽²⁾ وتعود قصة هذه القطعة إلى لحظة الوداع حين زارته حميدة بباريس ومضت في سبيلها إلى القاهرة، وهي وإن لم ترد في رسائل أشواق فقد وجدت الإشارة إليها في الجزء الأول من ديوانه الشعري حيث قال: ذهبت إلى مطار "أورلي" مساء يوم الثلاثاء 20 فبراير بقصد التعرف على الحقيقية التي كانت ضاعت منك في الطائرة، فتذكرت مساء الجمعة 9 فبراير حين سافرت إلى القاهرة، وعادت إلى ذهني لحظة الوداع فكانت هذه الخواطر التي لم أكن لأرسلها إليك لو أنني توصلت بردود على الخطابات الأربع التي كتبت لك منذ التحقت بالقاهرة" وقد عنونها ب"أناات حائرة"، ومنها:

أذكري كم كان حلوا

ذلك اللقيا السعيد

كيف أكرمنا قدومه

كيف أضحي يوم عيد⁽³⁾

ويوضح الأستاذ محمد حميدة الذي أعد الديوان لقد "كتب هذا النص في باريس حيث كان الجراي في تلك الفترة، وأرسل منها يوم 7 / 3 / 1962،"⁽⁴⁾ ولأنه أنشأ من أجلها هذه القصيدة ملتاغا فقد انتظر ما ستبديه بشأنها من إعجاب لكنها ما فعلت مما حمله على تقييعها وإنكار هذا الصنيع منها، وحينما وافته بالرد أخيرا كتب إليها "وأما رسالتك... التي ضمنتها ردك على القطعة التي حملت إليك قلقي على حبي وحيرتي في شأنه، فأستسمحك في تسجيل خمس نقاط على ما جاء في مجموعها غير محاول

(1)- أشواق، ص: 139

(2)- نفسه، ص: 139

(3)- من ديوان عباس الجراي، ج: 1، ص: 55

(4)- من ديوان عباس الجراي، ج: 1، ص: 53

التدقيق، بعضها لك وبعضها عليك،⁽¹⁾ وهكذا وبعد أن يؤاخذها في ثلاث نقاط على ما ساورها من ريب في مقدار حبه لها نراه ينوه بها لعلتين أما الأولى وهي التي تهمنا يكتب " فنقدك الدقيق للقطعة ونظرتك إليها في روح أدبي ممتاز ربما لا يتيسر لكثير ممن يشتغلون بالأدب.⁽²⁾

لم تكن صيغ اللوم ولا عبارات العتاب غير اضطرار لشؤب الحب الذي تذكى جذوته بين عباس وخطيبته أو عباس وزوجه، لأن حميدة التي ملكت فؤاده كانت تحسن مراوغته ومجادلته حتى يبوح لها ويعترف بل ويبرهن على صدق طويته هو الذي شغف بها حين أنبأها أن "ليس معنى هذا أنني أنكر شقاه وعذابه، وظني أنهما لازمان في المرحلة الأولى منه، أما بعدها فهو نعيم وجنة كله إذا ما تفهم الطرفان ما لكل منهما وما عليه في تعقل ورزانة، وفي غير تسرع واستهتار، حتى تستقيم لهما حياة زوجية سعيدة تكون حقا مرحلة استمرار للحب.⁽³⁾ وهو وإن عدلها في بعض لحظات غضبه فسرعان ما رجاها "سامحيني على إفراطي في تأنيبك"⁽⁴⁾ وذلك ولا ريب سبيل المتيمين.

(1)- أشواق، ص: 141

(2)- نفسه، ص: 142

(3)- نفسه، ص: 27

(4)- نفسه، ص: 71

4 بين كرب الواقعي وبهجة المتخيل

يسبح في تكرياته خيال
ينقله من مجلس اللغو
إلى مجالس قهلا تكون مفعيأة فيها
لواعي البهجة والسرور،
ولكنه يهرب ليجرأ تذكرها
لأن فيها هيف حبيته وخيال "حميأته"⁽¹⁾

عباس الجراري

(1) - أشواق، ص: 20



4. بين كرب الواقعي وبهجة المتنيل

لطالما فتن الدارسون بالبحث عن المستور، وشد ما انجذبوا إلى خفي الأمور، يحذوهم إلى ذلك هاجس العثور على ما ظل مغمورا لسنوات أو شهور، ولعل الخطابات الشخصية للأدباء ككتابات مغمورة بالذاتية جللها الاستتار غدت مرمى لزمره الدارسين كيما يحيطوا علما بشخصية المبدع بعدما اطلعوا على ما به جادت قريحته أو طرح قلمه، ولئن عهدنا الدكتور عباس الجراري كاتباً موسوعي الأفق، موضوعي الطرح، يسبر أغوار المواضيع بنهج تقريبي تعلقه سمة البيان، فإننا نصادفه بعيداً عن مضامير المدارس وقد خلع عنه جبة النقد والتمحيص والمجاهدات في الميادين الأدبية، فإذا به يطلق العنان لأفراس خياله كيما يتعالى عن ما نكأ جراحة من البين، وعلى هذا النحو فإذا أجلت الرسائل واقع حاله حينما كشف عن معاناته وما اعتراه من كرب مسطراً "فنحن سواء على الصعيد العائلي والإداري نعاني عز الأزمة ونواجه الظروف في أخطر لحظاتها، ومن هنا ينبغي أن نتشجع ونثبت ونصمد لهذا الواقع الأليم حتى يمكننا أن نتغلب عليه، ولو لم نحاول ذلك ونستمر فيه فإن الفشل والهزيمة لا محالة سينتصران علينا،"⁽¹⁾ وإذا كان كل همه إبان دراسته بفرنسا هو حينما يستبد به الحنين إلى حميدته، فإنه حين عاد إلى القاهرة سنة 1968 لاستكمال مناقشته للدكتوراه كان وضعه كأستاذ للتعليم العالي مهدداً فكتب لزوجته محبطاً "لم أكن أستبعد أن تتخذ الوزارة والكلية إجراءات صارمة ضدي وكنت أتوقع كل العواقب السيئة، حتى قابلت مساء أمس الأستاذ جعفر الكتاني، فذكر لي مقابله لك في أكدال وأخبرني بما علم

(1)- أشواق، ص: 200

به في شأني من الكلية"⁽¹⁾ وأضاف "وأما عن قضيتي مع الكلية والوزارة فذكر لي أن الحبابي كتب يخبر بتغيبي دون مشروعية عن العمل، وهو إخبار يتبعه انقطاع المرتب والتوقيف والاستغناء"⁽²⁾، فلعله استشعر خطورة الأمر إذا ما شطب عليه من وظيفته وبقي صفر اليدين وهو زوج وأب ذو مسؤولية عائلية، هذا فضلا عما كان يعيشه من ضنك مادي حين صرح لحميدة مراسلا إياها: "اضطرت إلى بعض النقود، فأخذت مبلغ عشرين جنيها من السيد قاسم... على أن آخذ منه ثلاثة وعشرين جنيها في آخر الشهر"⁽³⁾ ولمجابهة هذه النازلة اقترح على زوجته المحامية والعارفة بالقانون وحيثاته أن تكتب تقريرا مفصلا عن وضعيته وتوافي به وزير التعليم العالي لتبسط أمامه ملفه الإداري حيث حثها قائلا: "وهي في الواقع آخر ورقة يمكن أن نلعبها على المستوى الإداري، وإليك البيان الذي ينبغي أن تسيري على هديه"⁽⁴⁾، وإذا به يطلب منها أن تنجز بيانا من خمس عشرة نقطة، بيد أن حميدة تفشل في مقابلة الوزير ولا تتمكن بالتالي من إيجاد حل لهذه المشكلة.

وإذا كانت هذه الرسائل لم تجل مجريات ما حدث فإن الدكتور عباس الجراري فصل القول في ذلك في كتابه "رحيق العمر"، فبعد مكابدة ومقاساة ظل متشبثا بمنصبه ومستحققاته إلى أن سويت وضعيته حيث قال: "صدر قرار وزاري بذلك"⁽⁵⁾ وانتهت محنته آنذاك.

بيد أن هذا الواقع النكد لم يحل بينه وبين أن يفسح لخياله موطئ قدم فقد قاوم وطأة البعاد وهو مازال غضا طري العود حين كتب لتوأم روحه في لمحة رقيقة يسعى بها لتوحيد ما به يشعران حين يطلب منها أن تهيم بخيالها قائلا: "قفي معي لحظة وقد دجا الليل وسكنت كل حركة ولم يعد يسمع غير صفير بعض الحشرات، لعله نجوى

(1)- أشواق، ص: 299

(2)- نفسه، ص: 200

(3)- نفسه، ص: 187

(4)- نفسه، ص: 200

(5)- رحيق العمر، ص: 127

فؤاد أو نداء محروم غابت عنه محبوبته فليس له غير هذا الصوت المتقطع يعبر عن آلامه، ولا غير هذا الليل الدامي يبثه شكواه،⁽¹⁾ وبكلمات شجية تنفذ إلى تضاعيف مهجتها يضيف "قفي معي وقفي غير بعيدة عني واقتربي كثيرا لتنصتي معي إلى ما تحدثني به نفسي في غمرة هذا الهدوء الساحر، فليس غير قلبين ملتصقين يستطيعان استماعا لمثل هذا الحديث الرقيق الحلو أحيانا العنيف المر أحيانا أخرى، ولكنه لذيذ ممتع في كلتا الحالتين." ⁽²⁾ لذلك سعى إلى الركون إلى ما يضيفي بهجة على النفس ويطريها ويزيح عنها نوازع الكرب، لذلك نراه يرسل لزوجته ما يدخل الحبور عليها حين يكتب "وهذه وردة من وروده خالية من كل شوك، دليل على طهره وصفائه، ومع أنني أرغمتها على الذبول حتى يتسع لها ظرف الرسالة فقد بقيت كما ترين محتفظة بكثير من رائحتها ولونها ومائها، وهي جميعا مقومات جمالها وحياتها." ⁽³⁾ وتغدو الوسائط قصده لأنها تمنحه هنيهات لفك حصار الغربة أو الحاجة أو الألم، ولعل الهاتف يتيح له استعذاب صوب من إليها يحن ومن نبراتها يستحضر طيفها وبهي قسماتها، يكتب "عدت من مركز البريد حيث ارتويت من حديثك الممتع العذب، وما أظماً ما أكون له يطفئ نارا متأججة في صدري ويشفي غلة في نفسي ما كان لها أن تهمد أو تهدأ لولا كلمات حلوة رقيقة تبعثينها من وراء حجاب عبر أجواء صافية تعمل، في صدق وأمانة قل أن يتهاياً لإنسان، على محو المسافات بين الأحبة وتهيبى الوصل بينهم وقد تباعدوا مضطربين أو مكروهين،" ⁽⁴⁾ ورغم النأي يسترق الحبيبان مواعدا خلصة عن أعين الرقباء والعدال حين ينقلان أشواقهما عبر حرارة الصوت لا برودة الصحائف لذلك نراه يسطر "حميدتي، لقد أطلت عليك بهذا الهديان، وعسى ألا يكون ضايقك، وإلى غد حيث نلتقي على أسلاك الهاتف السعيد،" ⁽⁵⁾ ولئن باتت اللغة تسعفه في رسم آماله فيبدو أسلوب التمني

(1) - أشواق : 19

(2) - نفسه، ص: 19

(3) - نفسه، ص: 28

(4) - نفسه، ص: 25

(5) - نفسه، ص: 28

مفسحاً له هذا المجال حين هفا إلى مهجته " وليتك معي، إذن لو سدتك كتفي وأعطيتك ما كنت تطلين وأكثر منه مرات ومرات،"⁽¹⁾ وحين وضعت نظارتها الجديدة كتب لها " ورجائي أن تبعثي لي بصورة أستطيع من خلالها أن أتحقق من لطف عويناتك... وليتك معي فأمسح لك زجاجاتها."⁽²⁾

وكما توصل منها بصور فكتب " ولا أخفيك أن الصور التي أرسلت، بعثت في نفسي ذكريات أيام البيضاء الحلوة،"⁽³⁾ فكذاك بعث إليها بصورتين له وهو يجوب شوارع باريس وحيدا واطر على ظهرها "نظرة يائسة وذهن شارد"، "خطوات سريعة وأعصاب متوترة،"⁽⁴⁾ و أردفها باثنتين وهو أكثر تفاؤلا وخط عليها "تطلع إلى لقياء تلك التي ملكت فكره وقلبه"، "وحيد في الخضم الصاخب، ولكن البسمة لا تفارقه، فسيلقاك بعد أيام."⁽⁵⁾

ويبدو الحلم فعلا متعاليا غير واقعي يأخذ الروح في رحلة قد تجلو عنها ضناها، يسطر الكاتب لزوجته في إحدى خطابات سنة 1965: "حميدتي، صباح الخير، لست أدري إذا كنت رأيت شيئا أثناء نومك أم لا، أما أنا فلا تستغربي فإن الله يرزق من لا حيلة له حتى يتعجب ذو الحيلة، فقد عشت أحلى حلم يمكن لإنسان أن يتصوره، حيث كنت بجانبني وكنا نمرح كأسعد ما يكون زوجان."⁽⁶⁾

في غفلة من مكابدة أو معاناة تسللت هذه الخطابات مُزورة عن وجع الواقع لتشير دلالات البهجة أو علامات الحبور، ولو من باب التخيل والترجي والأمنيات.

(1)- نفسه، ص: 44

(2)- نفسه، ص: 47

(3)- نفسه، ص: 48

(4)- نفسه، ص: 38

(5)- نفسه، ص: 155

(6)- أشواق، ص: 172

5 بين متعة السرمد وهدف الترسل

لست للإفصاح عن لعب
في حاجة إلى رسائل وخصابات
ولم أكن في يوم منكم عرفتاً معلقاً
أملني عليها لبلوغ مرامي فيه⁽¹⁾

عباس الجراري

(1) - أشواق، ص: 17



5. بين متعة السرد ولفق الترسل

يمتلك الترسل كأسلوب كتابة ميزات تسمه تميزه عما عداه من أنماط التعبير الأخرى، ولئن غدا هذا اللون يمت بصلة إلى مخاطبة القاصي البعيد عن العيان بما يخطه اليراع من بيان، فإن خطابات أشواق لا تلبث أن تمنحنا ذاتها سافرة من غير دثار يكتسحها الترسل ويكتنفها السرد في ذات الآن. تكاد لفظة الترسل واشتقاقاتها أن تلقي بظلالها على هذه النصوص، ولعل فعل الكتابة هو الذي يبقيا حية تنمو بالبعث والإرسال، فعلى ظهر بطاقة صغيرة كتب الدكتور عباس الجراري إلى خطيبته حال وصوله باريس " لا تقلقي فسأكتب لك طويلا بعد"⁽¹⁾ ولعل صيغة الاستقبال المقتضبة تلك هي ما حذت به إلى تدبيج رسالة مسهبة لاحقا جاء فيها : "فقد بعثت لك رسالة مطولة فور قولي "لا تقلقي فسأكتب لك طويلا بعد"، أجملت فيها ما قطعت من مراحل مرهقة كانت أهمها مرحلة إيجاد السكن، وحدثتك فيها بعض الشيء عما أحسه في زحمة باريس وصارحتك بأن أحدا لن تيسر له الحياة في هذا الخضم الصاخب ما لم يكن متزوجا أو شبيها بالمتزوج ومالم يكن ذا مال." ⁽²⁾ وفي ما تلا ذلك نلف الكاتب وقد وافى حميدته بالعنوان يستحثها على الكتابة ويطلبها "بمراسلة مستمرة ومنظمة" لا أعني فقط أن تبعثي لي كل أسبوع برسالة أو مجموعة رسائل ولكنني أعني كذلك أن تحوي كتابتك إلى جانب اللوم والعتاب...ردا على ما تضمنه مسطوري من أسئلة وتعليقا على ما جاء فيه من أفكار وصداه في نفسك عامة بالإضافة إلى أخبارك وما يدخل في دائرتها،⁽³⁾ بل أكثر من هذا يضعها في مأزق حين يطوقها بغير قليل من الأسئلة

(1)- أشواق، ص: 32 - 43

(2)- نفسه، ص: 43

(3)- نفسه، ص: 57

ويلزمها بالجواب، مثلما فعل حين كتب إليها "أقول قبل أن أودعك أود لو أسألك فيما تصنعين بدراستك، هل خصصت لها بعض الوقت، وهل وصلت فيها إلى بعض النتائج كأنهاء جزء من تلك المقررات؟ حدثيني عن كل ذلك وعن اتصالاتك بزميلاتك في القاهرة وما أخبرتك به في موضوع الدراسة... وكل ما له صلة قريبة أو بعيدة بشؤونك العامة والخاصة⁽¹⁾. وإذا ما تهاونت في الإجابة وشد ما تفعل ما عذرها ولا تغاضى بل أصر إصرارا على معرفة ما طلب "المهم أني لم أجد في رسالتك هذه ما لاحظت عليك مما يجعلني متمسكا بما قلت في رسالتي السابقة، لذا أنتظر منك ردا بل ردودا وفي أسرع وقت"⁽²⁾ وحين لا يقتنع بما تضمنته الردود ينبري متسلحا بترسله كي يشرح ويبين "أود في هذه الرسالة التي أجب بها على ردك المبعوث عشية يوم السبت الماضي والتي لن تكون طويلة وما أظن رسائلي لك ستطول بعد اليوم أن أعبر لك عن الشعور الذي خالجنى بعد قراءته والذي يتلخص في خمسة أشياء شكر، تهنئة، تنبيه، سخرية وتأنيب"⁽³⁾ وهو وإن وعدا بأنه لن يطيل، فقد انسرح هذا الخطاب على مدى أربع عشرة صفحة بالتمام دون أن يكل الكاتب أو يمل، بل لطالما ردد "ولو أردت أن أفصل لك الحديث لاضطرت إلى طول مفرط قد يخرج بكتابتي من حيز الرسالة إلى غيره مما لست بصدده، ولكني سأحاول الحصر الاختصار قدر الإمكان"⁽⁴⁾ أو "لن أطيل عليك وإن كنت أود أن أحدثك عن أشياء كثيرة قد تساعدك على تصور الجو الذي أعيش فيه، ومع ذلك فلا بأس عندي أن أجمل لك القول في بضع كلمات تستطيعين من خلالها أن تتخيلي هذا الجو"⁽⁵⁾ ورغم الإجمال الذي وعد به فلم يختم رسالته تلك إلا وقد استوفى أربع صفحات.

(1)- أشواق، ص: 51

(2)- نفسه، ص: 71

(3) نفسه، ص: 73

(4)- نفسه، ص: 34

(5)- نفسه، ص: 36

يستهل الكاتب خطابه عادة بإبداء ما يملكه من اشتياق إلى زوجه "لست أدري كيف أعبرك عن الإحساس الذي تملكني حين سلمتني البوابة رسالتك، وما أظنك تصورين اللفظة التي كنت أفتح بها مسطورك... ولو كنت تنظرين إلي وأنا أقرأ ما كتبت لعلمت مبلغ شوقي إليك وقلقي عليك"،⁽¹⁾ ثم يعرج على الاطمئنان على حالها وحال الأبناء في ما تلا ذلك، فقد كتب لها حين بعثت له نتيجة ألوف "وقد تركت نتيجة ألوف في نفسي أبلغ الأثر وأعماقه، وأسفت على عدم وجودي إلى جانبها لأطبع على جبينها قبلة الرضى وأدعو لها بالتوفيق والنجاح فيما ينتظرها من مراحل غير قصيرة ولا يسيرة"⁽²⁾، وفي موطن آخر كتب "وقد أغراني بك وبتقبيل ألوف حديثك عن الحمام الذي ذهبت إليه في البيضاء، وإن كنت لا أخفيك ضيقي برد ألوف على جدتها... والسبب أنني لا أريد أن تنشأ وفي نفسها عقدة خاصة وأنها بنت،"⁽³⁾ إذ بات التيقن من سلامة زوجه وبنيه هاجسا أرقه فضمنه خطابه قائلا: "وقد تألمت كثيرا لما أصاب علا والحمد لله أن الطبيب طمأن على حالها."⁽⁴⁾ وحين بعثت له صورتين ملونتين كتب لها "وقد أعجبت بالصورتين لروعة جمالهما وصدق تعبيرهما، ولولا أنك حرمتني من رؤية جمال نظراتك وجاذبيتها في الصورة التي تمسكين فيها الصغيرتين لأنك كنت تنظرين إلي علا لكبرت هذه الصورة."⁽⁵⁾

(1)- أشواق، ص: 43

(2)- نفسه، ص: 229

(3)- نفسه، ص 222

(4)- نفسه، ص: 222

(5)- نفسه، ص: 217



ثم لا يلبث أن ينتقل ممتطيا صهوة السرد كي يدنيها من أخباره والأحداث التي بها مر، فقد كتب لها بعد أن غادر إلى فرنسا "فأراك تتطلعين إلى معرفة أخباري والأحوال التي تقلبت علي أو تقلبت فيها منذ اللحظة التي ابتعدت فيها الباخرة عن الرصيف، ولم أعد أميز بينك وبين غيرك من المودعين،"⁽¹⁾ ويسترسل "زرت ظهر أمس إحدى دور الطبع والنشر في ضواحي باريس وهي من أكبر وأحدث الدور التي تخرج من ضمن ما تخرج مجلة Marie Claire، ومساء أمس كنت مستدعى لمناقشة جمعت كثيرا من الطلاب حول مائدة مستديرة، وقد اصطدمت في كثير من النقط مع بعض المغاربة الذين شاركوا في هذا الاجتماع الذي كان يدور حول مسائل سياسية واقتصادية."⁽²⁾ وفي مكاتباته الثرة من باريس أسهب في موافاتها بدقائق الأمور سواء ما تعلق منها بسكنه أو

(1)- أشواق، ص: 33 - 34

(2)- نفسه، ص: 145

تسجيله بالجامعة أو أبحاثه أو مرضه حتى كادت أن ترى معه ذلك مرأى العين. وحين زار إسبانيا ووصل إلى مدينة سانتندر بعث لها رسالة قال فيها: "أكتب لك هذه الرسالة التي حاولت فيها أن أجعلك تعيشين معي مختلف المراحل التي قطعت"⁽¹⁾، ويسطر رسالة يضمنها كل أوقات الانطلاق والوصول وأماكن الإيواء ووسائل النقل وما أعجبه وما منه نفر. ولعل رسائله الطوال خاصة تلك التي جعلها مجموعة خطابات كانت أقدر على تقديم نصوص تكاد تكون أشبه باليوميات التي تستوعب كل الأحداث التي مرت منتهجا أسلوب الحكيم والربط بين الوقائع واستحضار الزمان وتحديد المكان. فقد بدأ رسالته المؤرخة ب 19 دجنبر 1968 في الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالقاهرة حين كتب "ففي أخبار الثامنة والنصف، أعلنت دار الإفتاء أنه لم تثبت رؤية الهلال وأن العيد سيكون يوم السبت... وقبل أن أطفئ المصباح الصغير لأنام فتحت الراديو من باب الفضول إذا به يعلن بيانا آخر من دار الإفتاء يخبر بأنه ثبتت رؤية الهلال... وبأن العيد في ج.م.ع سيكون غدا الجمعة... حميدتي سألقاك غدا باستعداد أكثر لأجدد لك التهنية؟"⁽²⁾ وصباح الجمعة بعد أن هناها بالعيد استرسل على نفس الرسالة "في هذه اللحظات فتحت الراديو فوجدته ينقل صلاة العيد من مسجد الحسين... حميدتي سأقوم للفصل الذي أنا بصدد إنهائه وهو الأول من الباب الأخير،"⁽³⁾ وعند حوالي منتصف الليل من مساء الجمعة كتب "اغتنمت فترة خروجي في الزوال فأديت ما يلزمنا من زكاة... وفي فترة الغذاء تلقيت مكالمات تليفونية للتهنية... أما في العشي فاتصل بي الأستاذ جعفر وذهبنا لزيارة الأستاذ ابن شريفة"⁽⁴⁾ وفي منتصف الليل من يوم السبت ثاني أيام العيد سطر "عزيزتي حميدة الآن فقط انتهيت من الفصل الأول من آخر أبواب الرسالة،"⁽⁵⁾ وفي يوم الثلاثاء الموالي أثبت في نفس الرسالة جملة من الإنجازات التي

(1)- أشواق، ص: 178

(2)- نفسه، ص: 219

(3)- نفسه، ص: 219

(4)- نفسه، ص: 220

(5)- أشواق، ص: 222

قام بها وكتب "حببتي قد شرعت منذ الظهر في الفصل الثالث من الباب الأخير"⁽¹⁾ وأردف في الجمعة الموالية بعد إيراده للعديد من الأخبار "حببتي أمس ذهبت إلى السفارة... لأراجع بعض المصادر التي توجد بمكبتها،"⁽²⁾ ويمضي في تدوين وتوثيق وسرد كل صغيرة وكبيرة على امتداد أكثر من أسبوع من الجمعة 19 دجنبر إلى السبت 28 دجنبر 1968 ثم يبعث رسالته وقد حوت شطرا من حياته معتمدا على ما أتاحه له أسلوب السرد من قدرة على استيعاب التفاصيل ورفضها حذاء بعضها كيما تقدر حميدة على تمثل ما يحياه شريك عمرها، ولعل ذلك كان دأب الكاتب ودينه في كل هذه الخطابات حتى وإن لم تكن بالغة الطول.

إذا كان الترسل خصيصة لازمة لكتابة الخطابات، والسرد أسلوب للحكي وإيراد الأخبار، فإن ورود الرسائل مستندة إلى هذا السبيل لم يحد بها عن واقعيتها وما جنح بها صوب الخيال ولا اختلاق الأحداث على اعتبار أن الرسائل كتابات ذاتية وهي أصدق النصوص الشخصية وأبلغها أمانة كونها لم تدبج من أجل النشر وإنما حبرت لتنتقل بين اثنين ما ظنا أنه سيقدر لها الذبوع.

(1) نفسه، ص: 222

(2) - نفسه، ص: 223

6. بين المنعى الخاتي والسمت التوثيقي

للتغالب بالكتابة أمانة معروفة

هي الرسائل التي تشكل في الألب العالمية عامة

- والألب العربي خاصة - نملاً متميزاً

بأساليبه ومناجه وأغراضه، مما يتضمنه فن الترسل⁽¹⁾.

عباس الجراري

(1) - كلمات تقديم، ج: 1، ص: 173



6. بين المنفى الذاتي والسمت التوثيقي

لأن الترسل ارتبط بمبارحة المكان أو مغادرة الخلان فإن الدكتور عباس الجراري خبر الاثنين، وبمبارحته لموطنه انتقل إلى بلدان متباينة وعاشر أناسا غير متضارعين، ولاغرو أن هذا السمت نحاه صوب التدقيق والملاحظة وإبداء الرأي. فحينما نقرأ هذه الخطابات لانلبث أن ندرك أنها توثق لمرحلة بعينها من سيرة كاتبها، بيد أن هذا التوثيق يتجاوز الخصوصيات الذاتية حين يلتبس مع معطيات ذات دلالة سياسية أو تاريخية، وسنجلي ذلك على النحو التالي :

1- تفتتح هذه الرسائل لتتحو بنا صوب زمن بذاته وهو تحديدا سنة 1961 حين انتقل الدكتور عباس الجراري إلى جامعة السوربون بباريس لمتابعة دراساته العليا، حيث يسطر إحدى رسائله من هناك "وقد كدت أن أنسى أن أحدثك عن شيء لا شك أنه يشغل بالك وهو تعسف البوليس وتنكيله وبالأفارقة الشماليين خاصة وقد صادف وصولي إلى باريز يوم الأربعاء فاتح نوفمبر الذي هو يوم الثورة الجزائرية،⁽¹⁾ فقد وصل الكاتب في فترة اضطراب نتيجة اضطهاد الشرطة الفرنسية لذوي الأصول الإفريقية، ويورد حكاية في رسالة أخرى قائلا : "ذات مساء بينما كنت في طريقي إلى المطعم قصد تناول العشاء وكان الطريق ضيقا إذا بي أجدني وسط مظاهرة ضخمة يطاردها البوليس ويحاول لم الفارين قصد سياقة الجميع إلى مراكز حيث ينكل بهم، فما كان مني بعد حيرة واضطراب إلا أن عدت أدراجي مخترقا صفوف المتظاهرين الهارين وأطلقت ساقلي للريح ثم دخلت في دروب ضيقة مظلمة إلى أن وصلت إلى المطعم ومن أحد شبابيكه وحين استرجعت نفسي بعد أن جلست إلى المائدة، رأيت

(1)- أشواق، ص: 35

قوات هائلة من البوليس تقود المتظاهرين بعد أن لمت شتاتهم. فحمدت الله وأجزلت له الشكر على عنايته ورعايته،"⁽¹⁾ وأعقب ذلك هلع كبير حيث سطر " فقد قرأت في جرائد المساء أن كثيرا من حوادث الإرهاب قد وقعت في العاصمة وأن البوليس كان يخرج الناس من قاعات السينما ثم يفتشها لأنه أخبر بأن الإرهابيين قد وضعوا قنابل فيها في كثير من الأماكن العامة".⁽²⁾ ومن شأن ذلك أن يقربنا من تمثل هذا البلد للحريات ومدى احترامه للأجانب، وكذا يوضح لنا معاناة المهاجرين الأفارقة من الاضطهاد والجور دون أن نتغاضى عن الإرهاب كمفهوم تخريبي نسب إلى هؤلاء كي يكون سبيلا للفتك بهم.

2- وينحو بنا خطاب آخر منحى مغايرا، فقد سطر الكاتب: "وفي نفس الأسبوع ذهبت إلى المركز الرئيسي للبوليس بقصد طلب بطاقة الإقامة، وفي أثناء الإجراءات وحين وصلت إلى موظفة تتلخص مهمتها في بحث الشخصي، وبعد كثير من الاسئلة الدقيقة التي أحسست إثرها بملل وضيق، نظرت إلي ورفعت حواجبها لتقول: "لن نسمح لك بالإقامة في فرنسا لأننا لا نتصور ذلك" وبعد مناقشة خانقة، وإظهارى لأوراق وتوصيات من وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية وسفارتها بالرباط، ذهبت تستشير رئيسها الذي حضر بنفسه وألقى نظرة استكشاف علي ثم أشار عليها بالسماح لي بثلاثة أشهر ينظر بعدها في أمري."⁽³⁾ ويستنتج متحسرا "هذا بعض ما قد يتعرض له شباب الشمال الافريقي في باريز التي أصبحت من هذه الناحية جحيما لا يطاق."⁽⁴⁾ ولعل هذا يدل على التمييز العنصري المتفشي ساعتهما والنظرة الدونية إلى الآخر والتي تنجلي انطلاقا من المعاملة المهينة والأسئلة المستفزة وكذا عبارة "لن نسمح لك بالإقامة في فرنسا لأننا لا نتصور ذلك".

(1)- أشواق، ص: 49

(2)- نفسه، ص: 36

(3)- نفسه، ص: 49

(4)- نفسه، ص: 49

3- تكشف رسالة أخرى عن الوضع الأمني المتردي الذي هيمن على باريس ساعتها حين انتشرت فيها المظاهرات والانفجارات والصخب والاعتقالات، ويورد الكاتب خبر إحدى التفجيرات في رسالة له إلى حميدة والتي تضررت منها غرفته موضحاً "ولست أدري إذا كنت سمعت خبر القبلة التي وضعها الجيش السري ببيت الطلاب المغاربة مساء الاثنين الماضي. ولولا أن البواب اتصل بنائب المدير بعد أن اكتشفها صدفة قرب باب السلالم، لولا أن هذا النائب أخرجها إلى وسط الشارع لأتت على البيت ومن فيه... فقد تحطم زجاج نافذة غرفتي ووصلتني منه أطراف وأنا على السرير أقرأ في المجلة. أما عن الصوت الذي أحدثه الانفجار والهزة العنيفة التي أحدثتها فلم أكن أتصورها... ويكفي أن تتصوري قوتها وتعرفي أنها بالرغم من انفجارها في الشارع أصابت واجهة عمارة بيتنا وواجهة ست عمارات حوالينا⁽¹⁾.

4- لم تكن أحوال الطلاب بفرنسا بمنأى عن الشنآن والصراعات الإيديولوجية والجدل السياسي، حيث أخبر الكاتب حميدته في إحدى رسائله "أما عن الاجتماعات مع الشرقيين فقد حضرت أول اجتماع واصطدمت مع الطلاب المغاربة الذين شاركوا فيه بشأن الأنظمة السياسية وما يصلح منها للدول العربية وبشأن مشكلة الكويت والعراق. والواقع أنني استنتجت من هذا الاجتماع ومن غيره أن الطلاب في باريس إنما هم آلات مسجلة من طرف هذا الحزب أو ذاك. أما شيء اسمه "التفكير الحر" فلا وجود له⁽²⁾ وتلك هي الطامة الكبرى ولا ريب حين ينأى الشباب المثقف عن حرية التفكير ويغدو مدعنا وخاضعا ومنقادا بلا إرادة.

بيد أن هذه المكاتبات أجلت لنا بعدا آخر وسمته الذاتية، حين تمت إلى كاتب الرسائل بصلة فبعد أن عهدناه عاشقا متيما وزوجا وفيا وأبا رؤوما وطالبا مجدا وباحثا محنكا وأستاذا ذا مزايا، ستمنحنا هذه المراسلات امتلاكه لمواهب ما كنا نعهدنا فيه قط، حيث تكشف لنا إحدى رسائله وهو بباريس عن قيامه بالتمثيل في مسرحية مع

(1)- أشواق، ص: 131

(2)- نفسه، ص: 152 - 153

نادي الطلاب المغاربة، فقد كتب لحميدة : "فزادهم ذلك تمسكا بي وإلحاحا في أن يكون لي دور في الرواية قبلته بعد تردد شديد، ذلك هو دور والد العريس الذي تمرنت عليه مرة واحدة قبل رفع الستار ببضع دقائق، والرواية عبارة عن ثلاث فصول، في الأول تظهر العروس وأمها ويدق الباب فتدخل أم العريس بقصد الخطبة. وفي الثاني يجتمع والد العروس ووالد العريس بحضور عدلين لإتمام العقد. وفي الثالث العروس جالسة وبجانبها أمها والنجافة واقفة تعشق. والملاحظ أن الفتيات لم يشاركن في التمثيل وأن أدوارهن قام بها الذكور."⁽¹⁾ لعل ما أثار انتباهي في هذا الأمر أكثر من غيره، ليس هو امتلاك الكاتبة لموهبة التمثيل حيث لم يهدر وقتا طويلا في حفظ دوره بل راجعه مرة واحدة واقتحم الخشبة وهذا ليس بالأمر الغريب فقد سبق للكاتب أن ذكر "قدمت... عام 1950 مسرحية مثلتها فرقة رباطية هاوية"⁽²⁾ لكن الذي شدني إنما هو قوله : "والملاحظ أن الفتيات لم يشاركن في التمثيل وأن أدوارهن قام بها الذكور"⁽³⁾، فنحن نتحدث عن طلبة مغاربة بفرنسا عام 1961، ورغم ما قد يبدو من تأثر بالعالم الغربي المتحرر والذي كتب عنه الدكتور عباس الجراري لزوجته حميدة مؤكدا أن "الحربة بلغت في هذا البلد مداها وما أظنها وصلت في غيره من البلدان هذا الحد الذي يجعل الإنسان يرى القبلات على قارعة الطريق، وفي أبهاء المعاهد والكليات وداخل المطاعم والمقاهي وفي عربات المترو والحافلات، أينما ذهبت وجدت أجساما ملتصقة وقلوبا متناجية ونظرات ملتهبة وثغورا متعطشة، والأغرب من هذا أن أحدا لا يفكر في إزعاج هذا الحال الجميل ولو حتى بنظرة بريئة يلقيها على هؤلاء،"⁽⁴⁾ إلا أننا نلفي هؤلاء الفتية لازل يغمرهم التحفظ وتهيمن عليهم تقاليد بلدهم الأم، ومن ثم ربما لم يستسيغوا أن تقتحم الفتاة / المرأة / العورة مجال التمثيل وتصعد على الخشبة، ولعل هذا الصنيع

(1)- أشواق، ص: 125

(2)- رحيق العمر، 76

(3)- أشواق، ص: 125

(4)- نفسه، ص: 44-45

هو ما بات مألوفاً لدى الفرق التمثيلية بالمغرب ساعتها، حيث ما كانت النساء تجرأن على ولوج هذا المضممار، ومن ثم فإن أدوارهن ظل يتقمصها الذكور.

ولعل دقة الملاحظة تلك، خاصة اتسم بها الدكتور عباس الجراري فأثناء زيارة أخيه محمد له في باريس كتب لحميدة مخبراً "وكان أهم مازنائه هو برج إيفل الذي تسلقناه على الشكل الذي ترينه في الصورة... وقد سعدنا راجلين حتى الدور الثاني، وكنت عند النزول أعد الدرجات فإذا عددها ⁽¹⁾ 712 "فأي دقة بعد هذا؟ ففي كل كتاباته سيما تلك التي يدبجها بعد أن يتاح له الالتقاء بأناس مختلفي الأرومة والدين والنسب، يفلح إلى حد بعيد في تمثيل ومعاينة ما يصادفه وهو يركن إلى المعاينة والمقارنة والنقد مثلما نهج في رسائله الثاوية في "رحلة نسيم البوسفور"، وهو ذات السبيل الذي أسفرت عنه نظراته في هذه الخطابات الندية.

(1)- أشواق، ص: 50



7. الرسائل ومعمارية التشكل

لهرشا، تجيب الاخبار من كل مكان⁽¹⁾

(1) الأحاجي الشعبية المغربية، مجالاتها وبنياتها ووظائفها ومقارناتها وخصائصها، أحمد زيادي، منشورات وزارة الثقافة 2007، ص: 182



7. الرسائل ومعمارية التشكل

تؤسس الرسالة فرادتها كنص أدبي انطلاقاً من معمارها ذي المرايا والذي أفرد له القدماء قواعد سيجت حياضه ومن ثم ظلت المكاتبات تنوي طوعاً تحت ضوابط تشكل هذا النوع

لعل نظرة فاحصة لأضمومة رسائل الدكتور عباس الجراري ستمكنا ولا ريب من الدنو من هذه الخطابات ذات السمات الذاتية كيما نجلي سماتها الشكلية التي تجلجها والتي بدت على هذا النحو :

1- لعل أول ما يجب مراعاته داخل هذه الخطابات هو اختلاف الأشكال التي وردت بها، فمن الجلي أن نميز بين خطابات أتت مكتوبة بلغة عربية فصيحة من اليمين إلى اليسار على صفحات بيضاء أو مسطرة ووصل عددها إلى إحدى وخمسين رسالة، تباينت من حيث امتدادها الأفقي على جغرافية الصفحة، حيث أتت بعض الصفحات رشيقة من حيث تتالي الأسطر وترتيبها في احترام فائق للهوامش الجانبي والفوقية والسفلية، بينما غشي بعضها تراحم للأسطر وكتابة في الهوامش وإضافة كلمات ربما نسيت في البدء، وعلى مستوى الامتداد وتراوح طولها من صفحة فصفحتين فأربعة أو ستة وربما سبعة وقد تصل إلى تسعة أو عشرة، وقد تبلغ في أقصاها أربع عشرة صفحة بالتمام.

2- بدت زمرة من الرسائل مكتوبة على حامل غير الورقة المنسرحة، شكلته بطاقات بريدية تضمنت خطابات قصيرة أو قد تكون طويلة تنسحب على ظهر البطاقة بشكل أفقي أو مائل وبلغت تبعاً لعدد البطائق إلى 28 رسالة أو رسالة (بالتصغير).

3- سطرت رسائل أخرى تشكلت من جملتين أو ثلاث على متن صور شخصية
تهدم كاتب الرسالة ولم تعد الخمسة.

4- ظهرت الأظرفة التي حملت اسم المرسل من جهة واسم المتلقي من ثاني
الجهات باللغة العربية حيناً والحروف الفرنسية طورا آخر، وبدت مؤرخة
ومختومة تحمل طابع بريدية حسب البلد الذي منه سطرت، تحمل عنواني
المرسلين كليهما على الوجه الأمامي والخلفي للظرف بالنظر إلى مكان
إقامتهما ساعتها.

ولأن الرسائل مبعوثات من ذات مرسل إلى ذات متقبلة فإن خطابات أشواق لم
تسل قط عن إجلاء هذين الركنين اللذين تتنامى بينهما المكاتبات بالإرسال والتلقي
وبالمبادرة بالكتابة "منذ ما يقرب من أسبوعين بعثت لك رسالة أو جزت لك فيها معظم
ما كان عندي"⁽¹⁾ و"عدت إلى غرفتي لأكتب لك هذه الرسالة"⁽²⁾ أو الرد على الوارد،
"أود في هذه الرسالة التي أجيب بها على ردك المبعوث عشية يوم السبت الماضي والتي
لن تكون طويلة... أن أعبر لك عن الشعور الذي خالجنى بعد قراءته"⁽³⁾ و"صباح هذا
اليوم وإثر عودتي من البريد حيث ذهبت لإرسال ردي على كتابك المؤرخ في تاسع هذا
الشهر."⁽⁴⁾

يبدو المتلقي الذي يكاد يكون واحدا في هذه المكاتبات وهو يلبس في كل مرة
لبوسا مختلفة، ورغم أنه يظهر على ظهر المظروف باسم موحد هو عادة الأنسة حميدة
الصائغ أو egh Mme – Hamida essa أو Mlle.

(1)- أشواق، ص: 147

(2)- نفسه، ص: 178

(3)- نفسه، ص: 71

(4)- نفسه، ص: 101

وفي المتن لا تلبث أن تتوج هامات الرسائل والبطائق سيان فهي: حميدتي⁽¹⁾ (34) وعزيزتي حميدة⁽²⁾ (21) وزوجتي الحبيبة⁽³⁾ (6) وحميدتي الحبيبة⁽⁴⁾ (3) وعزيزتي⁽⁵⁾ (2) وحميدتي العزيزة⁽⁶⁾ (1) لقد جللت حميدة بيهاتها كل رسائل الكاتب فباتت الملهمة التي تهبه أس الكلام، من وحيها دبح العبارات ولأجلها سطر كل الخطابات ولأجل هذا قرن اسمها بياء الملكية كي يحس أنها له وليست لأحد سواه، وتكاد هذه الياء أن تلتصق بخاصرة أسمائها الأخر جميعا.

وإذا كانت حميدة قد استحوذت على كل الخطابات، فقد ظهر متقبلون آخر شاركوها البطاقات البريدية حين وجهت إليهم باسمهم والصفة، وهؤلاء مثلهم الأبناء الذين اجلوا العاطفة الأبوية التي تضطرم في خافق الكاتب الذي لا يبارحون فكره على الإطلاق، وغالبا ما يوجه لهم الخطاب كمرسل إليهم بهذه النعوت، فقد دعا ريم ب"ابنتي العزيزة"⁽⁷⁾ و"عزيزتي ريم"⁽⁸⁾ وكتب لعلا وألوف في بطاقتين منفصلتين "ابنتي الحبيبة"⁽⁹⁾.

وإذا كان المتقبل يتربع على فاتحة الخطاب فإن المرسل يذيله كي يعقد نواصيه ويرقشه بميسمه، ولعلنا أن نقر أن جل المكاتبات أتت ممهورة، وكأن صاحبها بختمه يوقع على صك نسبتها إليه.

(1)- أشواق، صص: 31 33 36 43 53 71 73 75 91 99 101 106 115 117 123 129 135 139 -

145 151 157 163 169 171 172 186 197 -

(2)- نفسه، صص: 15 17 19 25 93 165 180 189 191 193 197 209 مرتان 211 213 215 -

219 220 228 229 242 249 253 259 261 -

(3)- نفسه، صص: 195 203 221 237 239 242 243 245 248 -

(4)- نفسه، صص: 135 208 209 249 258 266 -

(5)- نفسه، صص: 195 208 233 253 255 262 -

(6)- نفسه، صص: 203 209 211 -

(7)- نفسه، صص: 251 -

(8)- نفسه، صص: 260 -

(9)- نفسه، صص: 252 - 256 -

ذيلت الخطابات بأشكال متباينة تراوحت بين ذكر الاسم مفرداً أو مقروناً بالنسب وبين التوقيع فقط أو الجمع بين الاسم والتوقيع حيث بدت على هذه الشاكلة: عباس⁽¹⁾ (40) عباس والتوقيع⁽²⁾ (15) التوقيع فقط⁽³⁾ (15) أبو ألوف⁽⁴⁾ (3) بابا⁽⁵⁾ (3) أبوك⁽⁶⁾ (2) عباس عبد الله الجراري والتوقيع⁽⁷⁾ (1). ويبدو أنه مثلما أثر أن يوقع باسمه العلم حلاً له أن تكون بطائقه لأبنائه ممهورة باسم حن إليه كثيراً هو لفظ الأبوة الذي اشتاق إليه، فالكاتب ساعتها كان يرسل كل أبنائه (ألوف علا ريم ومحمد) مبدياً الاهتمام والحدب والتوجيه رغم البعاد. بيد أن بعض البطائق أتت خلوا من هذا التوقيع وهي تحديداً:

- بطاقة بعثها لزوجته حميدة توجد بالصفحة 252 من أشواق.
- بطاقة بعثها لزوجته حميدة توجد بالصفحة 266 من أشواق.
- بطاقة بعثها لابنه محمد من بلغراد توجد بالصفحة 264 من أشواق.

بات تاريخ كتابة الرسائل أحد أهم تشكل الرسالة لدى كاتبنا، إذ لم ترد رسالة قصيرة ولا طويلة دونما استهلالها بذكر لليوم والشهر والسنة بل قد يذكر الساعة أيضاً متوخياً الدقة في كل ذلك، فقد أورد التاريخ والساعة "1960/2/20 الساعة السابعة"⁽⁸⁾ ثم أضاف اليوم "الجمعة 26/4/1960 الساعة 12 مساءً"⁽⁹⁾، ولم يلبث

(1) -أشواق، صص: 99-126-133-137-144-148-15-155-157-159-160-165-167-172-174-178-184-187-189-192-195-197-203-205-218-224-228-233-235-238-242-243-245-255-259-261

(2)- نفسه، صص: 18-71-110-112-115-117-122-224-128

(3)- نفسه، صص: 21-23-30-36-38 مرتان - 40-41-51-65-71-74-88-91-96-132-134-253

(4)- نفسه، صص: 180-182 مرتان

(5)- نفسه، صص: 251 252 255

(6) نفسه، صص: 257-260

(7)- نفسه، صص: 88

(8)- نفسه، صص: 15

(9) نفسه، صص: 17

ان التزم بتحديد المكان "سانتندر مساء الأحد 2/7/67"⁽¹⁾ "باريز 22/6/1962 الساعة الثامنة مساء" "القاهرة مساء السبت 18/1/1968."⁽²⁾ ولعل هذا الصنيع ساعد السيدة حميدة إلى حد بعيد في رصف وتنظيم "أضمومة أشواق"، وذلك بالركون إلى التواريخ المثبتة على رأس الرسائل محافظة على التسلسل الزمني لها.

لعلنا أن نشير إلى صيغة معلومة لازمت رسائل الدكتور عباس الجراري لم يحد عنها على الإطلاق، تلك هي استهلاله لمكاتباته بعبارة "الحمد لله"، يقول أبو هلال العسكري في هذا الباب: وقد "جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله؛ لأن النفوس تتشوف للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع"⁽³⁾، ولئن بدت الحمدة فاتحة لزمرة الرسائل معلنة عن الرضى فإنها اختفت متى استعان بالبطائق أو أرسل الصور، إذ ظلت لصيقة بالخطابات ذات السمت التقليدي، ولأن معمار الرسالة يقتضي استهلالها بعبارات التقديم فإن صيغ التحية شكلت جزءا مكينا في هذه البناء، وقد وردت بعبارات ليست متضارعة في هذا المنحى وتدرجت من السلام المؤلف: "ألف تحية وسلام عليك"⁽⁴⁾ و"سلام الله لك"⁽⁵⁾ أو "تحيات وأشواق"⁽⁶⁾ وأيضا "تحية وسلاما وأشواق"⁽⁷⁾ إلى التحايا التي تضم تاججا عاطفيا تضرمه لواعج الالتياح إلى حميدة مثل: "تحية وسلاما عليك من قلب يحرقه الشوق ويذيبه الحنين"⁽⁸⁾ و"مع عميق الأشواق ولذيذ القبلات

(1)- نفسه، ص: 175

(2)- نفسه، ص: 183

(3)- الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد الجاوي وأبو الفضل إبراهيم، عيسى البابلي الحلبي وشركاه، دط، دت، ص 455.

(4)- أشواق، صص: 25 - 3 - 93 - 139

(5)- نفسه، ص: 101

(6)- نفسه، صص: 133 - 145 - 147

(7)- أشواق، ص: 97

(8)- نفسه، ص: 19

أحييك"⁽¹⁾ وأكثر من هذا "أحييك وأقبلك وأضمك إلى صدري"⁽²⁾، وليس هذا بغريب على زوج ينكأ جراحه نأيه عن صبه ومن يهوى. وإذا كان قد حرص على هذا الصنيع فإنه وإن رصع عباراته بذكر بنيه "مع التحيات والقبلات لك وللصغار،"⁽³⁾ فإنه لم يلبث أن تخلى عن التحية وهب على موضوعه دونما مقدمات في بضع رسائل من نماذجها قوله في بدايات بعض منها "حميدتي توصلت ظهر البارحة برسالتيك"⁽⁴⁾ و"حميدتي بردا وسلاما وقعت علي رسالتك"⁽⁵⁾ و"بعد عودتي من رحلتي الربيعية وجدت رسالة منك"⁽⁶⁾ و"حميدتي أود في هذه الرسالة التي أجيب بها على ردك"⁽⁷⁾، قد يكون الدافع وراء التحلل من هذا الضابط المتأصل في الكتابة الترسلية إنما مرده إلى الحالة النفسية التي يعيشها الكاتب لحظة إقباله على التحبير، فإما أن يكون في التبع وأسى فهو يبرم ويعتب ولا تسعفه العبارة لإلقاء التحية، أو ربما هو في غمرة من الحبور لا يطيق معها التحية كوسيط للشروع في رسالته، مثلما فعل وقد ملك عليه الفرح فؤاده فاستهل خطابه دونما تمهيد "لست أدري كيف أعبر لك عن الإحساس الذي تملكني حين سلمتني البوابة رسالتك."⁽⁸⁾

ومثلما بدت صيغ التحية، انجلت تعابير الوداع تجرر أمراط الرسائل وتجتو في آخرها راسمة النهايات، فغالبا ما تأخذ شكل الدعاء للمحجوبة "ودمت لمن لا يغفل لحظة عن التفكير فيك"⁽⁹⁾ و"دومي لمن ضمك إلى قلبه أبد الحياة"⁽¹⁰⁾ و"دمت لمن

(1)- أشواق، ص: 189

(2)- نفسه، ص: 183

(3)- نفسه، ص: 187

(4)- نفسه، ص: 129

(5)- نفسه، ص: 151

(6)- نفسه، ص: 163

(7)- نفسه، ص: 73

(8)- أشواق، ص: 43

(9)- نفسه، ص: 21

(10) نفسه، ص: 51

لا يفتأ يفكر فيك ودومي لمن غدوت مناط آماله.⁽¹⁾ وقد ترد على شاكلة تبليغ السلام للزوجة والأهل والولد "تقبلي سلام من يرى فيك سعادته ومستقبله،⁽²⁾ وقد تجمع السلام والدعاء معا "سلمي على الجميع ودومي لمن أنت حلمه ورجاؤه ونجواه"⁽³⁾ و"سلمي مني على والديك حفظهما الله وعلى جميع إخوتك... ودومي لمن عقد عليك آماله وأمانيه⁽⁴⁾، وأحيانا تحمل دلالات الوداع "أودعك مؤكدا لك خالص حبي مع أحر قبلائي إليك"⁽⁵⁾ وقد نضحت هذه العبارات التذيلية في البطائق البريدية بسيل من الشوق والاشتياق: "قبلائي لك وللأولاد"⁽⁶⁾ و"مع أشواقي وقبلائي"⁽⁷⁾ و"السلام وأحر الأشواق"⁽⁸⁾ و"أحر الأشواق والقبلات"⁽⁹⁾ و"مع تحيات وقبلات المشتاق جدا إليك وإلى الصغيرتين."⁽¹⁰⁾

لاجرم أن المكاتبات التي دبجها الكاتب ووافى بها زوجته قد أذعنت لمعمار تشكل الرسالة من حيث إيراد صيغ الافتتاح والتقديم والتذييل وحسن التخلص والاعتماد على تعابير التحية والوداع.

لقد حبر الكاتب خطابه بأسلوب سلس رصين وبلغه عربية فصيحة لم يحد عنها إلا لماما، ورغم أنه لم يكن يكتب هذه الرسائل إلا لزوجته، فقد بات بالغ العناية بأسلوبه الذي ما شهدنا له اختلافا من حيث المستوى بين أولى رسائله وهو لزال طالبا بالقاهرة وآخر رسائله وقد صار علما ذا شهرة وصيت، وليس هذا ببعيد على امرئ ثقف العربية

(1)- نفسه، ص: 36

(2)- أشواق، ص: 28

(3)- نفسه، ص: 86

(4)- نفسه، ص: 65

(5)- نفسه، ص: 145

(6)- نفسه، ص: 261

(7)- نفسه، ص: 255

(8)- نفسه، ص: 251

(9) نفسه، ص: 254

(10) نفسه، ص: 243

والأدب وتشبع بهما على يد والده المرحوم عبد الله الجراري، كما أن من كان يخاطبها كانت السيدة حميدة خريجة كلية الحقوق بالقاهرة.

ليس يخفى أن الرسائل شدا ما تفتح على الشعر والقرآن والأمثال والأخبار حين يعمد المترسلون وهم في سبيلهم إلى تدبيج خطاباتهم إلى إجلاء زادهم المعرفي الذي به يرقشون ما يخطون، وقد ضمن الكاتب رسائله بعض الأمثال الشعبية مثل "اللي كلا حقو تيغمض عينه"⁽¹⁾ و"الزيادة من راس الاحمق"⁽²⁾ و"حبس كرف"⁽³⁾، كما استعان بعدة أمثال فصيحة كـ "لا يعرف الشوق إلا من يكابده"⁽⁴⁾ و"لا بد قبل الشهد من إبر النحل"⁽⁵⁾ و"لا ورد من غير شوك"⁽⁶⁾ ولعله عني بأسلوبه على عادة المترسلين فاقتبس آيات من الذكر الحكيم ومنها الآية 23 من سورة الأحزاب "الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا"⁽⁷⁾. ولا نلبث أن نلفي الكاتب المتميم وهو يلهج بقصص العشاق ولواعجهم أن كتب لصبه عن قصة جميل بثينة في استحضار لكل تفاصيلها تماما مثلما وردت في الأغاني وغيرها "تذكرت جميلا حين سافرت بثينة عنه فالحق بها متنكرا في ثوب سائل حتى لا يفتن أحد لأمره، وكان عندها ضيوف فأجلسته بعيدا وحده بعد أن عرفت أنه مسكين يطلب الصدقة والعطاء، ثم قعدت مع جاريتها بعد أن عشته ونام القوم، فقال :

هل البائس المقرور دان فمصطل من النار أو معطى لحافا فلايس

(1)- اشواق، ص: 101

(2)- نفسه، ص: 99

(3)- نفسه، ص: 99

(4)- نفسه، ص: 26

(5)- نفسه، ص: 26

(6)- نفسه، ص: 26

(7) نفسه، ص: 26-27

فقلت بشينة لصاحبها : " إنه صوت جميل والله فذهبت الجارية لتتأكد من السائل وعادت إليها لتخبرها بواقع الأمر، فما كان من بشينة إلا أن شهقت شهقة عالية فزع لها أهلها واقبلوا مسرعين، وفكرت في حيلة للخلاص فألقت بردائها على النار حتى لا يفطن أهلها ويرجعون، ثم أرسلت جاريتها تطلبه وكان اللقاء. وكان يكتفي في كثير من الأحيان بالجلوس على تل قريب من حيفا يستنشق من ريح نسيمات حبيته، وهذا ما أحاول في هذه في هذه اللحظات ولكن عبثاً أحاول فالديار جد نائية والجو ساكن حار، ومن يدري فقد يحمل لي ريح الليل نسيمات البيضاء العطرة،" ⁽¹⁾ فالكاتب الذي كان مازال غضا طري العود نلفه ذا باع في الترسل كبير، إذ يطفو ما ترخر به ذاكرته من أشعار وأخبار وأمثال وآيات قرآنية فيغدو نصه ذا تميز، وتفتح رسائله على الثقافة الغربية حين يتمثل بقولة لافونتين ويثبتها بحروف فرنسية بارزة :

"la raison la plus forte est toujours la meilleure"⁽²⁾

وبخط رائق وجميل ينقل الرسالة⁽³⁾ التي كتبها الأستاذ بلاشير لوزير التهذيب الفرنسي سنة 1961 من أجل استكمال إجراءات تسجيل الدكتور عباس الجراري لأطروحته بفرنسا.

لاريب أن رسائل أشواق أجلت ما امتلكه الكاتب من فصاحة وبلاغة وقدرة على تحبير الخطابات في تمثل لأعراف هذا السميت من الكتابة.

(1) - أشواق، ص: 20

(2) - أشواق، ص: 111

(3) نفسه، ص: 63



الفصل الثالث

1. الرسائل إلى الزوجات في حضرة العميد
له حسين وعباس الجراي

2 بين العقيلتين حميدة وسوزان



1. الرسائل إلى الزوجات في حضرة العميد لصه حسين وعباس الحارري

يضارعهما إلى بعضهما شغف بالأدب كبير ويلم سبيلهما سبر وبحث ونقد وفير، لن أجنح في هذه الدراسة صوب الدنو منهما كعميدين خطا صحائف في المعارف جملة بيد أني سأزيح عنهما الستار كعاشقين ارتقيا مدارج الصباية وتجرعا لواعج الهوى فظفرا بمن هفا إليهما فؤاديهما ونعما بهذه الهبة وابتهجها، لكن الدهر حين أحكم سطوته وقذف بهما بعيدا عن قرينتيهما لم يستسلما وقد عرفا بقوة الشكيمة بل خلقا لنفسيهما كونا توصليا باتت الرسالة أسه والقرار.

يجمل بنا ونحن نترسم سبيل هذين العلمين أن نتبين علة لقب العميد الذي يتشاركه باقتدار والذي جلل اسميهما ببهاء وفخار.

ربما كانت قصة الدكتور طه حسين أطرف في هذا الباب، حيث يورد صاحب كتاب "الحب والحقد المقدس" أنه في سنة 1923 أصدر "الملك فؤاد ملك مصر حينها قرارا بإقالة حكومة إسماعيل صدقي... وقام "صدقي" حينها بتأسيس حزب سياسي، بتوجيهات من الملك والأثرياء وكبار رجال الدولة، ليكون في مواجهة حزب الوفد، صاحب الشعبية في ذلك الوقت وطلب إسماعيل صدقي حينها من طه حسين، أن يتولى رئاسة جريدة الشعب، جريدة الحزب الجديد، وكتابة الكلمة الافتتاحية في العدد الأول للجريدة، ولكن الأول اعتذر قائلا: "إن كتابتي في جريدة الشعب تضرنا جميعا، ولا تنفع

أحدا".⁽¹⁾ ولعل هذا الصنيع أثار غضب الحكومة التي أصدرت " قرارا بنقله من عمادة كلية الآداب، إلى وظيفة مراقب بالتعليم الابتدائي بوزارة المعارف، لكن عميد الأدب العربي، رفض تنفيذ القرار، وقام برفع دعوى قضائية ضد الوزارة، كما احتج طلاب كلية الآداب، وانضم إليهم طلاب كليات الطب والعلوم، وهو ما زاد غضب الحكومة، واعتبرته تحديا صريحا لها"،⁽²⁾ فأقدم رئيس الحكومة على عقد اجتماع عاجل يوم 29 مارس 1923 وخلالها تقرر "فصل طه حسين من الخدمة بالحكومة"⁽³⁾، ولعل هذا القرار كان له وقع وخيم حيث قوبل باحتجاجات واسعة من طرف الطلاب داخل أسوار الجامعة حين ضجوا بصوت واحد: "إذا أقالته الحكومة طه حسين من عمادة كلية الآداب، فهو عميد للأدب العربي كله"، وظلت الأحوال تغلي غليان المرء حتى حلت حكومة صدقي " وعاد طه حسين عميدا منتخبا للكلية، محمولا على الأعناق، ومن حينها والتصق بالرجل لقبه الدائم "عميد الأدب المغربي".⁽⁴⁾

ولعل أجمل قصيدة نظمت في رثاء عميد الأدب العربي طه حسين الذي ملأ الدنيا وشغل الناس كانت تلك التي أبهت بها نزار قباني ونعتها ب: "حوار ثوري مع طه حسين" ورد فيها:

ضَوْءٌ عَيْنَيْكَ أَمْ هُمَا نَجْمَتَانِ⁽⁵⁾
كُلُّهُمَ لَا يَرَى، وَأَنْتَ تَرَانِي
ضَوْءٌ عَيْنَيْكَ أَمْ حِوَارُ الْمَرَايَا
أَمْ هُمَا طَائِرَانِ يَحْتَرِقَانِ

(1)- الحب والحق المقدس، عبد الباسط هيكل، روابط للنشر وتقنية المعلومات، الطبعة الأولى / 1 / 2019، ص: 30

(2)- الحب والحق المقدس، ص: 31

(3)- نفسه، ص: 31

(4)- نفسه، ص: 31

(5)- ديوان الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، دون طبعة، ج 3: صص: 471-473-474

إِرمَ نَظَّارَتَيْكَ مَا أَنْتَ أَغْمَى
إِنَّمَا نَحْنُ جُوقَةُ الْعُمَيَّانِ
أَيُّهَا الْأَزْهَرِيُّ، يَا سَارِقَ النَّارِ
وَيَا كَاسِرًا حُدُودَ الثَّوَانِي
عُدْ إِلَيْنَا فَإِنَّ عَضْرَكَ عَصْرٌ
ذَهَبِي، وَإِنَّ عَصْرَنَا عَصْرٌ ثَانِي

ولعل سؤالاً ما فتى يلح علي إلحاحاً وهو كيف حاز الدكتور عباس الجراري على هذا اللقب الذي غدا ملازماً له لا يفارقه قط فلا ينبس باسمه حتى يسبقه لفظ عميد الأدب المغربي؟

من زهرة الآس تضيعت فضائل العباس، ولأنه وسط الجواهر فص ماس، يمت شطر عقيلته السيدة حميدة كي تخبرني متى تقرر جعله للمعارف الآس والرأس، إذ أنبأني مزهوة أنه لم تكد سنة 1992 توشك على الأفول حتى قررت كلية اللغة العربية بمراكش بإشراف من قيدها الدكتور حسن جلاب أن تنظم ندوة تكريمية للدكتور عباس الجراري امتدت من 12 إلى 14 نونبر، فتبارى الشعراء وأرباب البيان في إجلاله مناقبه وخلالها الحسان، وهناك منح هذا اللقب وحق له، وفي ذلك نظم الشاعر علال الغازي قصيدة طويلة أسماها "أغرودة الحمراء" يفخر بالعميد ويثني عليه ويجلله بهذه المنقبة :

حج الجميع إلى الحمراء يحضنهم حب العميد ونار الصدق تضطرم⁽¹⁾
عميدنا لم يعد لليأس من سبل لراكب الحقد يا عباس نحوكم
عميدنا هجكم في العلم ملحمة تصادع الفعل في دنياها والكلم
أغرودة الحب بالحمراء تسمعكم نشيدها العذب من أزكى نشيدكم

(1)- العلامة عباس الجراري على ألسنة الشعراء، جمع ودراسة السعيد بنفراحي، الطبعة الأولى 2005، مطبعة بني

يزناسن، صص: 195-197 ت 205

فدم عميدا وللتكريم اغنيتي تهتدى فيها نضار الفعل والكلم

وعلى ذات السميت وفي ذات المحفل جادت قريحة الشاعر محمد بن الراضي
بقصيدة يوثق بها هذا الصنيع:

يعز علي أن اصغي لنفسي ولا أفضي بما تملي لطرس⁽¹⁾
وهذا مهرجان الفكر يبني لعباس ريادته ويرسي

ومن ساعتئذ لم تبارحه العمادة ولا نأت عنه بل ظل للأدب المغربي منارا وموثلا،
وفي ذلك قال سعيد الفاضلي في قصيدته "عميد آداب سميت":

عميد آداب سميت ورفقته رسيس ودي لكم قد لابس الحدقا⁽²⁾

ولعل أجمل ما وصف به الدكتور عباس الجراري في تقديري هو ما شدا به الشاعر
علي الصقلي:

عباس يا موسوعة تمشي على قدمين، وهي تشق كل طريق⁽³⁾
وخزانة حمالة ما سال من قلم أنيق غذ يسيل رقيق

وإذا فقد خلصنا إلى أن لقب العميد لم يسع إليه الكاتبان كلاهما وإنما أتاهما طوعا
حين أسبغه طلبة الجامعة بمصر على الدكتور طه حسين وجلل به الكتاب والشعراء
والمفكرون الدكتور عباس الجراري بالمغرب.

سوف ننعطف اللحظة صوب الخطابات ككتابات ذاتية حبرها العميدان معا، ولأنها

(1)- نفسه، ص: 240

(2)- نفسه، ص: 187

(3)- من ديوان عباس الجراري الجزء الثاني، ص: 147

نصوص ترتبط بالانتقال أو المفارقة والبعد فلعلنا أن نوضح منذ البدء أن طه حسين خبر كرب الفرقة حين سافر إلى فرنسا لمتابعة دراسته في جامعاتها وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون، وهناك يقول في كتابه الأيام "سمع الفتى ذلك الصوت يقرأ عليه شيئاً من شعر راسين ذات يوم، فأحس كأنه خلق خلقاً جديداً، ومنذ تلك الساعة التي سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً"،⁽¹⁾ وإذ تعلق بصاحبة الصوت الجميل وطلبت منه وزارة التعليم العالي بمصر أن يعود من بعثته بفرنسا بعد انقضاء سنة فقط، لم يأسف على شيء قدر تحسره على هذه القارئة التي سيفتقد صحبتها له وهي نفسها سوزان التي ستصير زوجته فيما بعد، لكنه يقول وهذا هو الأهم: "وكان أي الفتى يسعد بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه بين حين وحين فيها كثير من الأمل المشفق وكثير من التشجيع على احتمال النائبات، وربما اشتملت هذه الرسائل على زهرة قد جففت وأرسلت إليه ليحملها كما تحمل التمامم ولتذكره إذا عرض له النسيان."⁽²⁾ ولا غرو أنه أجاب على هذه الخطابات بل عجل بفعل ذلك بيد أننا لا نجد لها أثراً في ما ذاع من رسائله، ومباشرة بعد أن عاد إلى فرنسا مرة ثانية لمتابعة دراسته ممنوحاً من الجامعة قال: "وهناك وجد رسالتين تنتظرانه... فقرأهما عليه صديقه مرة ومرة، فلما طلب منه قراءتهما للمرة الثالثة، قال له منكراً: إليك عني."⁽³⁾ وكما استعذب الإنصات إلى ما وافته به، لا بد وأنه دبج ردوداً وساقها إليها مع أول بريد، وإذ أصابت صاحبة الصوت علة وقد ألفتها تقرأ له بالفرنسية بصوت بديع الكتب والمصادر التي تعينه في دراسته بعد أن لم تسعفه كتابة برايل في ذلك، فقرر زيارتها حيث قال: ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة، فأقبل يعودها وجلس يتحدث إليها، ثم لم يدر كيف التوى به الحديث، ولكنه سمع نفسه يلقي إليها صوتاً أنكروه هو قبل أن تنكره هي، أنه يحبها، ثم سمعها وهي تجيبه بأنها هي لا تحبه،

(1)- الأيام في مجلد واحد، طه حسين، الطبعة الأولى 1992، مركز الأهرام للترجمة والنقل، ج: 3، ص: 414 415

(2) نفسه، ص: 421

(3)- الأيام، ص: 426

قال وأي بأس في ذلك؟ إنه لا يريد لحبه صدى ولا جوابا إنما يحبها وحسب.⁽¹⁾ ولم تجبه فألمه ذلك غاية الألم، ثم قالت بعد حين: "فإني فكرت فيما أنبأتني به، وأطلت فيه التفكير ولم أنته فيه إلى شيء، وقد أوشك الصيف أن يظلمنا سنفترق، فاصبر حتى إذا كان افتراقنا فستتصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل، فإذا قرأت في بعض رسائلي أنني أدعوك إلى أن تنفق معنا بقية الصيف، فاعلم قد أجبتك إلى ما تريد، وإن لم تلق هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فاعلم أنها الصداقة الصادقة بيني وبينك ليس غير،"⁽²⁾ ولا يلبث أن يضيف "وأقبل الصيف وكان الافتراق ذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب وبقي هو في باريس، واتصلت بينهما الرسائل، ولكنها قبل أن تسافر كلفت زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه."⁽³⁾ وأخيرا وبعد وجع البعاد يقول: "واتصل الفراق شهرا... ولكن رسالة تصله في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضي معها ومع أسرتها بقية الصيف،"⁽⁴⁾ وبعد إقدام وإحجام يقول: "خطب الفتى تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أسرتها، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردد طويل، وقبلته الأسرة بعد امتناع وإباء."⁽⁵⁾

تسلمنا هذه الوقائع من حياة الدكتور طه حسين والتي تميظ اللثام عن البدايات الأولى التي خفق فيها قلبه حين سرت في روحه رعشة الحب بعد أن سمع صوت سوزان للمرة الأولى فأيقن أنها ستكون له، ولا غرو أن إيرادنا لها يصب في صميم ما نرمي إليه من مقارنة بين العميد من حيث تديجهم للرسائل وبعثهما إلى الحليلة منذ غدوها عشيقة وحببية وخطيبة. ولعله جلي مما استقيناه من أخبار من سيرة طه حسين، أن الخطابات أسهمت إلى حد كبير في نسج خيوط صلته بسوزان، فقد اتصلت الرسائل بينهما ردحا من الزمن، بدءا بالاطمئنان والاشتياق وبعث الورود الجافة في

(1)- الأيام، ص: 444

(2)- نفسه، ص: 449

(3)- نفسه، ص: 449

(4)- نفسه، ص: 449

(5)- نفسه، ص: 459

المظروف وانتهاء بالسماح لهذا الحب أن يرى النور والموافقة على الخطبة، ولا ريب أن من شأن هذه المكاتبات التي لم تكن يسيرة على ما يبدو لو أنها نشرت أن تكشف لنا عن السبيل الذي انتهجه الكاتب كي يستميل ويقنع بحبه وبالارتباط به فتاة فرنسية غريبة هو الأزهرى القادم من الشرق.

وهنا تماما يبدو مسلك عميد الأدب المغربي على نحو مغاير، فقد حوت أضمومة أشواق مكاتبات بعثها الكاتب إلى حميدة زمن الخطوبة التي دامت بينهما من سنة 1959 إلى سنة 1963 وخلالها دبح خطابات فيها الحب والشوق وفيها العتب واللوم وفيها الوحشة والالتئاع. وإذا كان طه حسين الذي خامره طيف الهوى وملك عليه وجدانه لم يصادف القبول حين كاشف صاحبة الصوت العذب بما يساوره إلا فيما تلا ذلك، فإن الدكتور عباس الجراري أيقن أن فتاة المصعد هي أمله ومناه.

قد يتقاسم العميدان خصيصة أنهما التقيا بمن أحبا زمن سفرهما للدراسة، فالدكتور عباس الجراري تعرف على حميدته في رحاب جامعة القاهرة، هو طالب بكلية الآداب وهي تجد وتكد في كلية الحقوق، كما أن الدكتور طه حسين استأنس بسوزان حينما استعان بها قارئة له وهو يتابع دراسته في فرنسا، ويتطابقان في إعلان خطبتيهما زمن التحصيل، بل أكثر من هذا أن يتما زواجهما وهما لازالا يمتحان من مناهل العلم ويعدان الأبحاث والأطاريح، وإذا باتت الحالة الصحية للعميد هي ما سرعت إتمام مراسيم الزواج فإن الأستاذ طه كان عجلا على ذلك.

لكن ماذا بشأن رسائل ما بعد الزواج؟

لئن كان الدكتور عباس الجراري قد امتلك جرأة الكشف حين أجلى خطابات خفية خطها إلى حليلته مفضيا بما به يحس دون ضوابط رقابية ولا محاذير تعبيرية، دون تدشير لمشاعر متأججة ولا كبح لأحلام يقظة أو خيالات موحية، يحذوه في ذلك سرية الخطاب وانطلاقه مضمرا مخبوء في أحشاء ظرف مختوم، لا يقربه عاذل ولا رقيب، ليس للمتلصص فيه نصيب، غير منذور للنشر ولا مسطور للذئوع، يحيا ويأفل بين اثنين

هما القارئ والمقروء معا، الباعث والمتلقي عينهما، المرسل والمترب في آن، فإنه لم يجد حرجا من الإفضاء بها دونما حرج، تقول السيدة حميدة "فهو شذرات مهمة من حياته سجلها في حينها ولا يرى مانعا من اطلاع من يود معرفتها ومتابعتها لترتبط جميع حلقات حياته التي كان فيها العذب والحلو مشوبا بالعلقم المر"⁽¹⁾ وبهذا الصنيع تخرج من باب السفور إلى العلن وتستحيل من كتابات ذاتية مغمورة إلى نصوص قيمية بالدرس حقيقة بالتمحيص، تضيف عقيلة الدكتور عباس الجراري "ولا أخفي أنه أعجبني من زوجي هذا الإصرار على مطلبه ورأيت فيه تأكيدا لطبيعته الجريئة والمتحدية والساعية لكسر القيود والريادة في المجالات التي يتهيها الكثيرون ويحجمون عن خوضها، ذلك أن الآداب العربية شبه خالية من هذا النوع من الإنتاج الأدبي المتمثل في الرسائل، في حين نجده عاديا ومتداوليا في الآداب الغربية دونما خجل أو إحجام."⁽²⁾ ولعل هذا كان دأب كاتبنا فقد نشر رحلة نسيم البوسفور التي لم تكن في الأصل سوى خطابه إلى زوجته إبان رحلته إلى تركيا صيف 1968، حتى أنه حينما بعث لها آخر رسالة قبل نشر الرحلة بحوالي اثنين وخمسين سنة، صرح مؤكدا: "ولا أريد منك أن تستقلي بقراءتها بل أريد أن تطلعي عليها كل من يهمله معرفة ما حوته، وما أظن بها شيئا أحتاج إلى إخفائه عن الآخرين حتى حين أخصك بالحديث."⁽³⁾

يقول الدكتور ابراهيم عبد العزيز الذي نشر كتاب رسائل طه حسين: "مضيت في مساعي لأعثر على كنوز طه حسين وهي أوراقه، مراسلاته ووثائقه التي عكفت على الحصول عليها بمعرفة السيدة الفاضلة منى الزيات حفيدة طه حسين التي أتاحت لي الاطلاع على كل ما ترك طه حسين من تراث."⁽⁴⁾ بيد أننا لا نجد داخل هذا المتن ذي الرسائل الكثيرة خطابات شخصية عدا رسالة من طه حسين لابنه. إذن أين رسائله إلى

(1)- أشواق، ص: 10

(2)- نفسه، ص: 10

(3)- نسيم البوسفور، ص: 202

(4)- رسائل طه حسين، ابراهيم عبد العزيز، تقديم نجيب محفوظ، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى 2000

سوزان؟ لماذا لم يشملها هذا الكتاب الذي حوى مراسلات لعميد الأدب العربي مع صفوة الأدباء والمفكرين الذين عاصروه؟

لعل البحث عن كتاب مخصوص يحوي ما دبجه عميد الأدب العربي لزوجته لم يفض بنا إلى نتيجة تذكر، فلم ينشر العميد في حياته ولا ذاع بعد مماته سفر يشمل رسائله إلى حليلته، بيد أننا ونحن نطالع مذكرات زوجته سوزان "معك" والتي نشرتها بعد وفاته، لا نلبث أن نعثر على قصاصات من الخطابات التي وافاها بها الدكتور طه حسين والتي تنسحب على فترة بعينها هي ثلاثة أشهر التي قضتها وطفليها بفرنسا بعد اعتقالهما سنة 1922 تقول: "كانت هذه الأشهر الثلاثة من الفراق مؤلمة⁽¹⁾، وقد أسفرت هذه الفترة عن كم وفير من الخطابات تقول: "ليس هناك من بين الرسائل التسعين رسالة واحدة لم تكن اعترافاً أو عطاء"،⁽²⁾ بيد أننا لا نعثر على رسالة واحدة تامة داخل هذا الكتاب، كل ما هنالك هو بعض المقتطفات التي تطعم بها ما ترويه من سيرتها في علاقتها مع هذا الزوج المثقف الضريع.

لعل مما يلم بعض ما كتب الدكتور طه حسين لزوجته سوزان إلى ما دبجه عميد الأدب المغربي إلى حليلته حميدة هو هذا الحب الدافق لقريبتيهما والذي ظل رابضاً بين سطور خطابتهما لا يفتر أواره ولا تنطفئ جذوته، يقول طه متهما "أحبك وأنتظرك ولا أحميا إلا على الانتظار" ويضيف "رحلت فلحق بك ذكائي، كل قلبي، كل نفسي، كل شيء في هذه الرسالة...؟ ماذا أقول أو لم تحملي كل ذلك معك"؟⁽³⁾ أما الدكتور عباس الجراري فما لبث أن خط لمهجة روحه "فليس الحب ألما ليس غير وإنما هو كذلك أمل هو أساس حياة المحب ولكنه أمل صعب البلوغ لأنه أمل في الوصول إلى لب الحياة و"سر جمالها" وليس شيئاً غير المرأة، وطريق الوصول شاق عنيف يحتاج تذليله إلى كثير من الكد والصبر وإلى كثير من العزم والتضحية وإلى كثير من ترويض النفس على

(1)- معك، سوزان طه حسين، تر بدر الديت عرودكي، مراجعة محمد محمود العالم، مؤسسة الهداوي 2015، ص: 38

(2)- نفسه، ص: 64

(3)- نفسه، ص: 48

احتمال المصاعب والاهوال"⁽¹⁾ كيما يذكرها في وفاء "عشر سنوات مرت من عمر حبنا كان في كل يوم بل في كل لحظة منها يزيد قوة وقداسة ولكني لم أحس به يملك علي كل جوارحي وقواي كما أحسست هذه الايام... سيظل قويا ثابتا إن بادلتني بمثله بل أكثر من ذلك... فلنبعد حميدتي عنه كل الأخطار ولنصنه في قلوبنا وفي كل جارحة منا".⁽²⁾

ويكاد الشعور المغرق بالوحشة حال البعاد أن يجلل مكاتباتهما سويا، يقول طه حسين : "أود لو أصف لك ضيقي عندما تركت السفينة، عندما رجعت إلى القاهرة، عندما عدت من فوري إلى البيت فقد دخلت غرفتنا وقبلت الزهرة وغطيت بالقبلات الصورة التي لا أراها... عندما عدت واجهت هذا الفراغ والسرير الذي لا يزال على حاله، وسرير الصغيرة المغطى والمهد الغائب... كان ذلك أمرا رهيبا،⁽³⁾ وما أكثر ما ورد مثل هذا عند كاتبنا عباس وهو يتجرع غصص الفراق الرهيبة ومن ذلك ما ورد في رسالته: "حميد تي ما أحسست لوعة الوداع والفراق كما أحسستها صباح اليوم، وأنا أطل عليك من شرفة المودعين... ثم تدخلين الطائرة لتحلق بك بعد لحظات في الأجواء، فما كادت تطير حتى طار معها عقلي وقلبي وشعرت على الفور بفراغ هائل يسيطر علي وبدوار سريع يأخذني في دوامة عميقة."⁽⁴⁾

وإذا هما يعقدان أبدا آمالهما على ما يأتيهما من خطابات فهما إما في بعث أو تلقى للرسائل لا يفتر، وقد يخلف تأخرها خيبة أمل لا تطاق، فالدكتور طه كتب محبطا "كنت على ثقة من أنني سأتلقي رسالة منك اليوم، إلا أن صندوق البريد كان فارغا... معقود اللسان لا بد أن أغرق حزني في قلبي... فالرسائل لا تصل بفضل هذين الأبلهين: الزمان والمكان إذ لولا وجودهما لكنا منفصلين،" وعلى ذات الغصن ناح كاتبنا عباس الجراري مسطرا "مرت أكثر من ثلاثة أسابيع منذ بعثت لك رسالتي الأولى من القاهرة،

(1)- أشواق، ص: 21

(2)- أشواق، ص: 245

(3)- معك، ص: 46

(4)- أشواق، ص: 207

أتبعها ثانية وثالثة دون أن يصلني منك أي رد.⁽¹⁾

ومن الغريب أن تجلي لنا الرسائل إلى الزوجات محنة اشترك فيها العميدان معا، تلك هي ضيق ذات اليد التي منيا بها أحيانا والتي ألفت بظلالها القاتمة على نفسيتهما، فعميد الأدب المغربي نراه يخبر زوجته من القاهرة كسيفا " اضطرت إلى بعض النقود، فأخذت مبلغ عشرين جنيها من السيد قاسم... على أن آخذ منه ثلاثة وعشرين جنيها في آخر الشهر، "⁽²⁾ وعميد الأدب العربي يسطر لسوزان "بقي معي ثلاث جنيها حتى آخر الشهر ليس ذلك بالمبلغ الكبير"⁽³⁾ ويضيف "لست غنيا، ولكني بحمد الله لا أتفاخر بفقرى، أولا لأنني لا أستطيع، كما أنه سلوك يخلو من اللياقة."⁽⁴⁾ وتلك شيم العظماء، فعباس الجراري رغم هذه المكابدة لطالما أنبأ زوجته "إعلمي أنني لا أطلع العائلة على مثل هذه الأخبار وإن كانت تسمع أفضع منها."⁽⁵⁾

ولا يمكن إلا نعلن عن الحب الجارف الذي تفجر دفته من بين ثنايا الرسائل.

فضلا على أنهما استقرا في باريس أثناء الدراسة وشهدا اضطراباتهما، طه حسين عاينها أثناء القصف الألماني، وعباس الجراري وصل إليها إبان المظاهرات التي صاحبت ذكرى الثورة الجزائرية، وكلاهما عين أستاذا جامعيا ولما يبلغ الثلاثين من عمره.

(1) - نفسه، ص: 189

(2) - أشواق، ص: 187

(3) - معك، 54

(4) - نفسه، 64

(5) - نفسه، ص: 50

لكن ما الذي يباين بين خطاباتها إلى حليلتيهما؟

لعل أهم ما يمكن أن نتنبه إليه ونحن بصدد مضارعة هذه الخطابات إلى بعضها هو:

أ- انطلاقاً من أضمومة أشواق تهيأ لنا أن نحيط بكل الخطابات التي وجهها عميد الأدب المغربي إلى زوجته كما دبجها، جلية، تامة المعنى والمبنى، منصاعة لقواعد الكتابة الترسلية.

ب- لم يتح لنا أن نعاين من الرسائل التسعين التي ذكرت سوزان أن الدكتور طه حسين وافاها بها إلا بعض المقتطفات، بينما قامت بنقل مضامين بعض الرسائل الأخرى بما يتماشى والطابع الاستعادي الذي انتهجته في تأليف كتاب "معك"، ومن ثم ما تسنى لنا التعرف على الرسائل من حيث الطول والقصر وكذا من حيث احترامها لمعمارية المكاتبات المعهودة.

ج- تكاد خطابات الدكتور طه حسين أن تخلو من أوصاف يسم بها زوجته أو الألقاب بها يناديها عدا اسمها "سوزان لتتابع المسير أعطيني يدك"⁽¹⁾ أو "لن أسبب لك العذاب يا ملاكي، اطمئني."⁽²⁾ ولكن قد يقول قائل إنه ربما وسمها بتلك خلال ولكنها لم تنشرها ضمن ما نشرت، فأجيب: إذا كان كذلك فلا ضير، ولكن هب أنه لم يفعل فهل مرد ذلك إلى أن كاتبنا لم يكن متيماً ذا لواعج؟

إن تصفحنا لما اشتمل عليه كتاب "معك" من رسائل لا بد مدرك أن طه حسين كان ذا حس مرهف، فها هو ذا يمنح زوجته تعريفا شاعريا للحب يكتب لها "كان أفلاطون يفكر أننا إذ نتحاب، فإننا لا نفعل سوى نعيد صنع ما أفسده عارض ما، عندما تنفصل نفسان عن بعضيهما، تبحث كل منهما عن الأخرى، وعندما يوجدان ويتعارفان، فإنهما

(1)- معك، ص 65

(2)- معك، ص: 52

لا يعودان كائنين وإنما كائنا واحدا، إنني أومن بذلك تماما... أتعلمين أنني أصبح صوفيا، لو كنت شاعرا لألفت الأناشيد ولغنيتها بنشوة، لا يهم قلبي يؤلفها ويغنيها ونفسي ترق وقلبي يلين، إنني لم أعد أتعرف على نفسي مطلقا... فلدي شخصيتان واحدة للعالم كله، وأخرى لك، لي، لنا، وفكرتك وحدها هي التي تجعلها تعيش،... ولكن أترين يا سوزان؟ أنا لا أتحدث إلا عني، إنني أنااني... وكل الصوفيين أناانيون.⁽¹⁾ لكن هذا الفتى الأزهري ظل متحفظا من إبداء ما ينتابه من لواعج.

وإذا كانت الرسائل ككتابات تخط دونما حضور لمتلقيها الذي لا يكون ماثلا للعيان فتمنح مدبجها بأس التحرر من قيود الخجل ولذلك سنرى عميد الأدب العربي الجسور المجادل يكتب لسوزان "أنا قليل الإفضاء بمشاعري، ولكنني صموت، وإنني على وعي بذلك تماما، لكن ما أكثر ما حدثتك منذ رحيلك عن أشياء لا تطيقين سماعها، لم أعتقد على الإطلاق بقدرتي على مثل هذا الحب. وستبقى دوما في أعماق نفوسنا زاوية كانت وستبقى دوما وحشية، ولن يمكن تقاسمها إلا بين كائنين، كائنين فقط، أو أنها لن تقسم على الإطلاق، هذه الزاوية الوحشية المتوحدة هي أفضل ما فينا،"⁽²⁾ فنحن إذن إزاء امرئ رقيق يغمره الاستحياء ولا يجسر على البوح في وجه من يهوى ومن ثم يغدو الخطاب لديه خير رسول. ويخاطبها مرة أخرى منوها إلى إثارة للإحساس والتعبير الموحى أكثر من رنوه صوب الافصاح العلني المكشوف "ثم إنك تعلمين جيدا أنني كثيرا ما لا أقول شيئا وإنما أتناول يدك وأضع رأسي على كتفك."⁽³⁾

د- على نحو مغاير يبدو الدكتور عباس الجراري داخل رسائله متيما ذا صباية، لا يتورع عن مناداة زوجته ب: حميدتي وزوجتي الحبيبة وعزيزتي وأنيسة القلب وزهرة الروح وخليلة العمر وما قارب هذه الألفاظ المخضبة الندية، وتكاد صيغ التحية أن تفضح مسعاه ومنها "مع عميق الأشواق ولذيذ القبلات أحبيك"⁽⁴⁾ أو "أحبيك وأقبلك

(1)- معك، ص: 52

(2)- نفسه، ص: 64

(3) معك، ص: 46-47

(4)- أشواق، ص: 189

وأضمك إلى صدري"⁽¹⁾ أو "من صميم الأعماق وفي أشواق ملتهبة أحبيك وأقبلك،"⁽²⁾ ولعل حديث الأحضان والقبل يوفي الأشواق وأحاديث المقل. بل إنه لا يخشى أن يشركنا في ما يساوره من أحلام ملهبة، إذ تستبد به كلما عظم منه الاشتياق، فقد كتب إلى حميدته وقد زارته في الحلم ثلاث ليال فكتب "ليلة ثاني نونبر حيث رأيت أننا في "رشدي"، والثانية ليلة الثاني والعشرين منه وكنت في ذلك الحلم عروسا فاتنة تزف والثالثة والأخيرة ليلة العاشر من ديسمبر حيث كنت بين ذراعي أرتشف من رحيقك... فمتى حميدتي سنخرج من عالم الحلم إلى عالم الحقيقة؟"⁽³⁾

كما أتاح لنا عبر صحائف خطاباته أن نشهد حكاياته وجدالاته، عتبه أو غضبه، حبوره أو كربه، قوته أو وهنه، منطلقا على ذات السجية التي حبر بها رسائله، دون أن ينحو صوب الحذف أو الحجب أو الإلتلاف، بل ارتضى أن ينشرها مرقشة بخط يده كما بعثها مفعمة بالحنين. وهو ما افتقده الدكتور طه حسين الذي لم تكن له الجسارة لإذاعة الخطابات التي وصلت الود بينه وبين عزيزته سوزان.

هـ- خصيصة أخرى يتباين فيها العميدان هو أن الدكتور عباس الجراري كان يكتب رسائله بنفسه حين يدلف إلى غرفته وحيدا، يشتاق فيعبر ويحن فيحبر في سكون يبيع له التذكر والتفكير مما حدا به إلى المكاشفة والصدع والبوح كيفما عن له. أما الدكتور طه حسين فكان مجبرا نظرا لافتقاده لحاسة البصر للاستعانة بمن يكتب ويقراً له، ولا غرو أنه كان يحس بعض الحرج في التعبير عما يخالجه وهو يملي الخطابات على مرأى ومسمع من آخرين يرونه ويسمعهم، تقول زوجته "كان الأصدقاء الذين فرضوا أنفسهم على طه كريهين، مزعجين، ومتطفلين بشكل غير عادي، فقد كانوا يستمعون إليه وهو يملي ما يكتب لي، ويستمعون إلي ما أكتب إليه، كان متعبا وساخطا."⁽⁴⁾

(1)- نفسه، ص: 195

(2)- أشواق، ص: 199

(3)- نفسه، ص: 86-87

(4)- معك، ص: 56

ويأسف لهذا المآل فينفث حسي را ".فأنا لا أراك، ولا أرى صورتك ولا أستطيع أن أكتب إليك بنفسى...آه"⁽¹⁾

وعلينا ألا ننسى أن الدكتور طه حسين كان أزهرىا وقد يكون لهذا الانتماء دور فى إعراضه عن نشر رسائله إلى زوجته وذلك ربما لاشتمالها على مناح ذاتية لم ير غاية من وراء نشرها على الملأ، سيما وأنه حين كتب سيرته "الأيام" أو ما إلى الرسائل التي أئنع داخلها عشقه وسوزان لكنه ما أورد نماذج منها قط.

وقد تكون عاهة العمى أحد الأسباب التي حملته على الزهد فى إذاعة الخطاب، فالرسالة لديه ليست محمولا ورقيا وإنما هي نبرات صوت يتلقفها، ومن ثم فهو لا يحفل بها كصحائف كونه لا يملك إمكانية قراءتها، وفى إحدى رسائله يوضح "ولكن كيف أعمل بدون صوتك الذي يشجعنى وينصحنى، من دون حضورك الذي يقوينى؟ ولمن أستطيع أن أبوح بما فى نفسى بحرية؟ ستقولين لي عليك أن تكتب لي، لكنك تعلمين جيدا ان الكتابة غير التحدث، وأن قراءة رسالة ليست هي الاستماع إلى صوت."⁽²⁾

ورغم أنه كان معتدلا فى الإعلان عما يخالجه فلم يفرط ولم يسهب إلا أن زوجته التي لم تألف منه هذه التعابير الندية قالت "ومن المؤكد أن أحدا لم يكن ليتوقع أن يجد لدى هذا المجادل العئيف مثل هذه الحساسية المرهفة التي تجعله يكتب:

"لو قارنت نفسى بشيء ما، لقارنتها بهذه الأرض الرطبة على شواطئ النيل فى مصر العليا، تلك الأرض التي بمجرد أن يلمسها المرء، ولو مجرد لمسة خفيفة يتفجر منها الماء."⁽³⁾

لم تكشف رسائل طه حسين عن كل ما حوته بيد أنها أجلت لنا روحا رقيقة تهوى وتحب، تشتاق وتحن، تحسن صياغة عبارات التعلق والافتنان للزوجة سوزان مع

(1)- معك، ص: 61

(2) معك، ص: 46-47

(3)- معك، ص: 58

تحفظ قد يرد إلى أزهريه الكاتب أو خجله من إبداء كل ما يخالجه أمام الأعراب، وقد يعود ذلك ربما لعدم اطلاعنا على خطباته التسعين برمتها.

أما عميد الأدب المغربي فإنه انتهج مذهب السفور والعلن، فتجراً وأبدى ما كان قد خطه في استتار حين نشر رسائله إلى زوجته بكل افتخار.

2. بين العقيلتين سوزان وحميدة

لعلي إذ خصصت مبحثا بعينه للسيدة حميدة زوجة عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري وعقيلة عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، فذلك لأنهما كانتا حاضرتي الخطابات ولهما كامل الفضل في صونها دونما تلف أو ضياع، وقد سمحتا لنا بالتلصص على تلك المكاتبات وإن كانت تمثل جزءا من تاريخهما الشخصي، ومن ثم سندنو منهما انطلاقا مما اشتملت عليه رسائل أزواجهما، فقد قادتا زوجيهما بكل تفران نحو الريادة ولم يهنأ لهما بال حتى استوثقتا من اعتلائهما مراقبي الفكر والأدب كليهما.



2 بين العقيلتين سوزان وحميدة

تمتلك زوجات الأدباء الحظ الأوفر في حث هؤلاء على المضي قدما في مراقبي الإبداع بما يشعنه من سكينه ودعة أو في تثبيط همهم وحملهم على الإخفاق والنكوص بما ييشن من توتر وقلق، ولا غرو أن هذا ما حمل توفيق الحكيم على أن يصير أن توقع زوجته قبل عقد القران على خمسة عشر شرطاً، وتقر بالموافقة عليها كتابةً؛ وكانت شروطاً قاسية تصب جميعها في مصلحته ككاتب وأديب ومفكر لا يريد من الحياة غير الكتابة⁽¹⁾!

في سنة 2020 أخرجت السيدة حميدة الصائغ الجراي من مخدعها الرسائل التي كان زوجها الدكتور عباس الجراي قد وافاها بها إبان بعثته العلمية إلى تركيا عام 1968، ومن هذه الخطابات المشبوبة بدت رحلة نسيم البوسفور مشرقة بهية، وحين أوشك الحول أن ينصرم سنة 2023 فتحت صندوق ذخائرها وأفضت لنا بأثمن مكنوناتها حين منحتنا خطابات حانية حبرها العميد مفعمة بالصباية يضمخها بالوجد، انسحبت على ربح من الزمن ليس باليسير من حياتهما من سنة 1960 إلى أواخر عام 1981. ولا غرو أن هذه السيدة التي كانت الإلف والسند لكاتبنا اتسمت بشيمتين :

1- القدرة على صيانة خطابات تعود إلى ستة عقود ونيف (63 سنة) فقد حضنتها وحفظتها من الضياع ورتبتها ولم تهمل حتى الأظرفة التي فيها وصلت إليها، ولعل ذلك يشي بمدى تقديرها لقيمة هذه المكاتبات كونها توثق لتطور علاقتها بزوجها، فضلا عن اشتمالها على الذكريات المشتركة لهما لأنها "تعكس كل ما مر به وما أحسه

(1)- مجلة "عالم الكتاب"، عدد 28 - يناير 2019 بتصرف

وما عاناه وما عاشه من وقائع صغيرة أو كبيرة يعرضها بتفصيل قصد إشراك متلقيها في كل دقائقها مما يخفف حدة الإحساس بالغربة والوحدة لكلا الطرفين، ويعمل على إشراكهما واستمداد القوة والعون من بعضهما البعض"⁽¹⁾

2 التحلى بجرأة الكشف عما يعتبر ملكا ذاتيا وكتابة شخصية فيها أسرار كثيرة وأخبار وفيرة ترتبط بها وبالكاتب كليهما، غضب واستيحاش، حنين واغتراب، عتاب وقلق، دموع وفرح، توق ومشاعر مضطربة، لكنها ما أحجمت عن قرارها بل اشترطت "أن يصدر الكل وأن يتم بالتصوير وليس الطبع حتى لا يساور أي مطلع من قريب أو بعيد أي شك في تحريف أو زيادة أو نقصان" متوخية الأمانة في نشر هذه الكتابات كما حبرت دونما حذف ولا إضافة.

3- الإشراف الشخصي على جمع وترتيب الخطابات حسب تواريخها ونسخها مع الأظرفة والبطائق البريدية في أضمومة حملت عنوان أشواق مع تصديرها بمقدمة هي الخبيرة بالمقدمات، وبعد أن استعرضت التأليف ذات البعد الذاتي التي تم نشرها للعميد قالت: " والأخيران أصلهما رسائل وجهها الأستاذ عباس الجراري لزوجته وتضمنت استعراضا لمرحلة من حياته الفكرية والأدبية والاجتماعية."⁽²⁾، وقد بلغت الخطابات 51 خطابا والبطائق البريدية 28 بطاقة و5 من الصور الشخصية للعميد.

وعلى نحو مباين تطالعنا السيدة سوزان طه حسين عينا هذا الكاتب وسنده والتي رافقته في مسيرة حياته ومشواره العلمي غير اليسير، وقد انتهجت سبيلا مغايرا يمكن أن نجمله في نقاط مخصوصة :

1- لم تمتلك السيدة سوزان جرأة نشر الرسائل التي توصلت بها من عميد الأدب العربي ولم شتاتها في كتاب مثلما فعل ابراهيم عبد العزيز حينما أعد كتاب "رسائل طه حسين" والذي اشتمل على خطاباته لمفكرين وأدباء عاصرهم.

(1)- أشواق، ص: 10

(2)- أشواق، ص: 9

2- حينما نشرت كتابها "معك" علمنا من بين ثناياه وجود رسائل خاصة وافاها بها الدكتور طه حسين حينما أفصحت "حملت إلى منزل ابنتي بالمعادي رسائلك التي أريد أن أقرأها بهدوء كلما استطعت إلى ذلك سبيلا، وقد انزلت إحداها هذا الصباح من الرزمة." ⁽¹⁾ إذن ثمة عدد وافر من الخطابات كيما يشكل رزمة، وما تلبث أن تحدد تاريخ هذه الخطابات حين تقول: "كان الطبيب حاسما عندما قال لي: "لا بد من ذهابك إلى فرنسا" كانت الصغيرة مصابة بفقر الدم، في حين أن أخاها كان يزن وهو في الشهر الثامن من عمره ستة كيلوجرامات" ⁽²⁾ ثم تضيف "كانت هذه الأشهر الثلاثة من الفراق مؤلمة، وكنت أشكو باستمرار متوقعة تراجع طه عن قرار سفري، وهو الذي كان قد قبل بل طالب بسفري من أجل صحة زوجته وطفليه" ⁽³⁾، وسرعان ما تعلن "كنا خلال هذه الأشهر الثلاثة نتبادل الرسائل كل يوم، كانت رسائله تحكي لوعة الغياب، وتنطق بشجاعته وحبه وهيامه ببلده، وتصور مشاريعه وأحلامه والأحداث التي كان يقص علي تفاصيلها مع شيء من السخرية أو المرح أو العنف" ⁽⁴⁾ وإذا بنا ندرك العدد "ليس هناك من بين الرسائل التسعين رسالة واحدة لم تكن اعترافا أو عطاء... أمن الممكن أن أكون محبوبة على هذا النحو وأنني كنت المقصودة بهذا السيل من الحنان والعاطفة؟" ⁽⁵⁾، بيد أننا لا نلف من هذه الرسائل التسعين عدا مقتطفات من بعض رسائله تدرجها ضمن ما تسطره من سيرته معها، فلا نتمكن بالتالي من التعرف على رسم تمثل تام لهذه الخطابات التسعين.

3- تحدث طه حسين في كتابه الأيام عن رسائل جمّة بعثها إلى سوزان أثناء حبه ثم خطبته لها، حيث قال: "وكان يسعد بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه بين حين وحين فيها كثير من الأمل المشفق، وكثير من التشجيع على احتمال النائبات، وربما اشتملت

(1)- معك، ص: 38

(2)- معك، ص: 38

(3)- نفسه

(4)- نفسه

(5)- نفسه، ص: 64

هذه الرسائل على زهرة قد جففت وأرسلت اليه ليحملها كما تحمل التمامم ولتذكره إذا عرض له النسيان"⁽¹⁾، ثم يضيف "وأقبل الصيف وكان الافتراق ذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب وبقي هو في باريس، واتصلت بينهما الرسائل." ⁽²⁾فأين هي إذن هذه المراسلات التي كانت أول من أشعل شرارة الحب بين تلك القارئة الفرنسية وذلك الفتى الأزهري؟

4 لست أرجح كفة الضياع، لكنني أعتقد أن الذي حجب هذه المراسلات عن الانتشار ومنع من إخراجها من السفور إلى العلن إنما كان قرارا من سوزان يعود إلى طبيعتها الكتومة التي كانت متحرجة من اطلاع الآخرين على رسائلها ورسائل زوجها، فقد صرحت "كان الأصدقاء الذين فرضوا أنفسهم على طه كريهين، مزعجين، و متطفلين بشكل غير عادي، فقد كانوا يستمعون إلى إليه وهو يملي ما يكتب لي، ويستمعون إلى ما أكتب إليه، كان متعبا وساخطا،"⁽³⁾ وقبل هذا التاريخ بوقت طويل وحتى قبل أن تخطب للدكتور طه نراها حين سافرت للجنوب واتفقت على تكثيف جسر التراسل بينهما، يخبرنا الكاتب : " ولكنها قبل أن تسافر كلفت زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه." ⁽⁴⁾إذن فإذا كانت تأنف من زميل له فكيف ستسمح لآلاف القراء أن يشاركوها ما أسره لها خطيبها وزوجها؟.

5- لقد أضاعت سوزان بفعلها هذا على جمهور القراء فرصة الاطلاع على خبايا شخصية رجل استثنائي لم يعقه عماءه من أن يكون أول عربي يحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون، ولا أن يصير وزيرا للتعليم ولا أن يغدو عميدا للأدب العربي برمته فلعله الخجل وربما الحرج من منعها من إظهار اليسير وإخفاء الكثير. فهل كان

(1)- الأيام، ج:3، ص:421

(2)- الأيام، ج:3، ص:449

(3)- معك، ص:56

(4)- الأيام، ج:، ص:449

في تلك الرسائل ما يهرج وتخشى أن يعبث بشخصية العميد؟ لا نستطيع الجزم في الإجابة ولكن حينما نعود إلى ما أوردته من مقاطع اجترأتها من بعض الرسائل نحس تحكّمها في الاستشهاد بتلك الخطابات، فمثلا في ص:50 من معك تقول: "وفي السابع والعشرين من الشهر تصل رسائلي أخيرا فيتألق من الفرح ويأخذ في كتابة أشياء جنونية، لكنه يكتب أيضا: ها نحن أولاء معا من جديد، واكتب النحيب، وأترك جفني شبه مغمضتين لأمنع سيلان الدموع." ⁽¹⁾ فما هي هذه الأشياء الجنونية ياترى؟ هل فيها ما يخجل؟ لسنا ندرى.

نحن إذن إزاء زوجتين فيهما حبرت الرسائل ومن أجلهما غمس القلم في حبر الكتابة إحداهما وهي حميدة التي بسخائها بالخطابات التي صانتها، وبعدم احتكارها لما كتبه فيها وإليها عميد الأدب المغربي خلدت ما فيها كتب وأخرجته من ظلمات الفقد إلى ضياء الخلود، وأدنتنا مما استتر عنا من شخصية الدكتور عباس الجراري. وتكاد السيدة سوزان بحجبها ما لم تدعه أن تكون قد نأت بنا عن تمثّل دقيق للدكتور طه حسين.

وبهذا فقد تحفظت الفرنسية القادمة من بلاد الغرب وآثرت نفسها بخطاباتها بينما كانت العربية المثقفة أكثر سخاء لإدراكها قيمة هذه الكتابات ذات السمات الذاتية.

ولئن اختلفت الزوجتان بهذا الخصوص فقد تضارعتا في حب أزواجهما لهما وشدة تقديرهما لجهودهما فإذا كان عباس الجراري يعترف "فقد كانت حميدة ترغب أن تبقى باستمرار إلى جانبي معينة لي ومساعدة في أشغالي العلمية، وخاصة ما يتعلق بتهيئتها للنشر والاتصال بالمطابع مع ما يتطلب ذلك من نقل بعض النصوص وتصحيحها بعد الرقن. إلا أنها لم تكتف بهذا فافتحمت مجال جمع بعض ما يكون مفرقا عندي من عروض، إضافة إلى اهتمامها بالنادي الجراري وما تتطلب اجتماعاته الأسبوعية بعد

(1)- معك، ص:50

عصر كل جمعة من ترتيب دقيق وتنظيم محكم"⁽¹⁾ فهذه الفتاة التي ذهبت إلى القاهرة لدراسة الحقوق كانت السند والعون لكاتبنا وعنها قال "اقتحمت تحت إشرافي مجال كتابة تقديم لبعض ما كانت تجمعه، على نحو ما تشبه بعض مؤلفاتي المنشورة، وهي كلها جعلتها تعوض تخصصها القانوني بثقافة أدبية وجدت فيها متعة زادت حياتها الزوجية رسوخا والتحاماً، إذ جعلتها لصيقة بي في كل المواقف والمناسبات، على صلة بطلابي وزملائي والاصدقاء، وذات حظ أحياناً مما يقام من تكريمات."⁽²⁾

وفضلاً عما أدرجناه داخل متن الكتاب عن حميدة فقد قال عنها الكاتب : "ولا أخفيك حميدتي إنني كنت أرتاح كثيراً لمجالستك...لما كنت ألمح خلال محادثتك من ذكاء فائق ونظر بعيد وتصور للحياة إن لم يكن نفس تصوري لها فهو أقرب ما يكون إليه، وربما كان هذا الارتياح أول خطوة نحو الحدث السعيد الذي جمعنا"، ورغم أنها ضنت علينا بخطاباتها التي بعثت للعميد إلا أننا سنسترق النظر لبعض ما كتبه لزوجها عباس، ومن شدة إعجابه بما أتت أورده كالاتي : "فعلى سطور ثلاث ما أظن في كتاباتك كلها أحلى منها. وأنقلها هنا بعد أن قرأتها مرات ومرات لما أحس في ألفاظها من شعور صادق وتحقيق لأحلامي فيك. تلك قولك :

"وعندها عباسي لن تسمع مني إلا ما تفتقده الآن من كلام طيب وحديث رقيق، وسأعمل ما في طاقتي لأجنبك كل مكروه ولأكون لك خير راعية ولأحقق لك في حميدتك كل ما تتمناه وتصبو إليه وكل ما أريد وأتمنى أن أمتعك به"،⁽³⁾ ومرة أخرى نصادف بوحها الحاني "وهكذا عباس كان حبي يقوى في كل مرة أراك معرضاً فيها لأي شر"⁽⁴⁾. ولعل هذا الشغف ضمن لهما ذات الميول، يقول الدكتور عباس الجارري متحدثاً عن عميد الأدب العربي: "وكانت عادته أن يزور شعبة اللغة العربية مرة كل

(1)- رحيق العمر، ص: 142

(2) نفسه، ص: 143

(3)- أشواق، ص: 108

(4)- نفسه، ص: 119

أسبوع ويلقي في مدرج بالكلية محاضرة عن الشعر العربي الحديث يحضرها طلاب الدراسات العليا ومجموعة قسم الامتياز... وأذكر هنا أن الطالبة حميدة الصائغ التي بدأت علاقتي بها تتقوى في هذه الفترة، والتي كانت مسجلة بكلية الحقوق التي تقع بنايتها في مقابل مبنى كلية الآداب، كانت تحضر إلى المحاضرات عميد الأدب وتساعدني على تدوين بعضها.⁽¹⁾

وتطالعنا السيدة سوزان والتي يحلو لها أن تقرأ رسالة طه التي كتب فيها "كان لطفي بك يقول :.. إن طه لن يستطيع العمل بعيدا عن زوجته، ذلك أن قلبه لا يكون آنذاك معه، أي نعم ولا كذلك عقلي، ولعل سكرتيري قد ضحك في نفسه، فهذا الشاب لا يومن بالحب، ولم أكن أنا نفسي لأومن به إلى أن جاء، فلم أعد أنا نفسي ما كتته"⁽²⁾ ويروق لها شوقه في نهاية إحدى الرسائل "قبلي الطفلين وحدثيهما عني كثيرا فذلك يسعدني، وعندما تروق لك البيرينييه أو يروق لك اي مشهد آخر ففكري بي بهدوء وجدل، فكري فكري أنني إلى جانبك وأني أرى بعينيك وأني أعاني كل ما تعانيه."⁽³⁾

لم تأل حميدة جهدا وهي تشد من عضد زوجها، تسعفه في حالات مرضه وتسندة إبان أزماته، تجلي عنه ما قد ينغص عليه صنفو حياته، وتفرح معه بالنهايات السعيدة، ولعل سوزان لم توفر من طاقة عونها لشريك حياتها فله قرأت وإلى قاعات الامتحان رافقتة، خففت عنه حين ضاقت نفسه وآمنت به حين خذله الآخرون واحتفلت معه بانتصاراته وتحقيق الأمانى. فحق للعميدين أن يفخرا بمن بهما اقترنا.

(1) - رحيق العمر، ص: 102

(2) - معك، ص: 38

(3) - معك، ص: 48



الفصل الرابع صبغة اللقيا

1 الرسائل وتباين المعمولات

2. الرسائل وملء، البياضات



مقدمة

في الحياض الجراحية لم ينضب جب الترسل قط ولا جفت غدران الكتابة، فلم تكذ زمرة الرسائل العباسية تصطف وبقاظة الخطابات تتكاثف وتلتف والدراسة حولها تنجز بجد وتطبع وتصفى بمنتهى الظرف، حتى باغتتني السيدة حميدة الصائغ الجراحي حرم عميد الأدب المغربي تغمده الله برحمته ذات غداة بنيا عثورها على حزمة جديدة من الرسائل الشخصية للدكتور عباس الجراحي. وعن هذه اللقيا ذات التفرد أفصحت في تقديمها لها: «تشاء الأقدار زوال 16 أكتوبر 2024 أن أتشجع وأدخل مكتب المرحوم بعد أن تهيت ذلك لشهور. وبدون تفكير وجدتني أفتح أدراج مكتبه حيث فوجئت بظرف كبير مكتوب عليه «رسائل عباس». أخرجه وجلست أقلب محتوياته ففوجئت: إذا به يضم رسائل من المرحوم وأخرى إليه. وأهم ما لفت نظري ملف داخلي موسوم بعبارة «رسائل إلى حميدة بعد أن غادرت تركيا وعدت إلى القاهرة لمناقشة أطروحة الدكتوراه»⁽¹⁾. إن هذه المكاتبات التي ظلت متوارية في أدراج مكتب العميد بعد أن أئنع بعضها سنة 1962 وأزهر البعض الآخر خلال سنوات 1964 و1965 و1969، سيقض لها بعناية إلهية أن يتصوع عقبها عام 2024 وأن تلحق بأضمومة «أشواق» في طبعتها الجديدة بعد أن صدرت في نسختها الأولى على عجل تنفيذًا لرغبة العميد تغمده الله برحمته.

وبقدر ما اعترتني دهشة مبعثها أني كنت قد فرغت للتو من دراسة «أضمومة أشواق»، بل أكثر من هذا تمت المراجعة والطبع والتصنيف وأوشك الكتاب على الصدور، بقدر ما ألفتني أستجمع رباطة جأشي ويملكني التحدي في ألا أفوت فرصة خصني بها القدر حين وثق بي العميد أولاً فمحنني ما خطه لحييلته وظل مستترا لعقود

(1)- أشواق، ص: 258

متتالية، وثانيا حين منحني عقيلته ما تم العثور عليه من مكاتيب ظلت متوارية في خفر. ولعلي عازمة على مقارنة هذه النصوص والبطائق التي كانت في عداد الفقد للمقصد العلمي الذي يسكنني ولما رب أخرى وهي :

1- حينما منحني عميد الأدب المغربي عليه الرحمة والمغفرة أضمومة رسائله الشخصية « أشواق » كان يعتقد أنها تشمل كل ما خطه من مراسلات لزوجته وما بعثه من بطائق لأبنائه، وليس أدل على ذلك مما قالت عقيته السيدة حميدة في تقديمها لها: « وجدت الدكتور عباس يثير انتباهي وفي إلحاح شديد لإخراج ملف « أشواق » وهو الذي كنت أجمع فيه كل ما خصني به من خطاب نثرا أو شعرا أو بطاقة بريدية». (1) ولا غرو أنه كان ساعتها كما قالت السيدة حميدة «في ظروف صحية صعبة » ولأجل هذا ربما سلا وسها عن الرسائل الموضوعية في درج مكتبته .

2- أو مات في دراستي لأضمومة أشواق في طبعتها الأولى، أني لم أعثر على بضع رسائل وبطائق كان العميد قد صرح ببعثها، ومنها رسالة دبجها ليلة السبت 24 أكتوبر 1981 وقال بصدها في رحلته ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية : « كتبت رسالة إلى حميدة هذا المساء وسأبعثها صباح غد إن شاء الله بالبريد من ديترويد». (2) وكذا بطاقتين بعث إحداهما لابنته علا يوم 26 أكتوبر 1981 والأخرى لنجله محمد يوم 28 أكتوبر 1981 لكننا لم نعثر لها على أثر كما أسلفت (3) .

يبد أن الأمر لا يتعلق هنا بوضع مكاتبات بل بظرف يشمل إحدى وعشرين رسالة بالتمام و 14 بطاقة بريدية و 68 وريقة مما يندرج ضمن رسائل التهاني ورسائل الهدايا. وحرى بنا أن نتساءل حول العلة الثاوية خلف عزل هذه المكاتيب عن غيرها، وأخذها من مجموعة أشواق دون علم راعيتها السيدة حميدة، التي كانت تعتقد أنها تجمع كما تقول: « كل ما خصني به من خطاب نثرا أو شعرا أو بطاقة بريدية».

(1)- أشواق، ص: 9

(2): ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، ص: 58

(3)- أنظر متن هذه الدراسة، ص: 54-55

فهل أخفى الدكتور عباس الجراري هذه الخطابات عمدا في درج مكتبه بعد ان استلها خلصة من الأضمومة لشيء لا يريد الكشف عنه وإذاعته؟ أم أنها ووريت هناك لمرمى مخصوص؟

حينما نطالع الخطابات والبطائق والتهاني لا نلبث أن نخلص منذ البدء إلى أنها لا تحوي ما يعيق نشرها ويمنعها من الديوغ، فهي رسائل لا تباين ما ضمه مجموع أشواق، مخطوطة على ذات السميت وتنضح بدلالات لا تنبو عن الاشتياق والحنين والإنباء عن ما يجري وتضمين ما يحدث وتوثيق الوقائع في انسياب ترسلي لا يفتر.

فما الباعث إذن على عزلها في درج موصل و ما الداعي إلى تمييزها عن بقية المسطورات؟

لئن قالت السيدة حميدة موضحة علة وضع ملف هذه الرسائل جانبا: « رجحت أن الأستاذ كان ينوي الاستناد لما فيه توثيقا لمرحلة من مراحل عمره كان سيجعلها في الجزء الثاني من رحيق العمر، »⁽¹⁾ فإنني أروم صوب الاعتقاد أن الدكتور عباس الجراري استعان بهذه الخطابات والبطائق في ما خطه سلفا في الجزء الأول من موجز سيرته « رحيق العمر » الموسوم ب : « النشأة والمشروع » مستندة في هذا الطرح إلى دليلين اثنين هما :

1- لم يلبث الكاتب أن أعلن في المقدمة التي استهل بها الجزء الأول من موجز سيرته الذاتية مصرحا : « فهذا جزء أول من سيرتي الذاتية التي سميتها « رحيق العمر » وقد خصصته لمرحلة النشأة وما كان يشغلني فيها من مشروع علمي كتب الله لي فيه بعض التوفيق، على أن أتبعه بجزء ثان قد يكون عنوانه « الشهود الفاعل ». وفيه أتناول ما شاهدت وما ساهمت به قدر الإمكان في الشأن الوطني العام، تحت ظل ثلاثة ملوك عظام هم :

- جلالة الملك المجاهد بطل التحرير محمد الخامس طيب الله ثراه.
- وجلالة المغفور له مولانا الحسن الثاني : المثقف الكبير والسياسي المحنك الذي استطاع بوطنيته ودهائه أن يحفظ للمغرب كيانه ووحدته ويرد عنه كل الدسائس والمؤامرات .

(1)- أشواق، ص: 285

- ثم جلالة الملك سيدي محمد السادس المفكر المتزن والسياسي المتبصر والمجدد المستنير.

وقد أضيف إلى الجزئين الأول والثاني جزءا ثالثا يتضمن مجموعة من الصور الشخصية والعامة المواكبة لمراحل هذه السيرة.⁽¹⁾

يبدو جليا أن الدكتور عباس الجراري عقد العزم على أن يغدو الجزء الثاني من سيرته الذاتية والذي رنا أن يسمه ب«الشهود الفاعل» مخصصا كما يقول لما «شاهدتُ وما ساهمتُ به قدر الإمكان في الشأن الوطني العام، تحت ظل ثلاثة ملوك عظام.»⁽²⁾ بيد أن المكاتب المعثور عليها لم تكن تمت إلى هذا المنحى بصلة، إذ ارتبطت برمتها بالجانب الشخصي للعميد، بل إن البطائق التي بدت لم يكن بالإمكان الاستعانة بها في تدبيح الجزء الثالث من موجز سيرته والتي نوى أن يخصصه للصور قائلًا إنه: «سيتضمن مجموعة من الصور الشخصية والعامة المواكبة لمراحل هذه السيرة» حيث أن كل البطائق التي وجدت كانت بريدية وتحمل غالبا صور معالم المدن التي زارها، ما عدا ثلاث بطائق بريدية بعثها لابنته ألفة تضمنت صور قطط لطيفة وفتيات تركيات بلباسهن التقليدي⁽³⁾، والحال أن هذه البطائق بأجمعها لا ترتبط بالصور الشخصية أو الرسمية أو العامة المأمول نشرها.

2- يفضي بنا التأمل المتفحص لهذه الرسائل والبطائق التي كُشِف الستار عنها بعد استتار، إلى الاعتقاد أن الدكتور عباس الجراري ركن إليها وهو يخطط الجزء الأول من موجز سيرته، وذلك لغاية الثبوت من بعض الأحداث والوقائع التي مرت به ونأى العهد بها، وليس أدل على ذلك من أن ما حوته الرسالة التي بعثها من الرباط إلى خطيبته حميدة التي كانت ساعتها طالبة بكلية الحقوق بالقاهرة يوم 17 أكتوبر 1962 والرسالة التي خطها لها يوم الاثنين 5 نونبر 1962 هو ذاته ما أورده في الصفحتين 116 و 117 من الجزء

(1)- رحيق العمر، ص: 16 - 17

(2)- نفسه، ص: 17

(3)- ما عدا ثلاث بطائق تحمل صورتين لقطط بعثها لابنته ألفة من تركيا، الأولى يوم 6 غشت 1986 والثانية يوم 17 دجنبر 1968 وصورة أخرى لطفلات تركيات بلباسهن التقليدي وافاها بها يوم 23 غشت 1968

الأول من سيرته الذاتية حين كتب «على أي طوال الشهرين اللذين قضيتها في وزارة الخارجية، كان لي برنامج جانبي ألقى فيه خارج مواعيد العمل الإداري بالوزارة دروسا بكلية الآداب ومدارس محمد الخامس، على النحو التالي :

1- دروس في مادة الأدب العربي بدعوة من العميد المرحوم محمد عزيز الحبابي ألقيا على طلبة السنة التحضيرية بالكلية، يوم الاثنين من الثامنة إلى التاسعة صباحا بالقاعة رقم 51، ويومي الخميس والسبت في نفس التوقيت والقاعة للتطبيقات .

2- دروس في الترجمة لتلاميذ السنة الرابعة من الثانوي، بمدارس محمد الخامس، وكانت بدعوة من مديرها المرحوم الحاج عثمان جوريو، وكانت موزعة كالآتي :

- صباح يومي الثلاثاء والأربعاء من الثامنة إلى التاسعة للتعجيم .

- بعد ظهر الثلاثاء من الثانية إلى الثالثة، ويوم السبت من الثالثة إلى الرابعة للتعريب.⁽¹⁾

ويبدو أنه عاد إلى الرسالتين من أجل التأكيد والتيقن من الوقائع، فقد تضمنت رسالة أكتوبر حديثه عن شروعه في التدريس في مدارس محمد الخامس كالآتي⁽²⁾ :

(1)- رحيق العمر، ص: 116-117

(2)- أشواق، ص: 289، رسالته من الرباط إلى حميدة بالقاهرة يوم 17 أكتوبر 1962

كما أن قد شرعت صباح اليوم في إلقاء دروسنا لرحمة علي تلافيد
الرابعة (عكسه) ، وعدد المحل ٧١ جويعه كالتالي :

الأول : من الثانية حتى الساعة صباحا

من الثانية حتى الثالثة بعد الظهر

الأربعاء : من الثانية حتى الساعة صباحا

الخميس : من الثالثة حتى الرابعة ظهراً

هذا بالإضافة إلى أني لم أتفقد مع المدرس على محلي و مواد أفرى وخاصة
"الفلسفة" التي يلج في إعادها إلى. وسوف أطلعكم على النتيجة
حالما أنتهي إليها .

ولعلكم تعلمون أنني سأتحدث غداً في فرع في تلقى دروس ١١ سبباً
التي وزعت عليكم على النحو التالي :

الأثنين : من الساعة والرابع حتى الثانية والرابع مساءً

الأربعاء : - - - - -

وفيما عدا هذا فلا جديد لي إلا أنه الجلسات صممة في البيت مع
أولاد الفقير الكوري وعمر البهاوي الذي أصبح يتقل بالرباط ، وأنه
السيد المهدي الدليو التحل بوزات صباح ليخبرني أنه أصبح ملقاً
بديوانه وزير البريد ، وهو يعلم عليّ ويحتمل له التوقيع ، وقد
تناول الغداء على يوم الجمعة الماضي مع جله الأصدقاء . كما تناول
اليوم على زينة الأصدقاء صواطو والداودي وخاله شبيل وللمهم باليوم
غداً ويجمعهم عليّ .

أما العدد الذي انتهت إليه سلسلة الكتب المتفانية التي لدي
فتتمة وثلاثون مع ١٢ شارة إلى أنه العدد ٤١ و ٦٠ موجوداته

بينما وثق خطابه لشهر نونبر ارتياده لتجربة التدريس بكلية الآداب⁽¹⁾:

المهم أننا نصينا وقتنا مجتمعاً وإبه كنت زعلاناً من مغيب الذي لا نرى بوجوده في
الرباط، فخلال الاسبوع كله لم أتألم إلا مرات معدودات، مرة ضربنا موعداً بمغلي باليما
ومرة حضر لتناول العشاء معنا وكانه ذلح مناد الجمعية الماضية حيث بات معنا. وأتقت
معوايه كما سيريد أنه أصاحه للبيضاء أنه يتغذى معنا نفضل، فانظر إلى هذا "التعزاز"
الذي كانه يظفرت إلى الذهاب للبيضاء خلال الاسبوع حتى أزرور البيت وأنجب (أي
مغيب) كما أنجب وإبه كما هو يدي أنه كثر الأشغال تمنعه من ذلك، على أنه
لا أريد أنه أسبب له تأخيراً في الدرس أو المراجعة، ولكنه عليه أنه يعتبر أنه له أهلاً وسيتا
في الرباط.

ولعلك تعلميه أننا بعد أن كنا لا نفي بالمواظبة على أنه يعود، أرفنا له ثانية
بالبقاء إذ ارتأى والذي بعد أصلا بالمسؤولية في الوزارة وكلية الطب الجديدة أنه يظل
لنا في بيوت. وفلا نفد استقر الآلة، ويظهر أنه سيجزم نفسه أكثر مما سببه،
وإن أردت أنه تكتبي له فغفواج لم يتغير.

ثم إنك قد غفرت عدم موافقتك على أنه أدرسي بالكلية نظراً لضيق الوقت،
ما جعلني أنك طويلاً طوال ظهر الجمع وكنت أنه أصل إلى اتخاذ رأي موافق وأبطله،
لولا أنه عميد كلية الآداب اتصل بعشيرة البيت وطلب مني أنه أزرره في مكتبه بأنه
تدبير اللطيف. وكذا للمحكيه فحيت فقد ظلمت مع هذا الصباح من الناس إلى
العاشرة ولف وانتهينا إلى أنه أكلت باللطيف التالية:

الاثنين	من 8 إلى 9 صباحاً	=	أدب عربي
الثني	~ ~ ~ ~ ~	=	~ ~ ~ ~ ~
البي	~ ~ ~ ~ ~	=	طبقات

لهذا وقد كنت محيراً في تدبير الاوقات، بل انه قال لي بعد هذه التمدد: "إذا أردت
أنه يتغير فلا بد من ذلك وبالطبع إلا أنه تراي طلي إلا ساعة الأخيرة، فلا بد
من التافئة صباحاً حتى التافئة مساءً"

ولهذا التمدد زيرت هذه اللطيف على طلي المله ليس، أرجو أنه يعرفني الم ويغيب
للغلب على كل اللعاب حتى السطح أنه أظن رسالة الماجستير وأتمها في أقرب
وقت.

وأود أنه أخبرني أنه قبضت الدرجة الأولى من الراتب وأود أنه أخبرني
كذلك أنه والد قال للوالدة إن ذلك "الآن عليه أنه يجزم نفسه ككثير من
فرد عودة حميرة".

(1) - أشواق، ص: 292، رسالته من الرباط إلى حميدة بالقاهرة يوم 05 نونبر 1962

ويكاد التطابق أن يكون تاما بين ما خطه الكاتب سنة 1962 في مكاتبيه وما ضمنه سيرته الذاتية سنة 2020، أي بعد انصرام ما يربو على ستة عقود (58 حولا)، إذ شكلت تلك الرسائل بدقتها وثوقيتها تأريخا للسيرة الشخصية لصاحبها .

وبعد أن كانت أضمومة أشواق في صورتها الأولى تضم إحدى وخمسين خطابا وأربع صور شخصية وافي بها الدكتور عباس الجراري قرينته، بالإضافة إلى ثمانية وعشرين بطاقة بريدية بعث لأبنائه (ألف علا ريم محمد) ستا منها وآثر حليلته بالباقي، فإن اللقيا الجديدة رفدتنا ب 21 خطابا و 14 بطاقة بريدية و 68 رسالة هدايا أو تهاني. لتمسي الأضمومة مشتملة في صورتها النهائية على 72 رسالة و 42 بطاقة بريدية و 68 رسالة هدايا أو تهاني.

وحرري أن نشير إلى أنه رغم العثور على حزمة الرسائل تلك، فإنني ما ألفيت داخلها الرسالة التي خطها لزوجته والبطاقتين اللتين خص بهما نجليه علا ومحمد وبعثها لهم من الولايات المتحدة الأمريكية في أكتوبر من عام 1981.⁽¹⁾ مما يدع الترقب للقطاف الترسلية الجرارية الدانية على الدوام قائما، وعسى أن نجد لقيا جديدة بها نستكمل أضمومة «أشواق من رسائل عباس الجراري لزوجته وبطاق بريدية لأولاده»، كيما نستلها من حيز التبويض ونولجها مملكة الشمول والإحاطة.

(1) - أنظر هذه الدراسة، ص: 54

1. الرسائل وتباين المصطلحات

إلى من قابلت بفيض من العفو والكرم والسماحة ما اقترفت من عشرات .
إلى زوجتي وحببتي وشريكة حياتي ومستقبلي وأمل العمالة .
إلى حميمتي مع خير لعاء وأفضل رجاء
بالحكمة والعافية في النفس وفي الذات⁽¹⁾
عباس الجبراري

(1)- أشواق، ص: 269



1. الرسائل وتباين المصطلحات

أورقت الرسائل الجراحية وأينعت وعلى أكف النأي ذوت وبعبرات الالتئاع ارتوت فربت وأزهرت، ومنحنا ما ظل مغمورا منها 21 خطابا و 14 بطاقة بريدية و 63 رسالة تهنئة أو بطاقة هدية، منسحة بعبقها وأسرارها وحكاياها على مدى ليس بالقصير، دُبجت أكثرها عراقية سنة 1961 وحُبرت آخرها وأشدها حداثة أوائل عام 2022. ولئن بات الترسل وتجوير الخطابات ديدن كاتبها، فقد ارتضى لمكاتبه في كل حين حاملا مباينا حسبما تفضي إليه سعة وقته أو ضيقها ومقدار نأيه أو دنوه من المرسل إليها، ولأجل ذلك ألفيناه يدبج الرسائل بيسر ويرسل البطائق ببذخ ويخط عبارات التهاني والتهادي بكل صبابة. وخلق بنا وإن كنا قد درسنا ذلك في الفصل الثاني من هذه الدراسة أن نلامس هذه اللقيا الجديدة حتى نسبر أغوارها ونستبطن كنهها.

أخطابات

لا نكاد نعاين التقديم الذي استهلته به السيدة حميدة الملحق الثاني الذي ضمته لملف أشواق، حتى يستوقفنا عنوان : «رسائل بعد العودة للقاهرة من تركيا»، ولا ريب أن علة اختيارها لذلك العنوان عينه أتت من كونها وجدت الخطابات ثاوية في خفر في درج مكتب عميد الأدب المغربي رحمة الله عليه داخل ملف موسوم كما سطرت بعبارة: «رسائل إلى حميدة بعد أن غادرت تركيا وعدت إلى القاهرة لمناقشة أطروحة الدكتوراه»⁽¹⁾

بدهي أن نترقب ونحن نرنو صوب هذه الرسائل أن نلفي مجموعة مكاتبات بعثها الكاتب إلى زوجته بين نهاية سنة 1968 ومنتصف عام 1969 من القاهرة حيث كان في آخر مراحل إعدادها لأطروحة الدكتوراه حول موضوع : «القصيدة : الزجل في المغرب» تحت إشراف الدكتور عبد العزيز الأهواني، والتي ناقشها يوم 29 مايو 1969.

(1)- أشواق : 285

بيد أننا لا نكاد ندير صفحة التقديم حتى نفاجأ برسالة أولى من أربع صفحات مؤرخة ب 17 أكتوبر من عام 1962 وثانية من ثلاث صفحات يوم 5 نونبر 1962 بل وثالثة من صفحتين يوم 12 نونبر 1962 وكذا برقية من خمسة أسطر أرسلت يوم 26 نونبر 1962. ولعل اللافت للنظر أن الرسائل الثلاث والبرقية تم بعثها جميعا من مدينة الرباط حيث كان الكاتب ساعتها مقيما بالمغرب بعد عودته من باريس إلى خطيبته حميدة التي كانت تتابع دراستها بالقاهرة آنذاك .

ولانلبث أن نصادف رسالة أخرى مؤرخة ب 7 يوليوز 1965 موجهة من الكاتب المقيم حينها بالقاهرة حيث كان يعمل بسفارة المغرب هناك إلى زوجته حميدة التي كانت تقطن بالدار البيضاء. وما كان ينبغي أن توضع ضمن رسائل هذا الملحق .

لست أعتقد أن الأستاذة حميدة قد فاتها هذا الأمر، هي العليمة بهذه الخطابات وخفائها، إلا أن تكون قد خشيت عليها من الضياع إن لم تنشرها ضمن أضمومة أشواق. بيد أنه كان من الممكن أن تشير إلى هذه الرسائل وأن تضعها في ملحق آخر على اعتبار أنها توثق لمرحلة ما قبل ذهاب الكاتب لتركيا .

فبالعودة إلى «كتاب نسيم البوسفور» الذي يوثق لرحلة الدكتور عباس الجراري إلى تركيا صيف 1968 فإن آخر رسالة كتبها توثق عودته إلى القاهرة مساء الثلاثاء 3 شتنبر من سنة 1968 حيث كتب ليلتها قبيل وصوله : « مرت ساعة ونصف منذ أن أقلعت الطائرة من مطار إسطنبول، كلها في غاية المتعة والراحة، وسوف لا يمضي أكثر من ربع ساعة قبل أن تنزل في القاهرة .»⁽¹⁾ وأكد ذلك في سيرته الذاتية «رحيق العمر» قائلا: «والتحقت بالقاهرة في سبتمبر 1968 لأقضي بقية هذا العام وجزءا من 1969 بمنحة من اليونسكو لإتمام البحث والإجراءات والتهيئات التي يتطلبها رفق الأطروحة والاستعداد لمناقشتها.»⁽²⁾ ومن ثم فإن عدد الرسائل التي تمت إلى هذا التاريخ بصلة بلغت 16 رسالة

(1)- نسيم البوسفور، ص: 200

(2)- رحيق العمر، ص: 110

كتبت بين 3 فبراير 1969 و 29 مايو 1969 من القاهرة. ولعلنا يمكن أن نرصد الرسائل التي ضمها هذا الملحق برمتها سواء التي كتبت قبل 1968 أو التي دبت بعدها مثلما تبدو في الجدول الموالي :

رقم	تاريخ الرسالة	مكان الإرسال	عدد الصفحات	رقم الصفحات
1	17 أكتوبر 1962	الرباط	04	287 290
2	ظهر يوم الاثنين 5/11/1962	الرباط	03	291 293
3	ظهر يوم الاثنين 12 نوفمبر 1962	الرباط	02	294 295
4	صباح يوم الاثنين 26 / 11 / 1962-	الرباط	نصف صفحة	296
5	4-5-1964	غير مذكور	صفحة ونصف	297 298
6	7-17-1965	القاهرة	صفحة واحدة	30
7	2-3-1969	القاهرة	صفحة واحدة	315
8	2-5-1969	القاهرة	صفحة واحدة	317
9	2-11-1969	القاهرة	صفحة واحدة	318
10	2-15-1969	القاهرة	صفحة واحدة	319
11	2-19-1962	القاهرة	صفحة واحدة	320
12	3-7-1969	القاهرة	صفحة واحدة	321
13	3-11-1969 مساء	القاهرة	صفحة ونصف	123
14	3-16-1969 مساء الأحد	القاهرة	صفحة ونصف	324 325
15	3-20-1969	القاهرة	صفحة واحدة	326
16	4-23-1969 مساء الأربعاء	القاهرة	صفحة واحدة	327
17	4-28-1969	القاهرة	صفحة واحدة	328
18	5-7-1969	القاهرة	صفحة واحدة	329
19	5-13-1969	القاهرة	صفحة واحدة	329
20	5-26-1969	القاهرة	صفحتان	331 332
21	5-29-1969	القاهرة	صفحة واحدة	333

لم تحد الرسائل التي جاوزت العشرين عن معمار الخطابات⁽¹⁾ كما أصل لها منظرو هذا سمت من الكتابة، فمن استهلها جميعا بعبارات التحميد «الحمد لله» إلى ذكر اسم المرسل إليها وهو: «حميدي»⁽²⁾ وتارة «زوجتي الحبيبة»⁽³⁾ وطورا «حميدي الحبيبة،»⁽⁴⁾ وتصديرها بعبارات التحية مثل: «تحيات وأشواقا»⁽⁵⁾ «تحيات صادقة وأشواقا»⁽⁶⁾ «تحيات وأشواقا وقبلات لك وللصغيرتين»⁽⁷⁾ «تحيات وأشواقا وقبلات»⁽⁸⁾ «ألف تحية وسلام وشوق إليك وإلى الصغيرتين وجميع أفراد الأسرة»⁽⁹⁾ «أحبك وأقبلك من الأعماق وأشواق ملتبهة»،⁽¹⁰⁾ وصولا إلى المتن الذي يطول فيبلغ 4 صفحات (رسالة واحدة) أو ثلاث (رسالة واحدة) وربما صفحتين أو صفحة ونصف (3 رسائل) أو صفحة واحدة (13 رسالة) وقد لا يتعدى أحيانا 5 أسطر (رسالة واحدة) مع الحرص على تذييل الخطابات كافة بصيغ الوداع نظير: «مع دعائي لك بالتوفيق والنجاح... أضمك في عناق طويل لأقبلك وأهمس في أذنك بأني أحبك في قوة لا تزيد مع الأيام إلا شدة ورسوخا»⁽¹¹⁾ مع قبلاطي الحارة سلامي لزميلتك العربية»⁽¹²⁾ «لك من العائلة أعطر السلام، ومني قبلاط حارة»⁽¹³⁾ «مع سلامي الحار للأسرتين ودومي لمن يعذب بعيدا عنك»⁽¹⁴⁾ - «دومي لمن

(1)- أنظر ص: 113 من هذه الدراسة

(2)- أشواق، صص: 287-291-294-303-

(3)- نفسه، صص: 315-317-318-319-321-326-327-328-329-330-331-333

(4)- نفسه، ص: 324

(5)- نفسه، صص: 287-291-303-333

(6)- نفسه، ص: 294

(7)- نفسه، ص: 317-318-319-326-328-331

(8)- نفسه، ص: 330

(9)- أشواق، صص: 324-327

(10)- نفسه، ص: 329

(11)- نفسه، ص 290

(12)- نفسه، ص: 293

(13)- نفسه، ص: 295

(14) - نفسه، ص: 303

يتربح لحظة اللقاء في لهفة⁽¹⁾، ويشكل التوقيع ميسما لم يغفله الكاتب على الإطلاق حين ذيل مكاتبه باسمه الشخصي «عباس»⁽²⁾ «وأحيانا «المشتاق جدا عباس»⁽³⁾ دونها تغييب لذكر التاريخ مرفوقا بالمكان «الرباط في 12 أكتوبر⁽⁴⁾ 1962 أو مع تحديد المكان واليوم بل الفترة من اليوم «الرباط ظهر يوم الاثنين 5 نونبر 1962»⁽⁵⁾ وأحيانا دون ذكر المكان بل الاكتفاء بالتاريخ و اسم اليوم بل الفترة من اليوم «مساء السبت 15 فبراير 1969»⁽⁶⁾.

ويبدو أن الكاتب قد حافظ على السمات ذاته على مستوى الكتابة والخط وتنظيم الصفحات واستغلال الهوامش أحيانا لإضافة بضع ملاحظات، وكذا الكتابة على الورقة من صفحاتها ملتزما باللغة العربية الفصيحة إلا في ما ندر، مدبجا خطاباته بقلم حبر غامق أزرق أو أسود أحيانا، ليفاجأنا برسالة مكتوبة بقلم حبر أحمر أرخها ب 16 مارس 1969 وبعثها من القاهرة إلى حميدته بالرباط، فهل ياترى ركن إلى ذلك اللون لنضوب الحبر الأزرق في يراعه أم تراه ركن لذلك لعلة أخرى؟

(1)- نفسه، ص: 315

(2)- نفسه، صص: 290_293_296_303_315_317_318_319_320_321_325_326_333_332_330_329_328_327

(3)- نفسه، صص: 330_295

(4)- نفسه، صص: 287_303_317_321_326_330_331_333

(5)- نفسه، صص: 291_294_322_324_327

(6)- نفسه، ص: 319

القاهرة مساء الأحد ١٦ - ٢ - ١٩٦٩

الجدد

محمد الحبيب

أحبيلك وأقولك في شوقه عميق لك وللصغير تميمه وجميع أفراد الأسرة

مرة أخرى بعد ... كم مرة أعان من تلة كتابك ، فقد كان آخر ما وصلني من تلة المقروضة في البرية من الشهر الحالي ، في حينه بعثت منذ هذا التاريخ ثلاث رسائل ، ولت أشك وأنت كتبت خطاباً ما زال في طريقه إلى ، لأن لا أريد أن أظن مرور عشرة أيام دون أنه تفكره في الله لا يفكر إلا بيلك ، بل ان ذهبت هذا المساء إلى المركز الصناديق ، فلم أجد غير رسالة السيد جعفر الكناز الذي سافر مع أسرته إلى دمشق في آخر الشهر الماضي ليعود وأذاخر الحالي لمناقشة رسالتي ، وعادته أنه أهدى عن التيبك ، فذهبت إلى مكتب سبب الرسائل المسجلة أسأل عما إذا كان وصلني خطاب ، محاولاً مني أنه أهدى الوقت الذي استغرقته إرسال الإعلام ، ولكني لم أجد شيئاً ، ولتني لم أفعل لأن هذه الماركة الفاسدة فقرت الأمل حتى في أنه يصلني شيء دعراً .

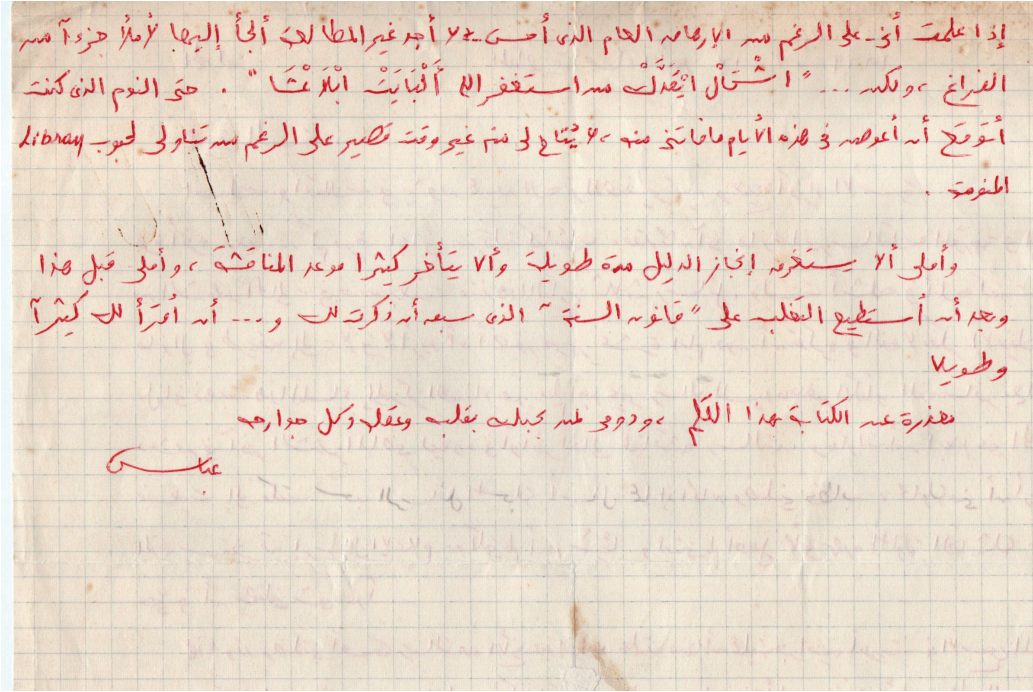
هذا وقد وصلتني أوصي رسالته من الأخ عبد الواحد علمت منها أنه علمني جراحته أجريت في الأسبوع الماضي للسيد الوالد بفعله استعمال حبة داخلية ولكنها تطورت إلى جرح عام ، فتألمت غابة الألم ، والجهد ألمها عمت بخارج وأنه حال العيش وقسه . كذلك علمت من رسالة عبد الواحد - وهي رد على رسالتي لـ - أنه ما أصبح ليس حبل إبل لك وأنه " كمال العظيمة " ، أما الإبلات فتوجه إلى ما بعد .

زوجتي العزيزة

أفكرك تميمي به ، حاجتي الملحة إلى رسالتك في هذه الأيام أكثر من أي وقت آخر ، فعلى الرغم من أنني بعد من إجازة الليل " قد بدأت أحس فراماً كبيراً لمت أدركه ، ثم أملاًه ، وهو ضارح سيزيد اساعاً بعد أيام قليلة حين أنتهي من آخر جزء من الرسالة . فقد ضقت بالقدرة ولم أعد أطيعه البقاء فيه لحظة واحدة ، ومهما جفبتني الأيام والمرحبات فإياها لم أستغرم من الوقت إلا العسير ، ثم انها تحتاج إلى ميزانية خاصة . ولا كدني عن الجولات السياحية والقاهرة عجزتني بمأثرها لا تجعلني أحسن لذة ولا ميلاً لهذا النوع من الفرح لا سيما والجو الجميل هاروعاصف ومقلب ولا سيما كذلك وقد انطقت أصوات العالمة وساد الظلام وكل مكانه حتى في عجزتي التي قلال ضوءها وعلى الدورن الأزرق زجاجة نافذتها بسبب الظروف الأخيرة وما تطورت إليه الأزرق ، وضاحته بعد القتال الذي دار بين العبيد ونطقة القناة . والواقع أنه كل شيء يذكر بأيام العذراء الثلاثي في صيف ١٩٥٦ وكنت قد طلعت وهدر من الطلبة المخاربه وجهيه المحرمين .

عزيرتك حبيبة

زاودتي فكرة السفر خارج القاهرة سواء إلى الوجه البحري أو إلى الجنوب ، ولكني وجدت الأمر يتطلب ميزانية لا تتوفر لي ، ثم لا أريد أن أهدى كاهلي بدين حبيبي ، كذلك فكرت - وبعد - وأنه أحصلت تخضيري إلى القاهرة لتستكن مع الفترة الباقية ، ولكنه ظروف تملك والبيت والصغير عند والنامة و... الميزانية المحددة ، كل ذلك جعلني أهدى عن ذهني هذه الفكرة . وستعبري



لعل تأملنا لهذه الرسالة الأرجوانية لا يفضي بنا لغير الوثوق من عرى صباية لاهبة
وسمت الحروف والدلالات بوهجها، إذ يرسل القبلات شفيعه للتحايا مفصحا «أحبك
وأقبلك في شوق عميق لك وللصغيرتين وجميع أفراد العائلة»⁽¹⁾، ثم ينهج ديدن العشاق
في اللوم والعتاب « مرة أخرى بعد... كم مرة أعاني من قلة كتابتك، فقد كان آخر ما
وصلني رسالتك المؤرخة في السادس من الشهر للحالين، في حين بعثت منذ هذا التاريخ
ثلاث رسائل، ... ولأني لا أريد أن أتصور مرور عشرة أيام دون أن تفكري في الذي يفكر
فيك. »⁽²⁾ بيد أنه يردف ذلك بما عهدناه من ذكر ما جد من أخباره أو الاستزادة من
السؤال والإلحاح في الإحاطة بما مر بزوجه وصغيرتيه، مما يؤكد أن الأمر لا يعدو أن
يكون مرتبطا بالكتابة بما وجده متوفرا لديه ساعتها دوننا قصد إلى ذلك اللون عينه .

(1)- أشواق، ص: 324

(2)- نفسه، ص: 324

وتطل علينا المكاتب المؤرخة بخامس أبريل 1964 مباينة لكل الخطابات، فمن حيث الشكل يبدو هذا النص ذا غرابة، إذ لا نعثر له على تحية ولا عبارات استهلال ولا اسم مرسل إليه، إذ لا يمتلك مقومات النص الرسائي المألوف، وقد أتى غفلا من كل ذلك اللهم إلا من التوقيع دون ذكر حتى الاسم مع الحرص على تذييله بتحديد التاريخ وكذا عبارة « وتصبحين على خير ولا تنسي أن توقطيني في الساعة السادسة».⁽¹⁾

ولعل الراجح حقا هو أن الأمر لا يتعلق برسالة كتبت عن بعد وبعثت في مظروف، لكنها في الغالب رسالة عتاب بين متحابين حدثت بينها جفوة فكانت المكاتب وسيلة للصلح وطلب الصفح، حيث أتت تضارع بوحا هامسا يمضي سربا كخبر الغدران، يقول الكاتب :

رأيت فيك الأمل الذي تنبع منه الحياة وتتدفق السعادة⁽²⁾

رأيت فيك الطريق المفروشة بالورود والرياحين، الطريق الذي لم تطأه أقدام الآلهة

رأيت فيك الشعلة المضيئة التي تنطلق من أشعتها القوة والحرارة

رأيت فيك هذا وغيره فأحببتك

أحببتك حبا بصيرا لم تغمض عيناه، حبا عاقلا غير تائه ولا مشدوه

والتي يستهلها ب

رأيت فيك الأمل الذي تنبع منه الحياة وتتدفق⁽³⁾

ولا غرو أن جفوة عارضة عكرت صفو الحبيين وحذت بالسيدة حميدة لأن تعتقد

كما ورد على لسان الكاتب :

فلا تجردني من كرامتي

(1)- نفسه، ص: 298

(2)- نفسه، ص: 297

(3)- أشواق، ص: 297

ولا تنتهك حرمة نفسي
ولا تطفئ شعلة حبي
ولا تقتلني ...

فكأنه يلومها على هذا المنحى من التفكير ويردد ما دار بخلدها أو ربما ما صارحته به، فغدا البوح سبيلا لنشدان رضا المحبوبة «أحببتك هكذا فأحبيت نفسي التي أحبتك، وأعطيتك الحرية ومنحتك الثقة وأرحت نفسي وأسلمت نيتي وبرأت فكري وضميره، ولكنني الآن أحس كأن كل هذا يضيع»⁽¹⁾ ولئن أغفل أشياء كثيرة في هذا النص فإنه لم يسئل عن العبارة الختامية وهي «وتصبحين على خير ولا تنسي أن توقظيني في الساعة السادسة»⁽²⁾ والتي تؤثر على شيئين :

1- أن الجفوة ربما حذت بهما إلى عدم التحدث إلى بعضهما مما حمله على أن يطلب من زوجته إيقاظه على ساعة بعينها عبر وسيط الكتابة وليس الصوت .

2 أن هذا النص كتب بحضور طرفي الخطاب أي الدكتور عباس الجراري وزوجه في ذات المكان، وليس أدل على ذلك من طلبه إيقاظه من طرفها، وهذا حدث يستلزم أن يكونا إلى جانب بعضهما. و لاغرو أن سحابة الصيف تلك مرقت دونها تريث، ولعل السيدة حميدة حفظت رسالة العتاب والاعتراف ونشدان الصلح تلك بين أغراضها كذكرى لتلك الجفوة العارضة، ولست أرتاب في أنها أيقظت العميد في الساعة التي عينها.

(1)- نفسه، ص: 297

(2)- نفسه، ص: 298

رأيت فيك الأمل الذي ينبع من الحياة وتدفعه العادة
 رأيت فيك الطريقة المفروسة بالعرود والرياحية ، الطريقة
 الذي لم تطأه حق أقدم الآلهة
 رأيت فيك السحرة المضيئة التي تنطلق من أشواقها
 القوة والحرارة
 رأيت فيك الثقة والرحمة والنعيم والحنان
 رأيت فيك لذا وغيره فأحببتك
 أحبتك حباً غيراً لم تنه عيناه ، حباً عميقاً غير
 تائب ولا مشروط
 أحبتك مجردة من كل الزخارف والآلحة
 أحبتك حباً عتيقاً مستقيماً
 أحبتك هكذا فأحببت نفسي التي أحبتك ، وأعطيتك
 البرية وصفتك الثقة وأرجت نفسي وأسلمت
 نفسي وبراءة فكري وضميري
 وتلك الآلة أحبا كأنه كل هذا يضيع
 فلا توردني منكراتني
~~ولا تطفئ الشعلة التي~~
 ولا تستهلك حرمة نفسي
 ولا تطفئ شعلتي هي

ولا تقتلني -- فما أحوجني إليك وعواطفك
ولا تقتلني -- حتى لا تقتل نفسك

٤٤ → ٩٦٤ - ٤ - ٥

~~✍~~

ولصحة علي فهو ولا تنسى أنه نور طينتي والساكن
السادس

ب البطائق البريدية

لم تخل اللقيا التي كشفت عنها السيدة حميدة من بطاقات بريدية ذات بهاء وتميز، انتهت إلى أن نقلتها إلى العلن حين ضمتها إلى الملحق الثاني ضمن أضمومة أشواق والذي يرتبط بمرحلة عودة الدكتور عباس الجراري إلى القاهرة، وقد بلغت 14 بطاقة بالتمام.

تسلمنا البطائق نفسها في تنوع لطيف وتباين ظريف، بيد أننا ما إن نطالع تواريخ إرسالها حتى نخلص إلى أن 13 منها تعود لمرحلة سابقة عن عودة الكاتب إلى القاهرة منتقلا إليها من اسطنبول في شتنبر من عام 1968. وعلى هذا النحو نلفي أن :

- ثلاثة بطائق مؤرخة ب 22 و 26 و 30 يونيو 1965

- بطاقة واحدة مؤرخة ب 29 يوليوز 1968

- تسع بطاقات مرتبطة برحلة تركيا تواريخها تراوح بين 6 و 30 غشت 1968.

- بطاقة واحدة فقط هي التي ترتبط بمرحلة العودة إلى القاهرة وهي المؤرخة ب 12

دجنبر 1968

والجدول الموالي خير دليل :

التاريخ	مكان الإرسال	نوع الصورة	رقم الصفحة	المرسل إليه
1- 22-6-65	فرانكفورت	مدينة فرانكفورت	299	حميدة
2- 30-6-65	القاهرة	صورة احد معالم القاهرة	300	حميدة
3- 26-6-1965	باريس	merveilles ses et Paris ca- et gauche rive Quai Dame Notre thédrale	301	حميدة
4- 29-8-1968	جنيف	الساعة النباتية	304	حميدة
5- 6-8-68	اسطنبول	منظر للبوسفور	305	صهره السيد عبد المالك الصائغ

ابنته ألوف	306	قطط تركية	اسطنبول	6 / 8 / 68-6
ابنته ألوف	307	طفلات تركيات بلباسهن التقليدي	اسطنبول	68-8-23-7
حميدة	308	مناظر مختلفة لبويوكودا	بويوكادا	68-8-25-8
الانسة نجيبة اخت حميدة	309	جزيرة الاميرات	بويوكودا	68-8-25-9
حميدة	310	منظر لأحد المساجد العريقة	بورصة	-10 1968-8-27
الانسة خديجة اخت حميدة	311	منظر لمعالم بورصة	بورصة	68-8-27-11
حميدة	312	مسجد أياصوفيا	اسطنبول	68 8-29-12
حميدة	313	منظر من داخل مطفية رومانية لتخزين الماء	اسطنبول	30-13 1968-8-
ابنته ألوف	314	صورة لقطط	القاهرة	68-12-17-14

تمتلك البطائق جمالية البوح بما تتضمنه من مشهدية تنقل وتوثق لتأريخ شخصي للكاتب، حيث ترتبط برمتها بالأماكن التي زارها و عاينها وأراد أن يشرك معه متلقيه فيها، وحين نتفقدنا نلفي أنها تنقسم إلى ثلاثة أشكال :

- صور لمعالم من المدن ومنها : صورة مدينة فرانكفورت⁽¹⁾ صورة أحد معالم القاهرة⁽²⁾ صورة منظر لمعالم بورصة⁽³⁾ صورة لمسجد أياصوفيا⁽⁴⁾.

(1)- أشواق، ص: 299

(2)- نفسه، ص: 301

(3)- نفسه، ص: 311

(4)- نفسه، ص: 312

- صور لمناظر طبيعية تنتمي لذات المدن مثل : صورة منظر طبيعي ببيوكودا⁽¹⁾ صورة إحدى حدائق جنيف.⁽²⁾

- صور لأشياء ترتبط بالبلدان التي زارها مثل : صورة القطط التركية⁽³⁾ - صورة طفلات تركيات بلباسهن التقليدي.⁽⁴⁾

شكلت هذه البطائق على صغر حجمها رسائل مركزة بعث بها الدكتور عباس الجراري إلى مخاطبين كثر فتارة:

- يبعث إلى حميدة صورة لفرانكفورت مخبرا عن مساره أثناء السفر : «عزيزتي غدا إن شاء الله سأغادر فرانكفورت، ولكن لا إلى روما كما كان مقررا، وإنما إلى بيروت مباشرة فقد سئمت الرحلة وحيدا أرجو أن تكوني بخير. قبلاتي لك وسلامي للجميع»⁽⁵⁾، وحين وصل إلى جنيف يوم 29 يوليو 1968 بادر إلى إخبارها على ظهر بطاقة هي صورة لساعة نباتية بالمدينة مسطرا دون تريث «عزيزتي حميدة من جنيف هذه الساعة النباتية تشير إلى ساعة وصولي إليها اليوم، ومني ألف قبلة لك وللأولاد، مع سلامي للجميع.»⁽⁶⁾

ولأن البطائق قد تضيق عباراتها وتتسع، فإنه في البطاقة التي بعثها لها من القاهرة لم يكتب بالإخبار عن أماكن الانطلاق أو الوصول، بل غدت رسالة غرامية متوهجة حين خطها بحروف متأججة : «عزيزتي حميدة عشية أمس وصلت إلى القاهرة بعد رحلة تحملت خلالها الكثير من متاعب الوحدة، ودخلت البيت فوجدتني بين جدرانها تائها... وكيف لا أجدني كذلك وما يأويني غير قلبك ولا يهديني غير قربك، ولعمري إن حبي لك انطلق من هذه الهداية وذاك الإيواء، وأنتك قوية بعفتك وحنوك ووفائك وبلغت

(1) أشواق، ص: 309

(2) - نفسه، ص: 304

(3) - نفسه، ص: 306

(4) - نفسه، ص: 307

(5) - نفسه، ص: 299

(6) - نفسه، ص: 304

به درجة جعلت بها مني إنساناً»⁽¹⁾. وحين لا يسعفه الوقت وتضييق لحظاته عن تسطير الخطابات، تبدو البطاقة مسعفة لعبارات مقتضبة توجز ولكن تؤدي مهمة الإنباء مثلما فعل حين بعث لحليلته قبل أن يصعد إلى الطائرة بطاقة تشتمل على صورة لباريس أثبت على ظهرها «من مطار أورلي مع أحر الأشواق»⁽²⁾.

ولم تكن حميدة الوحيدة التي آثرها بالبطاقات البريدية وإن كانت أكثر متلقية لها (8 بطاقات) بل بعث لألوف أيضا بثلاث بطاقات إحداها كانت من إسطنبول يوم 23 غشت 1968 كتب عليها بحنو وحب :

«هذه صورة طفلات تراكيات بلباسهن التقليدي يلعبن ويمرحن في حب وصفاء، لقد أخبرتني ماما أنك مسجلة في روضة للا آمنة، أرجو أن تكوني مثالية كما عهدتك في روضة الرباط وفاس، حتى تحوزي رضا المديرية والمشرفات ورضا بابا وماما كذلك. سلمني على ماما وعلا وفاطمة وجميع أفراد الأسرة وقولي لهم إن بابا بخير ويتمنى أن تكوني كذلك. ودومي لبابا حبيبي عباس»، كما أرسل لها بطاقتين تتضمنان صوراً لقطط لطيفة إحداها من تركيا يوم 6 غشت 1968 والأخرى من القاهرة 17 دجنبر 1968 والذي وافق يوم 23 رمضان المعظم .

ومن البطائق التي حواها الملف المعثور عليه والتي بدت غير متناغمة مع سياق أضمومة «أشواق» التي من المفترض أن تتضمن رسائل العميد إلى زوجته وبتائق بريدية إلى أولاده كان ثلاث بطاقات بريدية بعثها الدكتور عباس الجراري لأصهاره، حيث وجه الأولى للسيد عبد المالك الصائغ والد زوجته يوم 6 غشت 1968 أي عقب مغادرته المغرب إلى إسطنبول ومما سطره على ظهرها « من اسطنبول أبعث لكم بهذا التذكار راجيا أن تكونوا بخير وأن تبلغوا سلامي لجميع أفراد الأسرة الكريمة»⁽³⁾، ثم أرفدها يوم 25

(1)- نفسه، ص: 301

(2)- نفسه، ص: 300

(3)- نفسه، ص: 305

غشت من بويوكودا بتركيا ببطاقة بهية لجزيرة الأميرات أرسلها للآنسة نجبية الصائع
أخت زوجته حميدة، وكتب :

« En souvenir d'une journée que j'ai passé aux iles des princes, lieu de relaxe, de
calme de repos et de divertissements .

Mon bonjour a toute la famille.

Abbes⁽¹⁾

وما عثم أن أعاد الكرة من جديد وخص الآنسة خديجة الصائع شقيقة عقيلته ببطاقة
لبورصة يوم 27 غشت 1968 خط عليها بحروف غير عربية :

«En souvenir d'un court séjour a brousse, ancienne capitale ottomane ...

Mon bonjour à toute la famille et mes bises pour ola et alouf.

J.Abbes⁽²⁾

ولأول مرة نشهد كتابة العميد لرسائله باللغة الفرنسية حيث اختار أن يخاطب نسيبته
بغير لغة الضاد، ربما لثقافتها الأجنبية و عدم حذقها للعربية، وربما لاطمئنانها للكتابة
بلغة مولير، ولعل هذا يشرع أمامنا الباب للاطلاع على جانب آخر من ثقافة الدكتور
عباس الجراري الذي لم يكن يتقن اللغة العربية فحسب بل كما يقول في سيرته «إضافة
إلى تمكني من اللغتين العربية والفرنسية، فإن لي معرفة بسيطة بالإنجليزية ...ومثلها
اللغة العربية ...وتابعت دروسا لتعلم اللغة الاسبانية،⁽³⁾ ولا يجب أن يغرب عن بالنا أن
الكاتب تابع دراساته العليا في جامعة السوربون بباريز يقول :«وبذلك أرجع إلى الدراسة
الفرنسية بعد أن نلت قسطا وافرا مما يمكن تحصيله في القاهرة»⁽⁴⁾ كما أنه سجل هناك
أطروحة رئيسية للدكتوراه في موضوع:

« Musulmans d Espagne et leurs voyages en Orient»

(1)- أشواق، ص: 309

(2)- نفسه، ص: 311

(3)- رحيق العمر، ص: 111-112

(4)- نفسه، ص: 104

«مسلمو إسبانيا ورحلاتهم إلى الشرق»⁽¹⁾ تحت إشراف الأستاذ بلاشير، وسجل أطروحة تكميلية تحت إشراف الأستاذ شارل بيلا في موضوع: «تحقيق رحلة العبدري،»⁽²⁾ ولولا امتلاكه لخاصية اللغة الفرنسية ما كان يستطيع تسجيل أطروحتين في السوربون برعاية أستاذين كبيرين هما بلاشير وشارل بيلا. ولا ريب أن ذلك يفضي بنا إلى التأكد من أن الأستاذ الجراري كان يملك مهارة تدبير رسائله باللغة العربية مثلما يجذق تحيرها باللغة الفرنسية.

ولا غرو أن السيدة حميدة أبت أن تتغاضى عن هذه البطائق لأنها مضمنة بعقب ذكرى أعز أهلها: والدها وشقيقتها، ولعلها سعت في ما مضى إلى استرداد هذه البطائق منهم لتوثيق كتابات زوجها إليهم جميعاً، ومن ثم حرصها على نشرها داخل هذه الأضمومة.

لم تحذ هذه البطاقات البريدية رغم رشاقة شكلها و ضآلة حجمها مقارنة بالخطابات، عن أسس الكتابة الترسلية حين شملت اسم المرسل إليه وعنوانه دون أن تغفل التاريخ مرتكزة على عبارات الاستهلال والوداع، غير مغفلة لتذييلها بتوقيع كاتبها، ولئن تألفت في هذا المنحى مع البطاقات التي كنا قد درسناها سلفاً، فإن ملاحظتين عنتالي بخصوصها وهما:

1- إذا كنا في المجموعة الأولى من رسائل و بطائق أشواق قد ألفينا الكاتب يخاطب زوجته على ظهر أظرفته بعبارة السيدة حميدة الصائغ الجراري، فإننا ما نعتم أن نعاين في هذه اللقيا الجديدة تواري نسب الصائغ وارتباط اسم حميدة بلقب الجراري مباشرة دونها وسيط، حيث بدت عبارة حميدة الجراري مرقشة البطائق والرسائل جميعاً، وقد كان الدكتور عباس الجراري يتطلع أبداً إلى ذلك، ففي إحدى الرسائل التي وجهها من الرباط بتاريخ 17 أكتوبر 1962 إلى حميدة التي كانت لاتزال تتابع دراستها بالقاهرة أخبرها «حميدتي، فالكل يسأل عنك ويسلم عليك ويقبلك ويتمنى في كثير من اللحظات لو كنت بجانبنا... فالكل يتطلع بشوق إلى اليوم الذي ستصبحين فيه جرارية»⁽³⁾، ولأجل هذا فإنه

(1)- أشواق، ص: 62 رحيق العمر، ص: 105

(2)- نفسه

(3)- نفسه، ص: 290

حذف الاسم الشخصي أحيانا وخاطبها ب السيدة الجراري، مثلما فعل حين بعث إليها بطاقة الساعة النباتية من جنيف يوم 29 يوليوز 1968 حيث كتب **Madame Jirari**⁽¹⁾، وعساه تملك المحب ليحيل المحبوب جزءا منه بل مندججا ومندغما فيه .

2- كتب لابنته ألوف التي لم تبلغ عند أول بطاقة بعثها إليها يوم 23 غشت 1968 ثلاث سنوات بعد هي المزدادة بتاريخ 8 نونبر⁽²⁾ 1965- مخاطبا إياها بلفظة «الآنسة ألوف» هي البنية الصغيرة وكأنه يتطلع إليها كي تغدو كاعبا حسناء، ولعله يريد أن يعودها على فعل القراءة، وأكثر من ذلك هو يحملها رسائل إلى الأسرة يطلب منها تبليغها إياها، فعلى ظهر البطاقة التي تصور قطة لطيفة تحمم صغيرتها والتي بعثها إليها يوم 17 دجنبر 1968 كتب:

«الحمد لله

إلى ابنتي العزيزة ألوف

أصدق التهاني بحلول عيد الفطر المبارك راجيا أن تبلغني تهنتي صباح العيد لماما وعلا وباسيدي ولالا وجميع العمات والأعمام والخالات والأخوال . وأخبري ماما أنني بعثت لها ظهر اليوم رسالة مسجلة بها وكالتان الأولى للخرينة والثانية للبريد فلعلها قد اتصلت بالسيد التازي ليعث لها بالحوالات، وأخبريها كذلك أنني توصلت منذ لحظات برسالتها التي تضم الحراز فشكرا لها ولبهيجة، وإن كنت لن أذكره لما فيه من بذاءة مفرطة وإياك أن تنسي تهنته ماما وعلا بالعيد . من أبيك المشتاق عباس»⁽³⁾

ولا غرو أن الأم هي من ستتولى مهمة قراءة الرسالة عليها، بيد أن ما رمى إليه الكاتب هو أن تشعر صغيرته النائبة عنه، أنه لا يسلو عنها ولا يكلف أمها بتبليغها سلامه فحسب بل إنه يخصها ببطاقات تتعلق بها حتى تدرك مدى حبه واشتياقه لها.

(1)- أشواق، ص: 304

(2)- رحيق العمر، ص: 144

(3)- أشواق، ص: 314

ج عبارات التهاني وصيغ التهادي

لا ينفك الترسل الجرازي ونحن نجلي مكنوناته أن يبين عن ألوان غير متضارعة من الخطابات ذات سمت معلوم ونهج مخصوص تنحو صوب الإفصاح عن التهاني وإجلاء الإهداء وأطيب الأماني، ولعل السيدة حميدة وهي في سبيلها إلى نشر أضمومة أشواق في صيغتها الجديدة بعد أن ضمنتها الرسائل والبطائق التي كانت متوارية في درج مكتب العميد، أثرت كما جاء على لسانها في تقديمها للملحق رقم 1 الذي خصته لها أن: «أضع بين يدي القارئ الكريم والباحث المدقق أضمومة من كلمات خصني بها شريك حياتي المرحوم بعفو الله وكرمه عميد الأدب المغربي عباس الجرازي وكانت بين مذكرات يهدينها مع رأس السنة وحلول عام جديد وبين أظرفة كانت تحتوي بعض هداياه أو أشعاره في الأعياد او المناسبات العزيزة علينا،⁽¹⁾ ولا نفتأ ونحن ندنو من هذا الملحق أن نباغت بنمط جديد من العبارات الموجزة المكتوبة على وريقات صغيرة متباينة الأحجام والألوان تحمل على متنها صيغ التهاني وعبارات الإهداء لأسباب ودواع متباينة المناحي.

ولا غرو أننا سنقارب هذا النمط من الرسائل القصار ذات الغاية المعينة والتاريخ المحدد انطلاقاً من تقسيمها إلى عبارات تهئة وصيغ إهداء وقد بلغت مجتمعة ثمانية وستين نصاً. كما يجلي الجدول الموالي :

العدد	التاريخ	المناسبة	عبارات التهئة أو صيغ الإهداء	الصفحة
1	2 دجنبر 1986	غير مذكور	إلى التي فرقت بيني وبينها الأيام فلم يزدني الفراق إلا متانة حب ومتانة رباط إلى حميدتي العزيزة	267
2	بدون تاريخ	عيد	إلى حميدتي الغالية تهئة بالعيد خالصة	267
3	بدون تاريخ	إيلال من مرض	حميدتي العزيزة حمدا لله على سلامتك	267
4	1971	مفكرة	إلى حميدتي مع حبي الكبير	267

(1)- أشواق، ص: 265

267	حتى تذكري مع الأيام من عاش بك وإليك	دون ذكر المناسبة	12 يناير 1972	5
267	عيد سعيد وأمنيات طيبة لحميدتي العزيزة	دون ذكر المناسبة	بدون تاريخ	6
268	إلى حميدتي مع حبي المتجدد	رأس السنة	1-1 1977	7
268	إلى زوجتي العزيزة حميدة مع حبي المتجدد على الدوام	دون ذكر المناسبة	بدون تاريخ	8
268	إلى حميدتي العزيزة مع دائم حبي	عيد المولد النبوي	بدون تاريخ	9
268	إلى زوجتي العزيزة التي لا يفتأ حبها القوي يتجدد على الدوام	رأس السنة	10 يناير 1978	10
268	إلى حميدتي مع حبي الكبير	رأس السنة	يناير 1979	11
	إلى من منحني الحب والسعادة، إلى حميدتي ذكرى عهد متجدد لا تزيده السنون إلا متانة وقداسة	رأس السنة	يناير 1980- محرم 1400	12
269	إلى من جعلتني أحن إلى الأيام الماضية وأتسوق من شدة تعلقي بها للأيام الباقيات. إلى من حازت صدق حبي بقلب كبير مخلص وعواطف متدفقات. إلى من قابلت بفيض من العفو والكرم والسماحة ما اقترفت من عثرات. إلى زوجتي وحببتي وشريكة حياتي ومستقبلي وأمل الحياة. إلى حميدتي مع خير دعاء وأفضل رجاء: بالصحة والعافية في النفس وفي الذات		21 دجنبر 1980	13
269	إلى حميدتي الحبيبة مع صادق التهئة بحلول عيد الفطر السعيد	عيد الفطر	بدون تاريخ	14
269	إلى حميدتي رفيقة العمر وشريكة الحياة مع حبي المتجدد على الدوام	رأس السنة	4 يناير 1982	15
270	إلى حميدتي مع حبي المتجدد على الدوام	رأس السنة	1 يناير 1982	16
270	إلى حميدتي ومع حب متجدد على الدوام	رأس السنة	1 يناير 1984	17
270	إلى حميدتي مع حب عميق ومتجدد	رأس السنة مفكرة	2 يناير 1985	18

270	عيد سعيد أمنيات طيبة ودعاء بالصحة والعافية لحميدتي الحبيبة	بمناسبة عيد	بدون تاريخ	19
270	إلى التي أنارت لي طريق الحياة بفيض من حبها المتدفق... إلى حميدة	رأس السنة	1 ربيع الثاني 1407 1 يناير 1987	20
270	إلى التي أخلصت لي الحب والحياة سوفية صادقة إلى زوجتي العزيزة حميدة، مع أجمل التمنيات وأحلاها بمناسبة حلول العام الجديد.	رأس السنة	4 يناير 1988	21
271	إلى زوجتي العزيزة حميدة	رأس السنة	1 يناير 1989	22
271	إلى حميدتي العزيزة أدام الله عليها رداء الصحة والعافية وحفظها من كل شر ومكروه.	إيلال من مرض	بدون تاريخ	23
271	إلى حميدتي العزيزة ذكرى حب دائم متجدد	رأس السنة	يناير 91	24
271	سنة مباركة ودعاء للحبيبة بالصحة والعافية	سنة جديدة لا ندري أهجرية ام ميلادية		25
271	إلى حميدتي مع حبي المتجدد على الدوام	رأس السنة	الجمعة فاتح يناير 1993	26
272	إلى حميدتي إعرابا صادقا عن حب خالص متجدد	دون ذكر المناسبة	10 يناير 1993	27
272	عيد مبارك سعيد بقبيلات حب دائم	بمناسبة عيد	دون تاريخ	28
272	إلى حميدتي العزيزة	دون ذكر المناسبة	دون تاريخ	29
272	إلى حميدتي الحبيبة مع شوق دائم متجدد	رأس السنة	رمضان 1416 يناير 1996	30
272	إلى حميدتي الحبيبة	دون ذكر المناسبة	دون تاريخ	31
272	إلى حميدتي العزيزة مع حب دائم متجدد	دون ذكر المناسبة	رمضان 1417 يناير 1997	32
273	إلى حميدتي مع حبي المتجدد على الدوام	عيد مولدها	20 ابريل 1997	33

273	إلى حميدتي مع حبي المتجدد على الدوام	عيد مولدها	20 أبريل 1998	34
273	إلى حميدتي الحبيبة	دون ذكر المناسبة	دون ذكر التاريخ	35
274	الحمد لله إلى حميدتي في ذكرى عيد ميلادها السعيد مع حب صاف مديد	عيد مولدها	20 أبريل 2002	36
275	وطوق زانه جيد الحبيبة وما إهداءه إلا رغبة وللذكرى حميدة في غلاء يزيد مع السنين بلا وجيبة	عيد مولدها	الأحد 20 ابريل 2003	37
275	إلى حميدتي العزيزة مع حب دائم متجدد	عيد المولد النبوي	12 ربيع الأول 1424 14 مايو 2003م	38
276	إلى حبيتي حميدة حتى تكون هذه السنة ان شاء الله كسابقاتها سنة حب ووفاء مقرونين بالصحة والهناء	رأس السنة	دون تاريخ	39
276	حميدتي الحبيبة بقلب مفعم بحبك، وملتاع بالشوق الدائم إليك، أهديك هذه المذكرة، داعيا الله تعالى أن يجعل أيام السنة الجديدة طيبة مباركة، تملأها السعادة والهناء، في صحة كاملة وعافية شاملة، مع صلاح الأولاد والأحفاد.	رأس السنة	ذو الحجة 1425 يناير 2005	40
277	إلى حميدتي العزيزة مع حب متجدد لا تزيده الأيام و السنون إلا قوة وقدسية	عيد الأضحى رأس السنة	الرباط 11 ذي الحجة 1427 الموافق فاتح يناير 2007م	41
277	إلى حميدتي الحبيبة	دون مناسبة	دون تاريخ	42
277	عزيزتي حميدة	دون مناسبة	دون تاريخ	43

278	بسم الله الرحمن الرحيم في ذكرى ميلادك حميدتي الحبيبة وبباقة من القبلات الحارة اضمك الى قلبي وأهمس في اذنك بصوت عال : أحبك أحبك أحبك	عيد ميلادها	20 أبريل 2007	44
278	إلى من هواها في الفؤاد يجدد ومع السنين اواره يتوقد أهدي الأمانى بالأطياب ضمخت والسعد يغمرها وما قد يحمد لحميدتي والقول ليس بمسعفي لكن حالي عن شعوري يشهد	فاتح السنة الهجرية	الرباط الخميس فاتح محرم 1429 الموافق 10 يناير 2008م	45
279	إلى حميدتي الغالية مع تجديد عبارات خالص الحب والوفاء وصادق الدعاء بتمام الصحة والعافية		الرباط 10 محرم 1429هـ الموافق 19 يناير 2008	46
279	إلى حميدتي الغالية مع حب دائم ومتجدد لا يزيد إلا تمكنا ورسوخا مع مرور الأيام، بل الساعات بدقائقها والثواني	عيد مولدها	الأحد 20 ابريل 2008	47
280	إلى حميدتي مع حب لا تسعف الكلمات في الإعراب عنه	ذكرى القران	30 يونيو 2008	48
280	إلى حميدتي العزيزة، مع حبي المتجدد	راس السنة	4 محرم 1430 1 يناير 2009	49
280	إلى حميدتي العزيزة تهنئة بعيد ميلادها السعيد مشفوعة بحب دائم متجدد	عيد مولدها	20 أبريل 2010	50
280	إلى حميدتي الحبيبة في ذكرى علينا عزيزة	دون مناسبة	دون تاريخ	51

281	تهنئة خالصة لحميدتي العزيزة عيد الأضحى المبارك مع أصدق عبارات الحب وآيات الوفاء	عيد الأضحى	الأربعاء 10 ذو الحجة 1431هـ 17 نونبر 2010م	52
281	إلى حميدتي الحبيبة، مع حب دائم ومتجدد	رأس السنة	الرباط يناير 2011	53
281	إلى حميدتي الغالية مع حب دائم ومتجدد	ربما عيد المولد النبوي	14 ربيع الأول 1432 18 فبراير 2011	54
281	إلى حميدتي العزيزة حبي إليك مع الأيام يتقد في وقده أبدا بالقلب ما يعد	راس السنة	الرباط 8 صفر 1433هـ 2 يناير 2012	55
281	حميدتي الغالية	دون عنوان	دون تاريخ	56
282	كل عاشوراء وحميدتي بخير وعافية	عاشوراء	دون تاريخ	57
282	إلى الحبيبة الغالية حميدة مع الدعاء لها بالشفاء العاجل	إبلال من مرض	20 أبريل 2014	58
282	إلى حميدتي العزيزة وكل عام وهي بخير وعافية	رأس السنة	محرم 1434هـ	59
282	إلى حبيبي الغالية حميدة تهنئة صادقة بعيد ميلادك السعيد مع الدعاء لك أن يديم الله عليك نعمة الصحة والعافية ويحفظك من كل شر أو مكروه	عيد ميلادها	الاثنين 20 ابريل 2015	60
283	إلى حميدتي الغالية تهنئة بالعيد مع الدعاء لها بتمام العافية	عيد الأضحى	7 ذي الحجة 1436 21 شتنبر 2015	61
	إلى حميدتي العزيزة مع متمنيات لها بالسعادة والهناء في صحة تامة وعافية دائمة	عيد المولد	الخميس 12 ربيع الأول 1437	62
283	حمدا لله على سلامة حميدتي الغالية من عملية الجلالة الثانية	إبلال من المرض	12 فبراير 2021	63
283	عزيزتي حميدة	دون ذكر المناسبة	دون تاريخ	64

284	إلى حميدتي الغالية عيد مبارك سعيد	دون ذكر المناسبة	1442 هـ 2021 م	65
284	إلى حميدتي الغالية سنة هجرية مباركة مع حب متجدد على مر الايام	السنة الهجرية	الثلاثاء فاتح محرم 1443 10 غشت 2021 م	66
284	إلى حميدتي الحبيبة الغالية مع أجمل المتمنيات بحلول السنة الميلادية الجديدة 2022 صحة وعافية وسلاما وأمنا وهناء	راس السنة	السبت فاتح يناير 2022 27 جمادى الثانية 1443	67
284	إلى حميدتي العزيزة في ذكرى ميلادها المقترن هجريا بعيد المولد النبوي ربيع الاول 1443	عيد مولدها وعيد المولد النبوي	1443 هـ	68

لئن أتت رسائل التهاني وعبارات الإهداء متجاوزة مسافة أحيانا لذات الغرض سيما حينما ترتبط التهنتة بتقديم هدية، فإننا سندنو منها كل على حدة وسنستهل ذلك ب :

1- رسائل التهاني

لم يفتأ القلقشندي أن قدم تعريفا دقيقا لرسائل التهاني يرمي إلى أنها « من الكتب التي تظهر فيها أفهام الكتاب، ومنازلهم من الصناعة ومواقعهم من البلاغة وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنتة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية.»⁽¹⁾ إن المتطلع لهذا المجموع الذي رددتنا به السيدة حميدة يجلي إلى حد بعيد ملمحا آخر من ملامح الدكتور عباس الجراري، حيث يبدو رقيق المشاعر متيما بصبه لا يفوت يوم ذكرى دون أن يبادر إلى تسطير التهاني التي ساقها ببهاء برمتها إلى توأم روحه السيدة حميدة التي ملكت لروحه سكنت منه الوجدان، حيث توزعت التهاني الجرارية إلى:

(1)- صبح الأعشى، ج:9، ص:5

أ- تهاني دبجها بمناسبة حلول أعياد دينية مثل: عيد الفطر وعيد الأضحى وعاشوراء ومنها: «إلى حميدتي الحبيبة مع صادق التهئة بحلول عيد الفطر السعيد»⁽¹⁾ أو «تهئة خالصة لحميدتي العزيزة، عيد الاضحى المبارك مع أصدق عبارات الحب وآيات الوفاء»⁽²⁾ و «كل عاشوراء وحميدتي بخير وعافية»⁽³⁾ و«عيد سعيد أمنيات طيبة ودعاء بالصحة والعافية لحميدتي الحبيبة»⁽⁴⁾ «إلى حميدتي الغالية تهئة بالعيد خالصة»⁽⁵⁾

ب تهاني دبجها بمناسبة حلول السنة الجديدة هجرية أو ميلادية: حيث دأب على مباركة هذه السنة الجديدة بألطف التمنيات وأرق العبارات ومن ذلك ماكتبه عند حلول العام الميلادي الجديد سنة 1984 «إلى التي أخلصت لي الحب والحياة سوية صادقة إلى زوجتي العزيزة حميدة، مع أجمل التمنيات وأحلاها بمناسبة حلول العام الجديد» و«إلى حميدتي الحبيبة الغالية مع أجمل التمنيات بحلول السنة الميلادية الجديدة 2022 صحة وعافية وسلاماً وأمناً وهناء»⁽⁶⁾ وفي مستهل العام الهجري الجديد لسنة 1443 الموافق 10 غشت 2021 سطر «إلى حميدتي الغالية سنة هجرية مباركة مع حب متجدد على مر الأيام»⁽⁷⁾ ولم يلبث يوم الخميس فاتح محرم 1429 الموافق ل 10 يناير 20 أن نظم لتهئة حميدة أبيات شعر مفعمة بكلف لا يخفى :

إلى من هواها في الفؤاد يجدد
أهدي الأمانى بالأطياب ضمخت
لحميدتي والقول ليس بمسعفي
ومع السنين أواره يتوقد⁽⁸⁾
والسعد يغمرها وما قد يحمد
لكن حالي عن شعوري يشهد

(1) أشواق، ص: 269

(2) - نفسه، ص: 281

(3) نفسه، ص: 282

(4) - نفسه، ص: 270

(5) - نفسه، ص: 267

(6) - نفسه، ص: 284

(7) - نفسه، ص: 284

(8) - نفسه، ص: 277. أنظر الأبيات في من ديوان عباس الجراري، ج: 1، ص: 102

وقد وردت تهان عديدة دون أن نجلي كنه العيد الذي قدمت خلاله مثل «عيد مبارك سعيد بقبلات حب دائم»⁽¹⁾ و«عيد سعيد أمنيات طيبة ودعاء بالصحة والعافية لحميدي الحبيبة»⁽²⁾

ج تهاني دبجها بمناسبة عيد ميلاد السيدة حميدة: حيث لم يغفل هذا اليوم الذي فيه رأت النور من بها اقترن، فاستوطنت منه الفؤاد وملكت الجوارح، ومما كتبه في هذا اليوم الأغر لديه وهو 20 أبريل من عام 2007 :

بسم الله الرحمن الرحيم

في ذكرى ميلادك⁽³⁾

حميدي الحبيبة

وبباقة من القبلات الحارة

أضمك الى قلبي

وأهمس في أذنك بصوت عال :

أحبك

أحبك

أحبك

وفي اليوم ذاته من سنة 2002 كتب : «إلى حميدي العزيزة تهنته بعيد ميلادها السعيد مشفوعة بحب دائم متجدد»⁽⁴⁾ وكتب لها سنة 2015 بكل صدق ومحبة :

إلى حبيبتي الغالية حميدة

تهنته صادقة بعيد ميلادك السعيد

(1) أشواق، ص: 272

(2) - نفسه، ص: 267

(3) - نفسه، ص: 278

(4) - نفسه، ص: 280

مع الدعاء لك أن يديم الله عليك نعمة الصحة والعافية ويحفظك من كل شر أو مكروه»⁽¹⁾

2- عبارات الإهداء :

لعل المتفحص للعبارات الموثقة على وريقات الإهداء لا يلبث أن يلاحظ رقتها وسلاستها، وقد أورد صاحب جواهر الأدب أن «رقاع التهادي يجب أن تودع من الألفاظ المستحسنة، ما يمهد لقبول الملاطفة والمبرة التي تميز في المودة»⁽²⁾، سيما إذا كانت موجهة من الحبيب إلى المحبوب، ولا غرو أن حرف الجر «إلى» وشى بما تحمله تلك الوريقات المتباينة ألوانها بين الأبيض والأصفر والبرتقالي والأزرق، فتعبير «إلى» عن الغاية يدل على أن ثمة شيئاً سينتقل من الباث إلى المتلقي عبر وسيط لغوي هو «إلى» خاصة حينها لا تحمل العبارات دلالات التهئة ومن ذلك : « إلى التي فرقت بيني وبينها الأيام فلم يزدني الفراق إلا متانة حب وومتانة رباط. إلى حميدي العزيزة»⁽³⁾ و «إلى زوجتي العزيزة حميدة مع حبي المتجدد على الدوام»⁽⁴⁾ أو «إلى زوجتي العزيزة التي لايفتأ حبها القوي يتجدد على الدوام.»⁽⁵⁾

ونحن نسبر أغوار الرسائل الجراحية لا بد أن ندرك دون لأي أن كاتبها كان يمتلك روحاً مرهفة سعت دونها كلل إلى إبقاء جذوة صبابته موقدة حتى وإن شط به المزار، ولعل التهادي كان ديدنه، فحين سافر إلى اسطنبول عام 1968 لم يتورع عن بعث باقة ورد من جزيرة الأميرات لحميدة التي تتيم بها مسطرا « ومن أطف الأشياء أن الناس يتفاءلون بزهور هذه الجزيرة وورودها، بل أن العادة جرت أن يشتري الزائر باقات صغيرة تباع في المرسى وداخل الباخرة. وكم كنت أتمنى لو كنت معي حتى أهديك باقة من هذه الباقات العطرة الجميلة. ومع ذلك فلم أترك الفرصة تمر دون أن أرسل لك صحبته بعض الزهور

(1)- أشواق، ص: 282

(2)- جواهر الأدب، ج: 1، ص: 100

(3)- أشواق، ص: 267

(4)- نفسه، ص: 268

(5)- نفسه

قطفتها بنفسى، فلعلها أن تحمل لك بعض ما أحس من مشاعر الحب الصادق وأحاسيس الشوق العميق، ولعلها كذلك أن تكون طائر يمن وبركة وخير. فلتتقبلها مشفوعة بقبلاات دافئة.⁽¹⁾ وحين سافر إلى صفرو صيف 1960 كان ذلك دأبه حين كتب إلى حميدة «لا أرى في حينا غير الأمل الباسم والمستقبل الزاهر والسعادة الكاملة. وهذه وردة خالية من كل شوك دليل على طهره وصفائه ومع أنى أرغمتها على الذبول حتى يتسع لها ظرف الرسالة فقد بقيت كما ترين محتفظة بكثير من رائحتها ولونها ومائها وهي جميعا مقومات جمالها وحياتها.»⁽²⁾ ولا غرو أن تقديره لقيمة الهدية بين المتحابين هو ما حدا به إلى لوم حميدة وقد اعتراه غضب عارم ظنا منه أنها زهدت في كتاب أهداها إياه، حيث كتب إليها وهي في القاهرة يوم 5 نونبر 1962 «وما ينبغي تسطيره وإن لم تحدثني عنه، طلبك من والدك أن يبعث للبحرين بكتاب رأس المال الذي بعته لأحد اقارب عنان ولعله أخوها، فقد حدثني أخوك في الموضوع ثم تذاكرت مع والدك في الموضوع مستغربا من بيعك لكتاب كان عليك أن تعتزي به فهو هدية منى إليك بمناسبة من المناسبات.»⁽³⁾ بيد أنه لم يفتأ أن أدرك أن حميدة لا تقوى على التفريط في شيء منحها إياه من سكن سويداء فؤادها، إذ تعلق الأمر بسوء فهم منه ليس غير، فكتب مستدركا «وكان لا بد أن أذهب إلى البيضاء لأكتشف بنفسى أن هناك نسخة أخرى هي التي تقصدين، فلم أغفر لنفسى أنها فكرت في عدم اعتزازك بالكتاب وعدم تقديرك له.»⁽⁴⁾ ولم يتورع عن إهدائها نص أغنية ألف ليلة وليلة التي افتتحت بها أم كلثوم سهرة الخميس.

(1)- نسيم البوسفور، ص: 162

(2)- أشواق، ص: 28

(3)- نفسه، ص: 291

(4)- نفسه، ص: 291

الف ليلة وليلة

غناء : كركب الشرق أم كلثوم
تلحين : الموسيقار بليغ حمدي
كلمات : مرسى جميل عزيز

يا حبيبي ... الليل وسماه
يا حبيبي أنا .. يا حياتي .. كلنا .. كلنا ..
ونجده معه وقصره وسهره .. وانت وأنا
في الحب سـكـوا .. والـهـوى
آه منه الهوى سهران يسقىنا الهوى ويقول بالهنا
يا حبيبي يا اللانعش في عيون الليل
دي ليلة حب حلوة بالف ليلة وليلة
بكل العمر هو العمر ايه غير ليله
زي الليلاه

أوصفك يا حبيبي ازاي قبل ما احبك كنت ازاي
ولا حتى يومى عيشاه
كنت ولا أمبارج فكواه .. ولا عندي بكرة استناه
خدتني بالحب في غمضة عين
الليل بعد ما كان غره مليته أمان
يا حبيبي يا اللانعش في عيون الليل
دي ليلة حب حلوة بالف ليلة وليلة
بكل العمر هو العمر ايه غير ليله
زي الليلاه

يا حبيبي ايه اجمل الليل واتنين زنا عاشقين
حاسين اننا بلح حب ريس
تايهين ما حنا ش حاسين العمر ثواني ولا سنين
عاشمين الليل والحب ريس
يا حبيبي الحب حياتنا وبيتنا وقوتنا
وان قالوا عن عشاقه
اهى ناره دي جنتنا
الحب عمره ما جرح
ولا عمر بستانه طريح
غير الهنا ... وغير الفرح
يا حبيبي يا اللانعش في عيون الليل
دي ليلة حب حلوة بالف ليلة وليلة
بكل العمر هو العمر ايه غير ليله
زي الليلاه

يا حبيبي يا ظل نباري .. يا حبيبي
كلمة الحب اللي بيها الملك الدنيا وما فيها
يا حبيبي يا ظل نباري .. يا حبيبي
كلمة الحب اللي بيها الملك الدنيا وما فيها
قولها للطير ... للشجر ... للناس ... لكل الدنيا
الله محبة ... الخير محبة ... النور محبة
تفضل حلوة سلام اول لقنا في ادينا
وفرح اول مهاد منقصاد شموع حوالينا
وقوت علينا الزمان يفرش امانه علينا
لا عمر كاس الفراق المر يمقينا ...
... ولا يمرف الحزن مطرحنا ولا يجينا
... ما تشرف كينالينا
يا حبيبي يا اللانعش في عيون الليل
دي ليلة حب حلوة بالف ليلة وليلة
بكل العمر هو العمر ايه غير ليله
زي الليلاه

هدية من
مصمم امين
سلالات الكاتبة
١٩ شارع عبد الخالق ثروت
تليفون ٤٩٣٣٩

وما لبثت السيدة حميدة أن اعتادت ساعتها على أن تودع رسائلها بعض الهدايا كانت الطوابع البريدية أشدها جلاء، حيث ذيل الكاتب رسالته المؤرخة ب 12 أكتوبر 1962 بعبارة «شكرا على الطوابع»⁽¹⁾ وكذا فعل في خطابه الموجه منه بالرباط إلى حميدة المقيمة بالقاهرة حين سطر معجبا « شكرا على الطوابع فهي جد هائلة.»⁽²⁾ ويبدو أن ذلك كان ديدنها فقد بعثت له مثل ذلك وهو بباريز فأجابها بكل حب « شكرا لك على الطوابع الفريدة التي اشتريت.»⁽³⁾

ولأن « الهدية في نفس الأصفياء جلييلة وإن كانت في نفسها قليلة، ومكانتها خطيرة وإن كانت يسيرة، وسنة حسنة اجتمعت على فضلها الألسنة،⁽⁴⁾ فإن الكاتب لم يفته وهو يهادي زوجته بعد أن انتفى الغياب بينها وحل الدنو مكان التناهي أن يدبج عبارات تكون رسوله لتبليغ ما أراد منحها إياه، فقد تكون الهدية مذكرة بمناسبة حلول السنة الجديدة مثلما قام به سنة 1971 مع عبارة «إلى حميدي مع حبي الكبير.»⁽⁵⁾ وفي مطلع سنة 2005 سطر: «حميدي الحبيبة بقلب مفعم بحبك، وملتاع بالشوق الدائم إليك، أهديك هذه المذكرة، داعيا الله تعالى أن يجعل أيام السنة الجديدة طيبة مباركة، تملأها السعادة والهناء، في صحة كاملة وعافية شاملة، مع صلاح الأولاد والأحفاد.»⁽⁶⁾

وتتعدد الهدايا وتتباين قيمتها مع تباين المناسبات ففي ذكرى مولد حميدة يوم 20 أبريل 2003 أهداها الكاتب عقدا ذا تميز بعد أن كتب ناظما: «إلى حميدي الحبيبة مع حب صاف قوي ومتجدد

وطوق زانه جيد الحبيبة
وللذكرى حميدة في غلاء
وما إهداءه إلا رغبة
يزيد مع السنين بلا وجيبة»⁽⁷⁾

(1)- أشواق، ص: 290

(2)- نفسه، ص: 295

(3)- نفسه، ص: 135

(4)- جواهر الأدب، ج: 1، ص: 69

(5)- أشواق، ص: 267

(6)- نفسه، ص: 276

(7)- نفسه، ص: 275

وإذا كان الدكتور عباس الجراري قد أفصح هنا عن نوع الهدية فإننا لم ندرك من باقي الإهداءات كنهها، غاية ما استطعنا معرفته هو مناسبتها وصيغة الإهداء ومن ذلك ما ورد :

أ هدايا عند حلول السنة الجديدة

ومنها ما خطه عند مطلع سنة 1977 «إلى حميدي مع حبي المتجدد»⁽¹⁾ و«إلى حميدي مع حبي الكبير»⁽²⁾ في يناير 1979 و«إلى حميدي»⁽³⁾ عام 1980 و«إلى التي أنارت لي طريق الحياة بفيض من حبها المتدفق... إلى حميدة»⁽⁴⁾ سنة 1987 ولم تلبث سنة 2012 أن هلت حتى وافاها بهدية مشفوعة ببيت شعر ملتهب :

إلى حميدي العزيزة

حبي اليك مع الأيام يتقد في وقده ابدا بالقلب ما يعد⁽⁵⁾

ب هدايا بمناسبة عيد ميلاد حميدة

داخل صيغ الإهداء تكثر العبارات المرتبطة بذكرى ميلاد السيدة حميدة ولئن لم تذكر الهدية فإن الصيغة تؤشر عليها ومن ذلك ما كتبه يوم 20 أبريل سنة 1997 «إلى حميدي الحبيبة مع حب صاف قوي ومتجدد»⁽⁶⁾ و«الحمد لله إلى حميدي في ذكرى عيد ميلادها السعيد مع حب صاف مديد»⁽⁷⁾ سنة 2002، و«إلى حميدي العزيزة، في ذكرى ميلادها المقترن هجرياً بعيد المولد النبوي ربيع الأول 1443هـ»⁽⁸⁾

(1)- أشواق، ص: 268

(2)- نفسه

(3)- نفسه، ص: 268

(4)- نفسه، ص: 270

(5)- نفسه، ص: 281، أنظر « من ديوان عباس الجراري (ج:1، ص: 109)

(6)- نفسه، ص: 273

(7)- نفسه، ص: 274

(8)- نفسه، ص: 284

ج هدايا بمناسبة إبلال السيدة حميدة من المرض

لم نعم أن صادفنا بضع عبارات إهداء خطها الكاتب على هدية وافى بها زوجته أثناء مرورها بوعكة صحية ما، ومن ذلك : «إلى حميدي العزيزة ادم الله عليها رداء الصحة والعافية وحفظها من كل شر ومكروه⁽¹⁾» وإلى حميدي الغالية مع تجديد عبارات خالص الحب والوفاء وصادق الدعاء بتمام الصحة والعافية⁽²⁾ و«إلى الحبيبة الغالية حميدة مع الدعاء لها بالشفاء العاجل⁽³⁾ و«حمدا لله على سلامة حميدي الغالية من عملية الجلالة الثانية»⁽⁴⁾

د هدايا مرتبطة بمناسبات خاصة

وتكاد أن تكون ذكرى القران أبرزها حيث كتب يوم 30 يونيو 2008 «إلى حميدي مع حب لا تسعف الكلمات في الإعراب عنه»⁽⁵⁾ ولمح إلى ذكرى لا يعلمها إلا هما سويا وهو يكتب لها على ظهر هدية «إلى حميدي الحبيبة في ذكرى علينا عزيزة.»⁽⁶⁾

(1)- أشواق، ص: 271

(2)- نفسه، ص: 279

(3)- نفسه، ص: 282

(4)- نفسه، ص: 283

(5)- نفسه، ص: 280

(6)- نفسه، ص: 280

د- هدايا لم تذكر مناسباتها

وقد وردت غير قليل من صيغ الإهداء خلوا من مناسبتها، حيث أتت متضمنة لحب خاص وتفان كبير ومنها : «حتى تذكري مع الأيام من عاش بك وإليك»⁽¹⁾ و«إلى التي فرقت بيني وبينها الأيام فلم يزدني الفراق إلا متانة حب ومتانة رباط. إلى حميدي العزيزة»⁽²⁾ و«إلى زوجتي العزيزة حميدة مع حبي المتجدد على الدوام»⁽³⁾ و«إلى حميدي إعرابا صادقا عن حب خالص متجدد.»⁽⁴⁾

ونحن نجيل الطرف في هذه العبارات الضامرة المدبجة على وريقات ضئيلة الحجم تفشي التهئة أو تنبأ بالهدية لا نلبث أن نخلص إلى بضع ملاحظات لعل أهمها :

1- كتبت صيغ التهاني والإهداء على ذات المنحى الذي سطرها به الأقدمون من حيث مقادير قطع الورق المخصص للمكاتبات، فإذا كان محمد بن عمر المدائني في كتابه «القلم والدواة» قد حدد حجم الورق المخصص لكل سمت من الرسائل فإن القلقشندي زاد لونا آخر هو «ورق الطير» أي «القطع الصغير وهو في عرض ثلاثة أصابع مطبوقة من الورق المعروف بورق الطير... وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطاق الحمام»⁽⁵⁾، والمقصود بها هذه الرقاع الصغير التي تكتب بين المتحابين وتنقل على سوق الحمام، ولعل الوريقات التي كتب عليها الدكتور عباس الجراري التهاني والإهداء تضارع هذا السمت مثلما تبدو عليه في هذه النماذج⁽⁶⁾ :

(1)- أشواق، ص: 267

(2)- نفسه، ص: 267

(3)- نفسه، ص: 268

(4)- نفسه، ص: 272

(5)- صبح الأعشى، ج: 6، ص: 192

(6)- أشواق، ص: 271

الى ربي
مع حب
على الامام
78

الى ربي
مع حب
على الامام
78



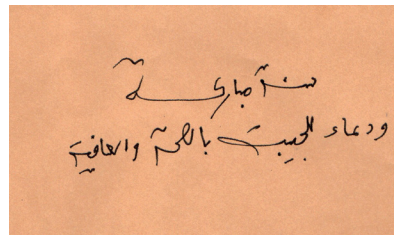
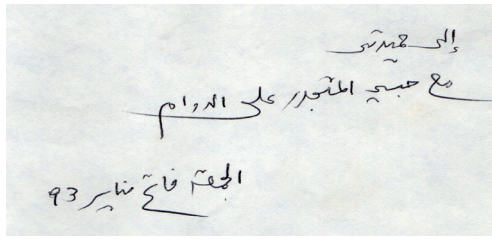
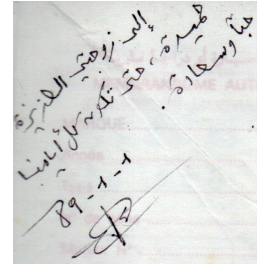
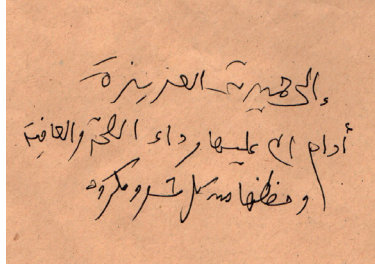
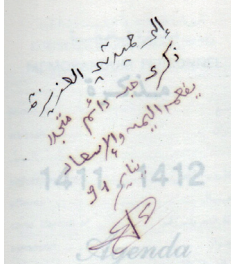
الى ربي العزيز
مع دائم حب
على الامام اليوم
الشريف



الى ربي
مع حب
على الامام
78

الى ربي العزيز
الى ربي
بجوار مع الامام
78

2- لم تحذ هذه الرسائل المصغرة عن ديدن الناموس الترسيحي حيث التزم فيها كاتبها بذكر المرسل إليها حميدة زوجتي العزيزة زوجتي العزيزة حميدتي الحبيبة ...



وقد التزم بذكر التاريخ إما الميلادي «10-1-93» أو الهجري فقط ربيع الاول 1443 أو الهجري والميلادي معا «رمضان 1407هـ يناير 1997م»، غير غافل عن تحديد اليوم أحيانا «الجمعة فاتح يناير 93»⁽¹⁾ «الأحد 20-4-80»⁽²⁾ بل وتوثيق المكان: «الرباط 4-1-88»⁽³⁾ - القاهرة 2-12-68»⁽⁴⁾، بل قد يورد كل ذلك في آن «الرباط الخميس فاتح محرم 1429هـ الموافق 10 يناير 2008 م.»⁽⁵⁾

ورغم أن هذه الخطابات الصغيرة التي كان يكتبها كانت موجهة رأساً إلى زوجته دونما حاجة إلى ظرف ولا ساعي بريد فإنه غالباً ما حافظ على تذييلها بتوقيعه تارة باسم عباس، أو باستخدام حرفين يرمزان إلى الاسم واللقب (عباس الجراري) ع ج، وفي أغلب

(1)- أشواق، ص: 271

(2)- نفسه، ص: 279

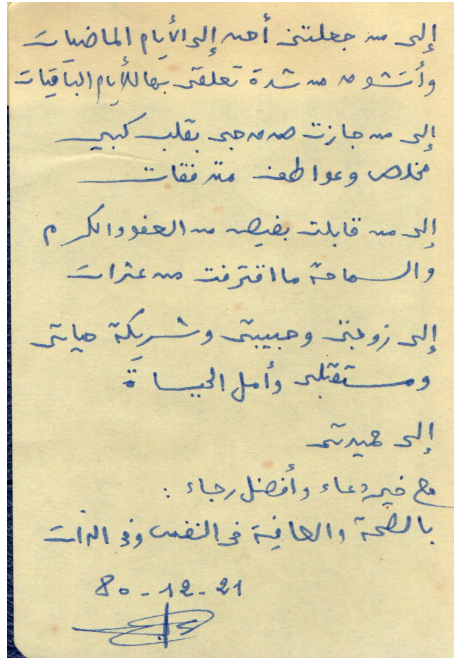
(3)- نفسه، ص: 270

(4)- نفسه، ص: 267

(5)- نفسه، ص: 278

الأحيان بتوقيعه الذي عهدناه منه. وكأنه يريد أن يثبت للحبيبة أنه هو الكاتب والهادي والمهنئ والمحِب والمرسل في ذات الآن، والمقربيا باح به على هذه الوريقات الرقيقة.

3- تراوحت هذه التهاني بين القصر والطول، فلم تتجاوز الجملة أحيانا : «إلى حميدتي العزيزة»⁽¹⁾ «إلى حميدتي الحبيبة»⁽²⁾ وقد تؤلف قطعة قصيرة «إلى زوجتي العزيزة التي لا يفتأ حبها القوي يتجدد مع الأيام»⁽³⁾ وقد تطول أحيانا فتأتي على هذه الشاكلة⁽⁴⁾:



4- لم يشمل هذا المجموع كل التهاني وصيغ الإهداء التي كتب العميد، فبالعودة إلى الجزء الأول من ديوانه نلفي أن ثمة إهداءات وصيغ تهاني وردت هناك ونشرت ضمن الملحق رقم 1 الذي شملته أضمومة أشواق، ومنها :

أ- ورد في ديوان الشاعر عباس الجراري : « قدم الشاعر هدية ل «حميدة» مشفوعة بهذين

البيتين بعنوان :

(1)- أشواق، ص: 272

(2)- نفسه، ص: 272

(3)- نفسه، ص: 268

(4)- نفسه، ص: 268

وطوق زانه

وطوق زانه جيد الحبيبة وما إهداءه إلا رغبة
وللذكرى حميدة في غلاء يزيد مع السنين بلا وجيبة

وهذان البيتان وردا في الصفحة 275 من أشواق مسطران بيد الكاتب .

ب في الصفحة 281 من أشواق أثبتت السيدة حميدة وريقة انسرح عليها هذا البيت:

حبي إليك مع الأيام يتقد في وقده أبدا بالقلب ما يعد

وما نلبث أن نجده بعينه في الديوان تحت عنوان «حبي إليك مع الأيام» مصدرا
ب « في إهداء مذكرة العام الجديد»

ج ظهرت هذه الأبيات على إحدى بطائق التهاني في الصفحة 278 من أشواق
وهي موجودة في الجزء الأول من ديوان عباس الجراري وتحديدًا في الصفحة 102،
تحت عنوان: «إلى من هواها في الفؤاد»

إلى من هواها في الفؤاد يجدد ومع السنين أواره يتوقد⁽¹⁾
أهدي الأمانى بالأطياب ضمخت والسعد يغمرها وما قد يحمد
لحميدتي والقول ليس بمسعفي لكن حالي عن شعوري يشهد

وحيث أن هذه الأبيات تم نشرها بالديوان سنة 2017 فلماذا أعيد نشرها في أضمومة
أشواق؟ بل لماذا لم يشمل الملحق كل صيغ الإهداء والتهاني؟

لم يتوان الدكتور عباس الجراري كلما عنت له فرصة سانحة في أن يبادر إلى تهنئة أو
إهداء لحييلته حميدة، ولعل تصفحنا لديوانه الشعري يجلي لنا الكثير.

(1)- أشواق، ص: 277. أنظر الأبيات في من ديوان عباس الجراري، ج: 1، ص: 102.

- ففي ذكرى ميلادها ينظم مهنتا نثفة تحت عنوان «إليك هديتي» ويستهلها ب «إلى حميدتي الحبيبة في ذكرى ميلادها المشرقة :

إليك هديتي ذوبان قلبي أعبر عبره عن بعض حبي⁽¹⁾
ولو كل الدنى جمعت لكانت أقل من المنى إذ حزت لبي⁽²⁾

- وكتب مهنتا حميدة بذكرى مولدها سنة 1993 بيتين نعتها ب « في يوم عيدك »:

في يوم عيدك يا حميدتي تهائي قبلاهما سكرى عذاب بلسم
لو ينقضي عمر الزمان جميعه ظلت لحبك جذوة تتضرم⁽³⁾

- وكتب مخاطبا إياها وداعيا لها بالشفاء يوم عيد ميلادها:

لا شيء غير الحب هو هديتي في يوم عيدك بالشفاء حميدتي⁽⁴⁾

- وحين تعرضت لوعكة صحية... يقول: «وكان ذلك يتطلب حقنها بالسيروم... وبعد أن أزال حقنة السيروم وضع لها مكانه رباط شبهته بالسوار. وعند ذلك قلت بعد أن اشترت لها سوارا بالفعل مع خاتمه :

قالت :رباط معصمي غير السيروم والدم
كأنه إسورة أو دملج من عدم
أجبتها : لا ينبغي فليس ذا من شيمي
لك سوار يرتضى من ذهب ذي قيم
مع حاتم منمنم بلؤلؤ منتظم

(1)- أشواق، ص: 276. أنظر الأبيات في من ديوان عباس الجراري، ج:1، ص:102

(2)- من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص:70

(3)- نفسه، ص:71

(4)- نفسه، ص:78

فلتقبليه بالدعا بصحة لا سقم

- وحين قدم لها هدية خالية من الشعر بمناسبة عام جديد لم ينل منها الرضى، فنظم:

أهديتها وهيب القلب يتقد
لم تلق بالالما وجدي يؤرقني
قلت: هديتك التي قدمتها
سارت تعاتبني أن جئت مهديها
والعام راح كما السنون نظرد⁽¹⁾
من حيها وكأني اليوم مبتعد
ليست بشافية عندي لما أجد
بلا قريض كما تهوى وتنتقد

- وبمناسبة حلول العام الهجري الجديد (1435) 2013 أنشد:

عام جديد بالمسرة أقبلا
فلتقبلي مني التهاني واسعدي
وبكل فرح قد أهل وهلالا⁽²⁾
وتقبلي حبي حديثا مرسلا

- وفي ذكرى قرانه يوم 30 يونيو 2015 نظم هذين البيتين من أجل حميدة:

حميدي والشوق روع مضجعي
فلتقبلي مني هدية موله
ولو أن قربك لا يفارق مخدعي⁽³⁾
هي للوفاء وبالأماني الأمتع

وأنشد بمناسبة أحد الأعياد تحت عنوان «إليك حميدي»: :

إليك حميدي أهديك روعي
فراح الحب إن مزجت بروحي
بهذا العيد قد مزجت براح⁽⁴⁾
سقتك العمر سكرًا بالمباح

(1)- الديوان، ص: 101

(2)- نفسه، ص: 112

(3)- نفسه، ص: 113

(4)- نفسه، ص: 105

وثمة أبيات غير قليلة في الديوان نظمت قصد رفع تهنئة أو تقديم هدية للعزيزة حميدة، أوردها الشاعر تحت عناوين بذاتها ومنها: «هو العيد عندي»⁽¹⁾ وهي تهنئة بعيد الفطر، وبمناسبة ذكرى عيد ميلادها نظم: «في عيد ميلاد الحبيبة»⁽²⁾ و«أرى حسننها الباهي في ذكرى ميلادها الثانية والسبعين»⁽³⁾، وعند شفاء حميدة من وعكة صحية نظم ثلاثة أبيات تحت عنوان: «أدام الله عافية الحبيب»⁽⁴⁾.

فهل ياترى كانت الرغبة في عدم إيراد هذه الأبيات المهدية المهنئة في «أضمومة أشواق» هو أنها ثوت قبلا في الديوان؟

قد يكون الأمر على هذا النحو، لكنني أعتقد أن البطاقات التي كتبت عليها التهانى والإهداءات لابد أن تكون قد ضاعت، وإلا لما كانت السيدة حميدة لتوفرها، وحيث أنها عزمت على نشر تلك الوريقات على نفس السميت الذي توصلت عليه بها عن طريق تصويرها على حالتها الأم، ومن ثم تعذر عليها أن تنقل الأبيات التي تضمنها الديوان لأنها ماعثرت على وريقاتها التي ربما تناثرت واندثرت بفعل الزمن، وربما ضاعت من الدكتور عباس الجراري حينما استعان بها لينقل منها الأبيات وهو يعد ديوانه الشعري.

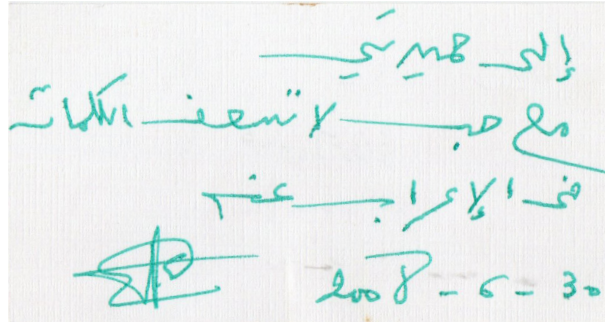
5 - في تضاعيف هذه النصوص القصار من اليسير أن نلاحظ أن الكاتب التزم بإيرادها بلغة عربية فصيحة، ولئن خطها نثرا، فإن الأمر لم يخل من نتف أرفقها بما انتقاه من هدايا لحميدة حسبما أفضت إليه طبيعة المناسبة. وقد أتت كل الوريقات مكتوبة بقلم حبر أزرق أو أسود ماعدا اثنتين، أما الأولى فخطها باللون الأخضر وتعلقت بذكرى قرانه بحميدة يوم 30 يونيو 2008 وكان ذلك اليوم ظل وارفا مزهرا في دواخله :

(1)- من ديوان عباس الجراري، الجزء الأول، ص 106، بتاريخ شتنبر 2010

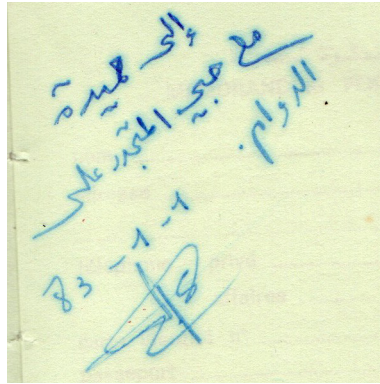
(2)- نفسه، ص: 107، بتاريخ أبريل 2011

(3)- نفسه، ص: ص 109 أبريل 2012

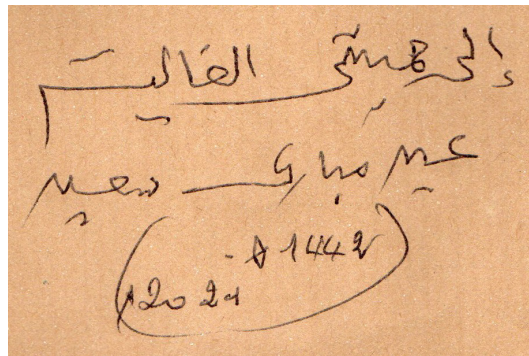
(4)- نفسه، ص: 111



وأما الثانية فارتبطت بتهنئة بمناسبة حلول السنة الميلادية الجديدة لعام 1983



وخط ثالثة بالقلم الأحمر القاني بمناسبة حلول عيد تمناه لها سعيدا سنة 2021



ولست أحسب أن اختيار ألوان الكتابة كان يمت بصلة إلى مضمون النصوص، غاية ما هنالك أن الكاتب كان يخط ما يشاء بما أسعفه من أقلام على وريقات تباينت ألوانها، وهي من ذلك السميت المستعمل كمفكرة صغيرة Bloc note تتخذ لتسجيل ملاحظة أو

رقم هاتف أو عنوان، ولا غرو أن مرد ذلك راجع ولاريب إلى أن هذه الرقاع والوريقات ما كانت تبعث عبر البريد فتستلزم أن تكون على سمت مخصوص، بل إنها ما كانت تبرح مكان كتابتها وتتمتع بسهولة إلصاقها على ظهر الهدية الممنوحة.

لا غرو أن الرسائل الطوال التي كسد سوقها بفعل دنو الكاتب من زوجته والتي ألفنا انتقالها في أظرفة محتومة تودع في صناديق البريد، ستسطو على مكانها هذه الوريقات السافرة التي لم تحتج لظرف يلم شتاتها بل أشرعت نفسها أمام متلقيتها وكأنها تدعوها كي تأنس بها ساعات الصفو والكدر، ولعلها كانت الأقدر على توثيق حدث الإهداء أو التهئة حين ضمنت له الخلود داخل دفتي أشواق.

2 الرسائل وملء البياضات

إلى

التي فرقت بيني وبينها الأيام

فلم يزكني الفراق إلا متانة حب ومتانة رباطه⁽¹⁾

عباس الجراري

(1) -أشواق، ص: 267



2 الرسائل وملء، البياضات

في فسيفساء الحكي ونسيج الترسل بدت هذه المكاتبات التي كاد أن يغمرها الزمن لتتير لنا حلقة زوايا ظلت معتمة وترمم فجوات الدلالات التي أمست متشظية، فامتلكت برافد دلالاتها سحر رتق ما ظل منشطرا وملأت ثقبها كادت أن تبهم الأحداث وتعيق النظر إليها.

لقد تنبعت منذ البدء وأنا أدنو من أضمومة «أشواق» أن ثمة فجوة زمنية ليست باليسيرة تفصل بين آخر رسالة بعثها الدكتور عباس الجراري من باريس مساء يوم 22 يونيو 1962 والرسالة التي تلتها والمبعوثة من القاهرة مساء الخميس 9 يوليو 1965 ولطالما تساءلت هل جف يراع الكاتب ونضب معين الترسل لديه على مدى ثلاث سنوات فما خط رسالة ولا ديج خطابا؟ وربما ركنت إلى احتمال ضياع بعضها.

إذ لا يرتبط الأمر بتاريخين محايدين بقدر ما يمت بصلة إلى تنامي المسار الذاتي للكاتب. ففي آخر رسالة من باريس سنة 1962 نبارح الدكتور عباس الجراري وقد انتهى من دراسته في باريس وعزم على العودة إلى المغرب حيث أخبر حميدة التي كانت مقيمة بالقاهرة من أجل متابعة دراستها، مسطرا: «ولتعلمي أنني قررت مغادرة باريس في الأسبوع الأول من يوليو وأني قررت كذلك البدء في عمل فور وصولي للمغرب.»⁽¹⁾ وما نفتأ في الخطاب الموالي تماما و المديج سنة 1965 أن نصادفه في القاهرة و حميدته في المغرب، وقد انتقل من مقام العزوبية والخطوبة وولج معارج الزواج حين عقد قرانه سنة 1963.⁽²⁾ لذلك يبث حليلته شكواه في مسطور ملتهب مفصحا «إني أتحمّل في كثير من الصبر والثبات عناء الأيام رازحا تحت هم كابوس العزلة والوحدة والفراغ الذي يجثم

(1)- أشواق، ص: 167

(2)- أنظر رحيق العمر، ص: 140

على صدري، أتوق إليك في تلهف وشوق فتفيض نفسي بسيل من العواطف المتأججة⁽¹⁾.
تمنحنا أضمومة الرسائل المعثور عليها 21 خطابا تمتلك برمتها هبة سد البياضات
وإجلاء ما قد يطفو من غبش أو إبهام، بيد أننا لن نعرج على ما سبق أن درسناه في الفصول
السابقة من هذه الدراسة من مضامين، بقدر ما سنرنو صوب الكشف عما ظل مغمورا،
وسنجلي ذلك متنكبين ما توافينا به من كشف يرتبط ب:

أ- شغف التدريس

ب- بين أهله وذويها

أ- شغف التدريس

تسلمنا الرسائل الثلاث التي بعثها الكاتب من الرباط يوم 12 أكتوبر و5 و12
نونبر من سنة 1962 إلى حميدته بالقاهرة، إمكانية الدنو من بداية ولوج الكاتب لمضمار
الأسلاك الوظيفية، حيث يجبر خطيبته حميدة في مسطوره ليوم 12 أكتوبر من سنة 1962
« أما فيما يتعلق بالوزارة فقد طلبت من الإدارة العامة أن أتحوّل من القسم الثقافي إلى
قسم آخر ولكنها تلكأت في الموضوع إلى أن طلبني السيد عبد المجيد بن جلون الذي
كان سفيرا في باكستان والذي يشغل منصب رئيس قسم آسيا وإفريقيا، لأخلف السيد
عبد الهادي الشرايبي الذي عين قائما بالأعمال في كراتشي، فالتحقت رغم أنف الإدارة،
والواقع أنني جد مستريح في هذا القسم،⁽²⁾ وقد كان لوالده الفضل في حثه على العودة من
باريس للعمل بوزارة الخارجية بالمغرب، وقد ذكر ذلك في سيرته «رحيق العمر» مؤكدا:
«وشجعني على العودة إلى القاهرة بدرجة سكرتير في سفارة المغرب التي ذكر أنها في حاجة
إلى دم جديد وإلى من يستطيع أن يقدم صورة مشرقة عن المغرب.»⁽³⁾

(1)- أشواق، ص: 176

(2)- نفسه، ص: 288

(3)- رحيق العمر، ص: 109

وهنا تماما سنصادف الدكتور عباس الجراري فضلا عن مهامه في الوزارة يظاً لجة التدريس الذي غدا فيه علما في ما تلا ذلك من أيام، إذ أخبر حميدته « شرعت صباح اليوم في إلقاء دروس في الترجمة على تلاميذ الرابعة وعدد الحصص الأسبوعية كالتالي : الثلاثاء والأربعاء ساعتين يوميا وساعة يوم السبت ⁽¹⁾ ويضيف «بالإضافة إلى أنني لم أتفق مع المدير على حصص ومواد أخرى وخاصة الفلسفة التي يلح في إسنادها إلي.» ⁽²⁾ و ما لبث أن شرع في إعطاء دروس بالجامعة وتحديدًا في كلية الآداب، إذ كتب في خطابه ليوم الاثنين 5 نونبر 1962 « منذ الأسبوع الماضي أصبحت أدرس بالكلية وبالسنة الأولى من قسم الأدب العربي والحصص كما يلي وهي بمحض اختياري :

1- الاثنين من الثامنة إلى التاسعة صباحا: أدب عربي

2- الخميس من الثامنة إلى التاسعة صباحا: أدب عربي

3- السبت من الثامنة إلى التاسعة صباحا: تطبيقات» ⁽³⁾

ولعل ظروف العمل اليسيرة غدت له عوناً ليهارس التدريس الثانوي والجامعي معا فضلا عن عمله الأصلي، وإن كان قد أحس إرهاقا صارح به خطيبته مؤكدا « والواقع حميدتي أنني لم أعد أجد» كيف أحك رأسي «من كثرة الشغل، والحمد لله أن العمل في الوزارة وفي القسم الجديد الذي التحقت به يساعد على الاهتمام ببعض المسائل الخارجية.» ⁽⁴⁾ بيد أن صلة الكاتب بالتدريس لم تكن وليدة تلك السنة، فحينما كان في باريس من أجل متابعة دراسته انتقاه الأستاذ بلاشير، يقول : «ليطلب مني أن أكون مساعدا له في تدريس بعض المواد كتحليل النصوص لطلابه في الإجازة، وهو مما كان له في نفسي تأثير كبير» ⁽⁵⁾ وأردف «وكان فاتحني برغبته أن يعمل على تعييني أستاذا مساعدا له في معهد الدراسات

(1) -أشواق، ص: 289

(2) - نفسه، ص: 289

(3) - نفسه، ص: 294

(4) - نفسه، ص: 294

(5) - رحيق العمر، ص: 106

الإسلامية، وكان جربني لذلك بإلقاء بعض الدروس على السنة الأولى.⁽¹⁾

وسرعان ما سيعقب هذه المرحلة خبر انتقاله للعمل بسفارة المغرب بالقاهرة كما تبين الرسالة المستعجلة التي بعثها صباح الاثنين 26 نونبر 1962 وفيها يسطر على عجل:

«حميدتي

اسمحي لي أن أختصر لك القول في هذه السطور ولكن ما حيلتي إذا كان الوقت ضيقا وإذا كنت مضطرا إلى كثير من التهيئات لألحق بك، فقد تم تعييني بسفارة المغرب بالقاهرة التي سأحضر إليها مع أوائل الشهر .

وقد أبرق لك فيما بعد قصد تحديد الموعد في القاهرة

مع قبلاي عباس»⁽²⁾

ولاغرو أن هذه التفاصيل باتت متوارية عنا بافتقادنا لهذه الرسائل أثناء إقامتنا أود دراستنا على الخطابات التي شملتها أضمومة أشواق في صيغتها الأولى، والتي قذفت بالكاتب من باريس إلى القاهرة رأسا، دونما الدنو من مرحلة عودته قبلها إلى المغرب وقضائه شهرين اثنين في الوظيفة والتدريس كليهما.

ولئن تمت باقي الخطابات إلى ما سبق أن تناولناه من مجريات سفر الكاتب إلى القاهرة بعد تركيا من أجل استكمال أطروحته و مناقشتها، فإنها وشت بكبير عنايته بالاكتساب المعرفي وسعيه لتطوير مهاراته اللغوية، فقد مر بنا في الرسالة التي وافي بها حميدة من باريز يوم 18 فبراير 1962 أنه شرع في تلقي دروس في اللغة الإسبانية، ثم أخبرها «وقد انقطعت عن دروس الإسبانية بسبب الموقف الذي اتخذته الأستاذة معي يوم الاثنين الماضي إذ حاولت أول ما قابلتني أن تؤنّبني بلهجة صارمة، لأنني لم اتصل بها

(1) - رحيق العمر، ص: 109

(2) - أشواق، ص: 296

لأعتذر، فما كان مني إلا أن أعطيتها كلمتين وخرجت وتركتها تتحدث وحدها. ⁽¹⁾ وربما كان له ولع خاص بهذه اللغة حيث كتب لحميدة غب عودته إلى المغرب عائداً من فرنسا «ولعلك تعلمين أني شرعت غداة سفرك في تلقي دروس الإسبانية التي وزعت حصصها على الشكل التالي : ساعة يوم الاثنين وساعة يوم الأربعاء، ⁽²⁾ ولا ريب أن ذلك الولوج عينه هو الذي حدا به إلى ما أفصح عنه في سيرته لاحقاً مينا «تابعت دروساً لتعلم اللغة الإسبانية وحصلت على شهادتين: إحداهما من المركز الثقافي الإسباني بالرباط، والثانية من المركز الدولي بسانتندر في إسبانيا» ⁽³⁾.

ب- بين أهله وذويها

لن نتحدث الساعة عن صلوات الدكتور عباس الجراري مديح الرسائل بزوجته وأبنائه فقد تناولنا ذلك في جزء سابق بيد أننا سنكشف الستار عن أصالة خلقية زانت الرسائل الجرارية برمتها وتتمثل في علاقات الود التي جمعتها وأصهاره وقد عايناها انطلاقاً من البطائق التي كان يوافقهم بها كلما سافر أو ارتحل. حيث بعث بطاقتين لأختي حميدة خديجة ونجبية وأرسل لصهره عبد المالك والد حميدة يوم 6 غشت 1968 بطاقة من تركيا كتب على ظهرها «من اسطنبول أبعث لكم بهذا التذكار راجياً أن تكونوا بخير وأن تبلغوا سلامي لجميع أفراد الأسرة الكريمة» ⁽⁴⁾.

ولا يفتأ دنونا من الرسائل الجرارية أن يشرع أماننا سمات هذه الصلة، فقد كتب لحميدة المقيمة بالقاهرة ساعتها «وهذا موضوع تحدثت فيه طويلاً مع والدك البارحة، إذ ذهبت ومغيث إلى الدار البيضاء حيث قضينا نهاية الأسبوع، فقد ركبنا السيتام على الساعة الخامسة بعد ظهر السبت أي بعد أن انتهيت من حصة الدرس بالمدارس .. قضينا

(1)- أشواق، ص: 132

(2)- نفسه، ص: 289

(3)- رحيق العمر، ص: 112

(4)- أشواق، ص: 305

لحظات حلوة مع الوالدين والإخوة وكلهم يسلمون عليك،»⁽¹⁾ فبالرغم من سفر خطيبته حميدة إلا أنه أبقى على صلة ذات البين قائمة بينه وبين أسرته، حيث كتب لها عن أختها «ذهبنا وخديجة إلى سينما اب س ظهر البارحة حيث شاهدنا فيلماً لا بأس به،»⁽²⁾ ويخبرها في إسهاب عما مر به عند أسرتها خلال نهاية الأسبوع التي قضاهم معهم بالدار البيضاء: «والشيء الوحيد الذي يسترعي النظر أن السيد الطاهر «طائر له» بسبب طرد أمك لكلبه من غير أن تأخذ رأيه ولعلك تذكرين الطاعة التي كانت لهذا الكلب نحو صاحبه.»⁽³⁾ وإذا ما عاقه عائق عن زيارتهم بات الهاتف خير رسول للاطمئنان عليهم حيث سطر في رسالة لها «وقد اتصلت خلال الأسبوع بالبيت فردت أمك مرة وأخوك محمد مرة والدك مرة أخرى، وقد أخبرني والدك أنه لم يتوصل منك بغير بطاقة كتبتهما في جنيف، ولأسباب تتعلق بالصرف لم تستطعي إرسالها إلا من القاهرة،»⁽⁴⁾ وليس هذا الأمر بدعاً داخل أضمومة الرسائل الجراحية، فحين راسل حميدة من باريس أخبرها «توصلت برسالة من والدك في موضوع الحقيبة، وبيطقتين الأولى منه والثانية من خديجة حملت كل منهما أصدق التهاني وأخلص المتمنيات بمناسبة عيدي الرابع والعشرين،»⁽⁵⁾ وكاتبها في موضع آخر مستدركا «بعثت لوالدك كتاباً كان علي أن أرسله فور نزولي بباريز،»⁽⁶⁾ ثم أعلمها في ذات الخطاب «قبل ساعة من هذه اللحظة توصلت برسالة رقيقة من الأخت خديجة حدثتني عن قدومها إلى باريز.»⁽⁷⁾ فقد كان في مكاتبة دائمة معهم لا تفتري. ولعل هذا الاحتفاء بأقارب حميدة آت من دماثة خلق العميد ولطيف شمائله ولين جانبه وتقديره لمن يهواها.

(1) - أشواق، ص: 291

(2) - نفسه، ص: 291

(3) - نفسه، ص: 291

(4) - نفسه، ص: 288

(5) - نفسه، ص: 131

(6) - نفسه، ص: 173

(7) - نفسه، ص: 167

وعلى طرف آخر تجلي هذه الخطابات سمت الصلة التي كانت لحميدة مع أقارب زوجها، فثمة ود وحب لها، حيث نراه يخبرها في أولى الرسائل المعثور عليها موضحاً «الكل يتطلع بشوق إلى اليوم الذي تصبحين فيه جرارية»⁽¹⁾ وبعد أن تلقى الدفعة الأولى من راتبه حثه والده على الإسراع بعقد قرانه على حميدة حتى لا تطول مدة الخطوبة، فراسلها منبثاً «وأود أن أخبرك أن الوالد قال للوالدة إثر ذلك، الآن عليه أن يحزم نفسه لكي يدخل فور عودة حميدة»⁽²⁾ وبدأت أسرة الكاتب برمتها متطلعة لزواجه منتظرة يوم يكون له ولد، حيث سطر لحميدة « أن أختي خديجة وضعت مولوداً جديداً يظهر أنها ستسميه جمالا . هذا وقد تمت لنا سمية مولوداً يكون جميلاً فكان تعليق والدتي «من دابا عام إن شاء الله الزواج والعام اللي بعده غادي يكون عندهم وليد ما فيها كلام.»⁽³⁾ وما عتم أن ذيل خطابه ب «لك من العائلة أعطر السلام.»⁽⁴⁾

وبعد ما يقارب سبع سنوات من هذا الاحتفاء والاحتواء اللذين نضحت بهما هذه الخطابات، تفاجئنا رسالة ذات غرابة خطها الدكتور عباس الجراري كسيف البال يوم 7 يناير 1969 بالقاهرة متأثراً إثر توصله بمكتوب من حميدة « و ما كدت أنني الصفحة الأولى حتى كان العرق يتصبب على وجهي وسائر جسدي بارداً وحتى كانت تقلصات قلبي تزداد وتضغط علي وأحسست بهبوط شديد ودوار قوي وتناقل في الأطراف.»⁽⁵⁾

فلا غرو أن سوء تفاهم حدث بين زوجته ووالديه دعا حميدة إلى أن تكتب إليه متظلمة ومشتكية فما كان منه إلا أن أجابها «ولعلك كنت تلاحظين الحكمة واللباقة اللتين أعامل بهما أسرتي وخاصة والدي، وهو سلوك جعلني، بل جعلنا نحافظ على العلاقات الطيبة ونتفادى أي صدام . ومثل هذا السلوك هو الذي جعلني أظل على صلوات ود مع

(1)- أشواق، ص: 290

(2)- نفسه، ص: 292

(3)- نفسه، ص: 295

(4)- نفسه، ص: 295

(5)- نفسه، ص: 234

جميع أفراد الأسرة الكبيرة سواء في الرباط أو الدار البيضاء. وأظنك لم تنسي كم مرة كنت أنصحك فيها باتخاذ «التيقار» مع الجميع»⁽¹⁾. ودون أن يلقي عليها باللائمة، نراه يذكرها بإيثاره للحفاظ على مسافة من الوقار حتى تبقي على الود ولا تقع في الاحتكاك المفضي إلى ما لا تحمد عقباه ليؤكد لها «كنت أريد منك أن تظلي في وقارك بعيدة عن أي احتكاك لأنني أعرف طبعك وطبع الآخرين.»⁽²⁾ وإذا كنا قد لمسنا سلفا حسن تعامل العميد مع أصهاره فلربما كان سر نجاح مسلكه هو هذا السبيل الذي ينهجه والذي به يحافظ على احترامه للآخرين مع توافر الود والتقدير لهم.

ولم يلبث الكاتب الذي ألفى نفسه في هذا الموقف أن كتب حسيرا «ولا أخفيك أني في حيرة من أمري لا أعرف ما أصنع، وإذا كان القول المأثور «بين نارين» ينطبق على أحد فهو علي أكثر انطباقا وتحقيقا.»⁽³⁾ وبين حميدة ووالديه انتابته حيرة أزرت به فأفصح مكلوما «هنا زوجتي وأم أولادي يجمع بيني وبينها الحب وأقوى وأصره وأمتن روابطه، أنارت لي الطرق في مفترقها وساندتني في أخطر مراحل حياتي وضحت من أجلي وكافحت في صبر وثبات ووفاء ولا تزال»⁽⁴⁾، وما يفتأ أن يستدرك «وهناك والذي يجباني ويعطفان علي ويحنون كأعظم ما يكون الحب والعطف والحنو، تحملا من أجلي ما لم يتحمله والدان علي الإطلاق وضحيا من أجلي بكل غال ونفيس، ثم لم يبخلا علي لحظة واحدة بأغلي وأعز ما يملكان، وأنفقا علي طوال كل مراحل الدراسة والحياة بسخاء بلغ حد الإسراف.»⁽⁵⁾

لاريب أن تفكيرني في إيراد موضوع العلاقات الأسرية ضمن رسائل العميد، مرده إلى أنها مثلت في مساره الدعم والسند سيما إبان إقامته في القاهرة أو تركيا أو الولايات المتحدة الأمريكية وماخلاها من بلدان زارها بموجب الدراسة أو العمل. فحين يبارح وطنه تظل حليلته وحدها في مرحلة ما ومع صغارها في مراحل لاحقة، محاطة بأهلها

(1)- أشواق، ص: 232

(2)- نفسه، ص: 232

(3)- نفسه، ص: 232

(4)- نفسه، ص: 232

(5)- نفسه، ص: 232

وأقارب زوجها حتى وإن كان لها مسكنها الخاص، ولعل هؤلاء باتوا سندا لها في غياب إليها. وبعودتنا إلى البطاقات البريدية التي كان يبعثها الكاتب إلى أبنائه نلفي هذا الإصرار على الارتباط بالأقارب، فقد كتب لألوف وهو يوفد بطاقة تحمل صور قطة وصغارها «سلمي على علا وماما وفاطمة وبا سيدي ولالا سواء في الرباط أو الدار البيضاء، وعلى جميع العمات والأعمام والخالات والأخوال»⁽¹⁾ وأردف في بطاقة لها أخرى «سلمي على ماما وعلا وفاطمة وجميع أفراد الأسرة، وقولي لهم إن بابا بخير ويتمنى أن تكونوا كذلك»⁽²⁾. وبمناسبة العيد سطر لها بطاقة متمنيا «راجيا أن تبليغي تهنّتي صباح العيد لماما وعلا وبا سيدي ولالا وجميع العمات والأعمام والخالات والأخوال»⁽³⁾

ولأجل أن تظل هذه الروابط متينة فلا تنفصم عراها، نراه يتوجه إلى حميدة المنكوءة الفؤاد متسائلا: «هل أنصحك بطي ما حدث في كتمان قلبك الطيب الكبير ومحو كل آثاره وكأنه لم يكن؟ أم أرجوك أن تعبري ما سمعت مجرد كلام لا يعدو ما يقوله الأب لابنه والأم لابنتها؟»⁽⁴⁾

وتفضي به هذه الخيرة إلى الدعاء على الله بفرج كربه ويؤالف بين أفئدة أحب الناس إليه، مستحضرا ما يكنه كل طرف للآخر من محبة وتقدير، فيختم رسالته بنبرة توسلية ذات جلاء:

«اللهم إنك تعرف أي لم أنس قط جميل زوجتي علي فأعني على تعويضه والاعتراف به
اللهم إنك تعرف أي ما تنكرت لوالدي ولا أنكرت فضلها فزد يارب في طاعتي لهما
ورضاهما علي

اللهم إنك تعرف ما تكنه زوجتي لوالدي من حب واعتزاز صادقين كبيرين، فأنر
قلبيها لهذا الحب والإعزاز

(1)- أشواق، ص: 306

(2)- نفسه، ص: 307

(3)- نفسه، ص: 314

(4)- نفسه، ص: 232

اللهم إنك تعرف أن لزوجتي في نفس والدي مكانة حب وتقدير عميقين فاهدها
يارب لادراك كنهها والتمسك بروابطها المتينة. ⁽¹⁾

ولطالما عانى الكاتب في نأيه من مواقف كهذه آلمته، لكن ما تلبث أن تعود المياه
رقراقة صافية إلى مجاريها فيصفو كدره.

تمتلك الرسائل بصفتها مكتوبا ذاتيا سمة البوح والتوثيق معا، ولاغرو أنها تجلي من
بين سطورها مخبوءات عديدة تملأ بياضات الحكيم وتسد فجوات المعنى وتثري الدلالات
حين تغدو مرفأ عليه تغفو سفن الذكريات.

(1)- أشواق، ص: 233

خاتمة



خاتمة

على ذات النحو الذي يبعث على الدهشة والذي فاجأنا به عميد الأدب المغربي وهو يلقي بين أيدينا على حين غرة بديوانه الشعري ذي الجزأين، شهدناه في ما تلا ذلك رحالة لا يشق له غبار خلد ما حياه من محكي الأسفار في سفرين أودعهما مروياته عن الأقطار.

لا أحسب إلا أن إمطة اللثام عن "رسائل أشواق" لا بد أنه ملق بنا في أتون من الاستغراب المبهج حول ما امتلكه الدكتور عباس الجراري من مواهب فذة حذت به إلى خوض غمار الأجناس الأدبية جميعها دونما خشية، وإذا كنا قد عرفناه مترسلاً أثناء بعثته العلمية إلى تركيا صيف 1968، حيث وافى زوجته من هناك برسائل ظلت مستترة في خفر لأكثر من خمسة عقود، وهي الخطابات التي منحتنا نصاً رحلياً ذا مزايا هو "رحلة نسيم البوسفور". فإنه يقدم لنا اليوم أكثر من خمسين خطاباً دبجها منذ ستة عقود ونيف تنسحب على مرحلة من حياته تمتد من سنة 1960 إلى عام 1981.

لقد شغف الدكتور عباس الجراري في سنواته الأخيرة بالإبداعات ذات السمات الذاتي والميسم الإحالي سيما حين أقدم على نشر سيرته الذاتية في جزئها الأول، ولعل هذه الرسائل التي أتت مضمخة بعطر السنين لتتضاف إلى هذه الكتابات الشخصية.

تحتل الرسائل عند الدكتور عباس الجراري مكاناً علياً يقول "للتخاطب بالكتابة أداة معروفة هي الرسائل التي تشكل في الآداب العالمية عامة—والأدب العربي خاصة— نمطاً متميزاً بأساليبه ومناهجه وأغراضه، مما يتضمنه فن الترسل⁽¹⁾. ولاغرو أن رغبته في الكشف عن هذه الرسائل وإخراجها من السفور إلى العلن كان مرده ولا ريب رد

(1)ـ كليات تقديم، ج:1، ص:173

الاعتبار للرسالة كجنس أدبي أثيل كاد أن يعفي عليه الدهر أمام اكتساح الرسائل النصية القصيرة، وقد عبر عن هذه الخشية قائلاً: "وعلى كثرة ما أنتج المغاربة في هذا المضممار وما اكتسبوا من مراس في كتابته بتفرد وتميز، فإنه يبدو أن وسائل الاتصال الميسرة اليوم- بدءاً من الهاتف إلى البريد الآلي فجميع ما أتاحتها ثورة التقنيات المعاصرة - جعلت الناس يستغنون في الغالب عن كتابة الرسائل، مستبدلين بها تلك الوسائل التي ألغت المسافات مهما تكن متباعدة، وجعلتهم يلتقون سمعا ورؤية بسرعة فائقة ليس معها أي انتظار. وهو الأسلوب الذي أخذت تعتمد الأسر في الاتصال بأولادها حين يكونون في بلاد الغرب. وقلما يقع اللجوء إلى كتابة الرسائل التقليدية، إن لم يكن ذلك قد انتهى أو كاد".⁽¹⁾

كما أنه رغب في إيلاء الاهتمام إلى هذا اللون من النصوص بالانبراء لدراستها وسبر أغوارها. فأهمية هذه الأضمومة تأتي من حيث كونها ستضيف سفرا ترسلها إلى الإرث الرسالي في الأدب المغربي، بالنظر إلى قلة هذا السم من المتون.

ولعل الدكتور عباس الجراري بإقدامه على نشر خطابه الشخصية قيد حياته، يكون قد حقق الريادة في هذا السبيل، خاصة وأن هذه الخطابات هي رسائله إلى الزوجة، وكلنا نعلم أن الأدب العربي لم يحفظ للزوجات نصيباً من الشعر إلا ما كان من رثاء أو هجاء. كما أن جل الرسائل الشخصية تنشر عادة بعد وفاة كاتبها.

لقد أذعن الرسائل داخل أضمومة أشواق لضوابط الترس وقواعده من حيث احترام الاستهلال والتمن والتذليل، كما زاجت بين الطول وبين القصر ووردت بخط يد كاتبها واضحة جلية. إذ التزم الكاتب بصياغة رسائله بلغة عربية فصيحة مضمنا إياها آيات من القرآن أو أبيات من الشعر أو بعض الأمثال.

ليست تخفى عناية عميد الأدب المغربي بتمثل ثيمة الزوجة في نصوص الأدب المغربي، ولعله أفرد في ديوانه الشعري جزءا ليس باليسير تغنى فيه بزوجه السيدة

(1) كلمات تقديم، ج:1، ص:179

حميدة بقصائد فصيحة ونصوص زجلية، بنتف وقطع ندية وسمه ب أشواق، ولعله بتعريجه على ذات الموضوعه من خلال خطابات الترسل التي اشراأت من بين ثناياها الأشواق، نراه يلح على وجوب الاحتفاء بهذا المنحى والمضي فيه بخطى حثيثة متوسمين استبطان نصوص جديدة تجللها ذات السمة.

ولعلنا بهذه الدراسة أن نكون قد أفلحنا في مقاربة "تضوع الشوق من رسائل العشق بين المحب الوامق والإلف الصادق" من خلال أضمومة أشواق للدكتور عباس الجراري.

بين تلافيف الحنين غفت رسائل الأشواق، وخلل راحتي الوجد ربت، ومن وهج الجوى ووجيب التيم انسربت، حروف حانية، للبين جافية، على بياض الصفحات جائية، بإثممد الحبر ثاوية، رقشتها أنامل رانية بدفق الوله ذاوية.



لائحة المصادر والمراجع



لائحة المصادر والمراجع

- أشواق من رسائل عباس الجراري لزوجته وبطاقق بريدية لأبنائه، جمع وإعداد: حميدة الصائغ الجراري منشورات النادي الجراري 116- دجنبر 2023
- ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، عباس الجراري، إعداد وتقديم مصطفى الجوهري منشورات النادي الجراري-80- الطبعة الأولى 2018
- العلامة عباس الجراري على السنة الشعراء، جمع ودراسة السعيد بنفراحي، الطبعة الأولى 2005، مطبعة بني يزناسن رحيق العمر موجز سيرتي الذاتية، عباس الجراري، منشورات النادي الجراري 101 الطبعة الأولى 2020 ج:1
- القصيدة، الزجل في المغرب، عباس الجراري، مطبعة الأمانة 1970
- كلمات تقديم، عباس الجراري، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، منشورات النادي الجراري-34- الطبعة الأولى 2006
- من ديوان عباس الجراري، إعداد وتقديم محمد احميدة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة 1 2017، ج:1
- من ديوان عباس الجراري، إعداد وتقديم محمد احميدة دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة 1، 2017 ج:2
- نسيم البوسفور، عباس الجراري، إعداد ودراسة : دبدبعة لفضايلى، منشورات النادي الجراري، الطبعة الأولى 2020
- ابراهيم ناجي :زيارة حميمية تأخرت كثيرا، سامية محرز، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 2020
- الأعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، 1993، ج:7
- الأيام في مجلد واحد، طه حسين، مركز الأهرام للترجمة والنقل الطبعة الاولى 1992
- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني بغداد، الطبعة الأولى 1968

- حياة الرفاعي، محمد سعيد العريان، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1955
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب السيد احمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى مصر الطبعة 27 سنة 1969
- الحب والحق المقدس، عبد الباسط هيكل، روابط للنشر وتقنية المعلومات، الطبعة 1-2019
- ديوان الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، دون تاريخ
- ديوان جرير، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة، ج:2
- ديوان الحدائق، قدور الورطاسي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1977
- ديوان حاتم عبد الله الطائي وأخباره، تحقيق: الدكتور عادل سليمان جمال، المؤسسة السعودية بمصر، دت
- ديوان الحطيئة، دراسة وتبويب : مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الاولى 1993
- ديوان زهير بن أبي سلمى، حمدون طماس، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثانية 2005
- ديوان علال الفاسي روض الملك، اعداد وتحقيق عبد الرحمن بن العربي الحريشي، القسم الأول من الجزء الثان مطبعة الرسالة،
- ديوان الفرزدق، شرحه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1987
- ديوان لقيط بن يعمر، حققه وقدم له الدكتور عبد المعيد خان، دار الأمانة مؤسسة الرسالة، 1981
- ديوان المتملس الضبعي، تحقيق : حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية 1970
- رسائل ألبير كامو إلى ماريا كازاريس، ألبير كامو، ترجمة: سهى بخته، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2020 رسائل إنسي الحاج إلى غادة السمان، دار الطليعة للطباعة والنشر: بيروت لبنان، الطبعة الاولى 1992
- رسائل إلى ميلينا، فرانس كافكا، الأعمال الكاملة، ترجمة: الدسوقي فهمي الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى 1997
- رسالة تولستوي إلى زوجته، تولستوي، ترجمة خيرى الضامن، دار سوال للنشر لبنان، الطبعة الاولى 2017

- رسائل طه حسين، ابراهيم عبد العزيز، تقديم نجيب محفوظ، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة 1، 2000
- رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان دار الطليعة للطباعة والنشر: بيروت لبنان، الطبعة الاولى، 2017
- الرسائل، فيودور دوستوفسكي، الجزء 2، ترجمة خيرى الضامن، دار سوال للنشر لبنان، الطبعة 1، 2017
- سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر وجهًا لوجه الحياة والحب، هازل رولي، ترجمة: محمد حنانا، دار المدى الطبعة الأولى 2017
- الشعلة الزرقاء رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، تحقيق سلمى الحفار الكزبري والدكتور سهيل بشروني، مؤسسة نوفل بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1984
- صبح الأعشى للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب السلطانية 1338 هـ 1919 م، د ط، الجزء 14 .
- الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، عيسى البابلي الحلبي وشركاه، د ط، د ت،
- طوق الحمامة في الالفه والالاف علي بن حزم الاندلسي، دراسة وتحقيق عبد الحق التركماني، دار ابن حزم الطبعة الثانية 2013 ص: 221
- العقد الفريد، ابن عبدربه الأندلسي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الاولى 1404، ج: 4
- كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي بن علي التهانوي، دار صادر بيروت، د ط، د ت، الجزء الثاني.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق: نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية 2004، ج: 1،
- مناديل وقضبان، ثريا السقاط، ص: 103، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى: 1988
- معك، سوزان طه حسين، تر بدر الديت عرودكي، مراجعة محمد محمود العالم، مؤسسة الهداوي 2015

- "100 رسالة حب"، نزار قباني، منشورات نزار قباني، الطبعة الثانية عشرة، مارس 1982،
- موسوعة الملحون، ديوان الشيخ أحمد الغرابلي، إشراف وتقديم الأستاذ عباس الجراري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 2012
- موسوعة الملحون، ديوان الشيخ ادريس بن علي السناني المعروف بالحنش، إشراف وتقديم الأستاذ عباس الجراري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 2012
- الموشى أو الظرف والظرفاء، ابن يحيى الوشاء، تحقيق ودراسة د فهمي سعد، عالم الكتب الطبعة الأولى 1986
- يوميات الكونتيسة صوفيا تولستايا زوجة ليف تولستوير، ترجمة عبد الله الحبة، دار المدى، الطبعة الأولى 2018
- المجالات
- "كتابة الماضي بالمضارع تأملات في السيرة الذاتية"، رشيد بنجدو، مجلة علامات في النقد، الجزء 23، المجلد 6، مارس 2007
- الجرافولوجي تبصرة بخبايا الكاتب، د. ناصر أحمد سنة، المجلة العربية، الأحد 2 / 10 / 2016، الموقع الإلكتروني: www.arabicmagazine.net

الفهرست

- مقدمة.....ص: 9
مُدخل.....ص: 13
1 الرسالة وتحبير الخطاباتص: 15
2. الزوجة في الأدب العربيص: 21
3. الزوجة في أدب الرسائلص: 27

الفصل الأول

- 1 عباس الجراري وتحبير الخطابات.....ص: 37
2 بين يدي أشواق.....ص: 43
3- رسائل أشواق وسحر الجرافولوجي.....ص: 59

الفصل الثاني

1. الحب بين جذوة العشق وألفة الزواج.....ص: 71
2. بين إيسار الغربة ودثار الحنينص: 79
3 بين بشائر الصفح ونذر العتابص: 85
4. بين كرب الواقعي وبهجة المتخيلص: 93
5. بين متعة السرد ودفق الترسلص: 99
6. بين المنحى الذاتي والسمت التوثيقيص: 107
7. الرسائل ومعمارية التشكلص: 115

الفصل الثالث

1. الرسائل إلى الزوجات في حضرة العميدين طه حسين وعباس الجاربي ص:127
2 بين العقيلتين حميدة وسوزان ص:143

الفصل الرابع : طبيعة اللقيا

- مقدمة ص:155
1 الرسائل وتباين المحمولات ص:165
أ- الخطابات ص:165
ب- البطاقات البريدية ص:176
ج- عبارات التهاني وصيغ التهادي ص:183
2. الرسائل وملء البياضات ص:211
أ- شغف التدريس ص:212
ب- بين أهله وذويها ص:215
خاتمة ص:221
المصادر والمراجع ص:227
الفهرست ص:233



